شعراء عالميون

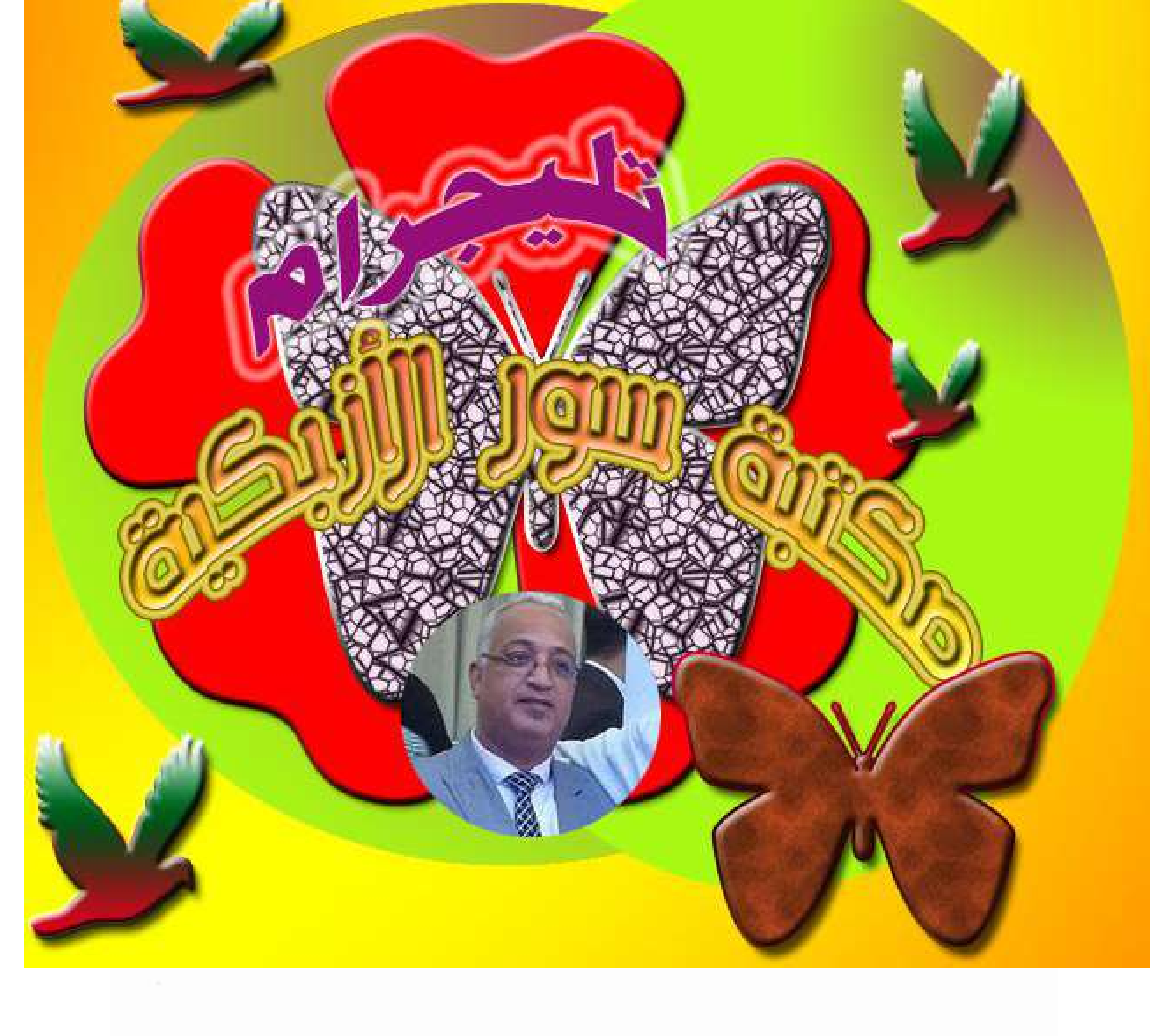
دراسات حول

كفافى - بابلو نيرودا
طاغور - رسول حمزاتوف



رجاء النقاش





شعراء عالميون

النقاش ، رجاء .
شعراء عالميون : دراسات حول بابلونيرودا وكفافى وطاغور ورسول حمزاتوف / رجاء النقاش .
- ط١ . - الجيزة : دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ، ٢٠٠٧
٢٢٤ص؛ ٢٤ سم .
تدمك ٣ ٠٨٩ ٣٩٩ ٩٧٧
١- الشعر - تاريخ ونقد
أ- العنوان
٨٠٩,١



دراسات حول: «بابلو نيرودا» و «كفافي»
و «طاغور» و «رسول حمزاتوف»

رجاء النقاش



رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب
حسام حسين

مستشار النشر
أحمد جمال الدين

رقم الإيداع
٩٨٢٣ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولى
977-399-089-3

الطبعة الأولى

الجمع والإخراج الفنى
مكتبة ابن سينا

مطابع العبور الحديثة
ت: ٤٦٦٥١٠١٣، ف: ٤٦٦٥١٥٩٩

الكتاب : شعراء عالميون
المؤلف : رجاء النقاش
الغلاف : قدرى عبد ربه
الناشر : أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م
٢٥ ش وادى النيل - المهندسين - القاهرة
E-mail:atlas@innovations-co.com
تليفون : ٣٠٢٧٩٦٥ - ٣٠٣٩٥٣٩ - ٣٤٦٥٨٥٠
فاكس : ٣٠٢٨٣٢٨

* * * *

مُقَدِّمَة

هذا الكتاب هو رحلة مع أربعة من أكبر شعراء العالم فى القرن العشرين. وقد رحل ثلاثة منهم فى القرن الذى ولدوا فيه وهم «نيرودا» وطاغور» و«كفافى» . وبقى واحد لا يزال يعيش بيننا إلى اليوم وهو الشاعر الداغستانى الإنسانى العظيم «رسول حمزاتوف»، وهذه الرحلة التى يتضمنها هذا الكتاب مع الشعراء العالميين هى رحلة حرة ، بمعنى أنها نوع من الحياة معهم فى بعض لحظاتهم الإنسانية وبعض أشعارهم، دون التقيدبأى منهج «أكاديمي» صارم يبدأ معهم من الميلاد حتى النهاية ، ويحرص على تسجيل الأحداث التاريخية والأدبية تسجيلاً دقيقًا يمضى فيه معهم لحظة بلحظة . فهذا أمر لم أفكر فيه، ولم أخطط له ، ولكن رحلتى مع هؤلاء الشعراء العالميين الكبار هى نوع من الحياة فى حدائقهم الجميلة، أتنقل فيها بحرية كاملة هنا وهناك كلما أثارت انتباهى زهرة جميلة، أو شجرة ظليلة ، أو مقعد إنسانى مريح، أو نبع ماء فيه صفاء يتدفق مع أشعارهم أو من تجاربهم الإنسانية المختلفة، فالرحلة هنا رحلة حرة بكل معنى الكلمة ، ليس لها برنامج مرسوم ومحدد، ولكن الشىء الوحيد الذى يحكمها هو نداء القلب وجاذبية الجمال فى الفن والإنسان عند هؤلاء الشعراء الأربعة العظماء. ولا يخلو الكتاب من آراء تنطوى تحت عنوان النقد الفنى الشعرى، ولكنهاكلها آراء تأتى بطريقة عفوية غير مباشرة، وتمليها المناسبة عندما تعترضنى مثل هذه المناسبة فى طريق حديثى عن هؤلاء الشعراء، وهذه الآراء المتفرقة تكشف عن وجهة نظرى المتواضعة فى تعريف معنى الشعر، وتحديد مقاييس الجمال فيه، دون أن أتعمد ذلك، ولكنها كلها تأتى هكذا بطريقة طبيعية ، وأنا أتحدث عن بعض القصائد، أو بعض المواقف، أما الأصل فى هذا الكتاب فهو أننى حاولت أن

أصحب هؤلاء الشعراء الذين هزوا قلبى وذوقى وإحساسى بالحياة، وأنا أصحبهم صحبة الصديق أو التابع المحب العاشق، الذى يحاول أن يسجل بعض اللحظات الإنسانية الجميلة التى صادفها - وهى كثيرة - فى صحبته لهؤلاء الشعراء العظماء الأربعة. قد أعجبنى وأدهشنى هؤلاء الشعراء كنماذج إنسانية مثيرة، وأنا من أشد الناس إعجابًا بالموهوبين الكبار الذين يجمعون إلى جانب الموهبة سحرًا إنسانيًا فى شخصيتهم وتعاملهم مع الحياة والناس، وكثيرًا ما أشعر بالحزن والإحباط عندما أجد فنانًا مبدعًا يقول لنا تاريخ حياته إنه إنسان ردئ وأنانى وغافل عن أحزان الآخرين وهمومهم، فمهما كانت عظمة هذا الشاعر فى فنه، فإن ما فيه من نقص إنسانى يثير ضيقى ونفورى الشديدين، لأن صانع الجمال فى الشعر لابد أن يكون جميلاً فى حياته أيضًا، وللأسف فإن هذا الأمر هو فى الواقع وفى التاريخ نادر، فبعض صانعى الجمال يكونون فاقدين للجمال فى حياتهم الشخصية وتعاملهم مع الناس، أما عندما يجتمع جمال الفن مع جمال الإنسان فهذه هى القمة العالية التى يصبح فيها الجمال نوعًا من الكمال، وفى هذه القمة يشعر الإنسان بالطرب والنشوة، ويحس أن هذا الكمال المزدوج فى الفن والإنسانية، هو أكرم نعمة من الله على مخلوقاته فى هذه الدنيا المليئة بالصعوبات والآلام ، فهؤلاء الذين يصنعون الجمال فى فنهم، ويمارسونه فى حياتهم وسلوكهم وحنانهم على غيرهم من البشر، هم أكثر من يجذبون اهتمامى قبل أى إنسان أو أى شىء آخر، فأنا من الذين يعشقون جمال النفس الإنسانية أولاً وقبل كل شىء، ولا يهزنى جمال الفن إلا إذا كان انعكاسًا لجمال أكبر وأشمل فى الإنسان نفسه.

وهؤلاء الشعراء الأربعة الذين أصاحبهم فى هذا الكتاب قد جمعوا بين جمال الفن وجمال الإنسانية فى قلوبهم الكبيرة ، وفلسفتهم المليئة بالرحمة والحنان ، وهذا الكتاب ليس إلا رحلة مع هؤلاء الشعراء لا تتقيد بشىء على الإطلاق، سوى أن تتوقف معهم لحظات متفرقة، كلما لاحت لى بعض المعانى الإنسانية الرائعة التى اكتشفوها هم وعبروا عنها خير تعبير، فليعذرنى القارئ الكريم إذا وجد فى الكتاب بعض التكرار، أو بعض

الانفصال بين الفصول المختلفة ، فأنا لم أقصد أبدًا أن أكتب دراسات محكمة متصلة الحلقات عن هؤلاء الشعراء ، وإنما أنا سائح فى أرض الله الجميلة والنبيلة ، والتى يمثلها هؤلاء الشعراء بفنهم الرائع وإنسانيتهم الفريدة، فمن أراد أن يصحبنى فى هذه السياحة الجميلة فأهلاً وسهلاً، أما من أراد دراسة منظمة أكاديمية دقيقة فليبحث عن كتاب غير هذا الكتاب، وليبحث عن دراسات أخرى غير هذه الرحلة السياحية الروحية التى يضمها هذا الكتاب، حيث أقف عند كل ما يثير قلبى ومشاعرى، ولا ألبس أبدًا رداء العلماء والباحثين الذين يحرصون على سرد كل التفاصيل، ويربطون بينها بخيوط وثيقة ودقيقة ، فهذا عمل آخر له كل الاحترام والتقدير، وحاجتنا إليه ماسة إلى أبعد الحدود، ولكنى فى هذا الكتاب أختلف عن هؤلاء، وأقوم برحلة حرة، تحرص كل الحرص على دقة المعلومات، ولكنها لا تتوقف كثيرًا إلا عند التجارب الإنسانية والروحية والفنية العالية، فأنا هنا أنصت إلى قلبى أكثر مما أنصت إلى المناهج الأدبية الدقيقة ، أو المدارس الفكرية الصارمة ، فإلى الذين ينصتون إلى قلوبهم أقدم هذا الكتاب، وإلى الذين يحبون السياحة الروحية الحرة أقدم فصوله المختلفة، وعلى الله - وحده - التوفيق ، ومنه العون والرعاية .

رجاء النقاش

القاهرة يناير ٢٠٠٢

بابلو نيرودا

١٩٠٤ - ١٩٧٣

عبقرية البساطة

كانت حياته مليئة بالمتاعب والآلام ، فقد ماتت أمه بعد مولده بشهر واحد، ورغم أنه كان أصغر من أن يعرف عنها شيئًا فقد ظل طيلة حياته يحمل لها فى قلبه صورة جميلة ، وبعد أن تقدم به العمر قليلاً، وأخذيدرك معانى الأشياء، بدأ يسأل عن هذه الأم .. كيف كان شكلها ؟ كيف كانت تتحدث؟ كيف كانت تتصرف مع الآخرين؟. وكان لا يترك أحدًا ممن عرفوا أمه إلا ويسأله عنها، حتى استطاع فى آخر الأمر أن يرسم لها فى خياله صورة كاملة، وظلت هذه الصورة تصاحبه حتى النهاية . ولم تتوقف متاعبه عند هذا الحد، فقد ولد فى أسرة فقيرة، وكان أبوه سائق قطار ، ولم ينتظر هذا الأب طويلاً بعد وفاة الأم ، فقد تزوج مرة ثانية بعد فترة قصيرة من وفاة زوجته الأولى ، وعاش الطفل سنوات طفولته وصباه فى ظل زوجة أبيه ، ولم يكن بذلك من السعداء.

هذه بعض لمحات من حياة فنان هز الدنيا، هو الشاعر العالمى الكبير «بابلونيرودا» وقد ولد «نيرودا» فى «تشيلى» بأمريكا اللاتينية سنة ١٩٠٤، وتوفى فيها سنة ١٩٧٣ ، وقيل إنه مات مقتولاً فى الانقلاب العسكري الذى وقع فى بلاده فى نفس عام وفاته، وفى هذاالانقلاب مات رئيس تشيلى «الليندى» قتيلاً، وكان الشاعر العظيم «نيرودا» من أنصار «الليندى» إذ كان «الليندى» رجلاً وطنيًا مخلصًا جاء إلى حكم بلاده بطريقة ديموقراطيه ، ولكن المؤامرات لم تتركه فى موقعه ، فأطاحت به هذه المؤامرات وقتلته وأستولى الإنقلابيون من أعداء الديموقراطية على السلطة بتخطيط ومساندة كاملة من وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت – سنة ١٩٧٣– هنرى كيسنجر .

وكان «الليندى» يحب الشاعر «نيرودا» فجعله سفيرًا «لتشيلى» فى باريس ولعل الشاعر «نيرودا» نفسه هو الذى اختار هذا الموقع بالتحديد، فقد كان

يحب باريس ويعشق ما فيها من ذوق وثقافة وفنون رفيعة، وكان يتقن اللغة الفرنسية ، وكان يعد نفسه فى شبابه ليكون معلمًا للغة الفرنسية. وعندما قام الإنقلاب العسكرى فى بلاده ، كان «نيرودا» مريضًا فى أحد مستشفيات «سانتياجو» عاصمة «تشيلى» ولم تمض أيام على الإنقلاب العسكرى حتى تم الإعلان عن موت «نيرودا» بسبب المرض، وكان فى التاسعة والستين، أما أحبابه وأنصاره وعشاق قصائده فقد قالوا إنه مات قتيلاً بأيدى المتآمرين. وكثير من عواصم الثقافة فى العالم، احتفلت فى ٢٣ سبتمبر ١٩٩٨، بالذكرى الخامسة والعشرين لرحيل «بابلونيرودا» فقد كان «نيرودا» شاعرًا إنسانيًا بكل معانى الكلمة، ورغم أنه كان مرتبطًا كل الارتباط باليسار والفكر الاشتراكي، إلا أنه بفضل إنسانيته وابتعاده الكامل عن التعصب، استطاع أن يؤثر فى أوروبا وأمريكا ، وأن يحظى فيها بالاحترام الكامل والحب العظيم ، ولذلك لم تتردد لجنة جائزة «نوبل» فى إعطائه جائزتها الأدبية الدولية سنة ١٩٧١ فكان بذلك أحد الأدباء اليساريين القلائل الذين نالوا هذه الجائزة، ولعله كان الشاعر الوحيد الذى جمع بين «جائزة نوبل» و«جائزة ستالين» حيث أنه نال «جائزة ستالين» سنة ١٩٥٣، وبعدها بأقل من عشرين عامًا نال «جائزة نوبل».

وحياة «نيرودا» مليئة بالتجارب الصعبة القاسية، فبالإضافة إلى ما عاناه وهو طفل صغير بحرمانه من أمه ، وما عاناه فى صباه وشبابه الأول من الفقر وقسوة الحياة فى ظل زوجة أبيه ، فإنه تزوج ثلاث مرات ، ولم ينجح فى زواجه الأول ولا فى زواجه الثانى، وقد نجح فى زواجه الثالث من زوجته «ماتيلدا» التي تزوج منها بعد أن تجاوز الخمسين، وعاشت معه حتى النهاية وتغنى بها كثيرًا فى أشعاره . ولم ينجب «نيرودا» سوى ابنة واحدة، وكانت مريضة منذ ميلادها سنة ١٩٣٤ بشلل الأطفال، وقد ماتت وهى فى الثامنة، وهي ابنته من زوجته الأولى «ماريا» التى عاشت معه ست سنوات غير سعيدة.

وكان «نيرودا» محبًا للرحلة والتنقل بين بلدان العالم المختلفة، فزار معظم بلدان أمريكا اللاتينية، وزار أوروبا والهند والصين والولايات المتحدة

وقضى فترات طويلة من حياته فى باريس وروما ومدريد وكان صديقًا حميمًا لشاعر أسبانيا العظيم «لوركا» الذى اغتالته قوات الطاغية «فرانكو» سنة ١٩٣٦.

هذه الحياة المليئة بالمعاناة والاضطراب ، لم يكن لها تأثير سلبي على نفسية «نيرودا» فظل فى شعره متفائلاً وداعية إلى الخير والجمال، وظل صديقًا لبسطاء الناس، يعبر عنهم، ويكتب لهم قصائده البديعة ولا نكاد نجد بيتًا واحدًا يدعو إلى الحزن أو اليأس فى شعر «نيرودا» ولا نكاد نجد كلمة صعبة أو صورة معقدة، فقصائده التى كان يكتبها للناس بسيطة متدفقة، ومع ذلك فهى لا تفقد أبدًا جمالها وسحرها، وقد أجمع نقاد الشعر ومحبوه على أن «نيرودا» استطاع أن يحقق معادلة فنية راقية جدًا، حيث جمع فى شعره بين البساطة والجمال فالبساطة عنده ليست هى السذاجة أو السطحية ، ولكنها موقف من الحياة والإنسان ، فينابيع الشعر عند «نيرودا» هى الفرح بالحياة والحرص عليها حتى فى أقل مظاهرها شأنًا، وينابيع الشعر عنده هى أيضًا الحماس الصادق للإنسان فى جهده من أجل رزقه، ومن أجل أن يحصل على السلام والإطمئنان بين أهله وأحبابه، وقد كان التجاوب العالمى الواسع مع شعر «نيرودا» تأكيدًا له وللجميع بأن البقاء فى الشعر للبساطة وليس للتعقيد والغموض، وأن الموهبة الحقيقية والقلب الصادق يمكنهما أن يكتشفا فى أبسط مظاهر الحياة الإنسانية شعرًا حقيقيًا يؤثر فى النفس، ويحقق لها ما يمكن أن نسميه بالنشوة الفنية العالية، ولو كانت البساطة عائقًا للشعر العظيم لما استطاع «نيرودا» أن يحتل مكانته العالمية الكبيرة، ولما كانت لجنة جائزة نوبل قد اعترفت به واعتبرته شاعرًا إنسانيًا عالميًا يستحق التكريم، فالشاعر «نيرودا» يؤكد فى قصائده التي كتبها فى الدعوة لإسعاد الناس وجعل حياتهم أجمل، أن هناك ما يمكن أن نسميه باسم «عبقرية البساطة» وهذه العبقرية هى التى جعلت قصائد «نيرودا» السهلة الواضحة تمس القلوب، وتثير فيها أعمق المشاعر والأحاسيس، وتدفع الناس إلى أن يكونوا أكثر نشاطًا وحيوية وإقبالاً على الحياة وأكثر قدرة على احتمال الآلام

والهموم، وقد عكف العديد من الأدباء العرب الذين يتقنون الأسبانية على ترجمة قصائد «نيرودا» فالأسبانية هى لغة هذا الشاعر العظيم ، وكان على رأسهم جميعًا الأديب العربى الفلسطينى الدكتور محمود صبح، الذى ترجم العديد من أشعار «نيرودا» ، كما ترجم مذكراته الفاتنة، وسوف أتوقف هنا أمام بعض النماذج من أشعار «نيرودا» التى ترجمها الدكتور صبح، ولا شك أن ترجمة الشعر، لابد أن تقلل من قيمته وعناصر الجمال فيه ، فلغة الشاعر الأصلية هى دائمًا جزء من عبقريته، كما أن الموسيقى الشعرية لابد أن يختفى جزء منها عند الترجمة ، فالترجمة تتوقف أمام المعانى، وتحاول أن تنقل فى «لغة نثرية» عادية، لغة شعرية غير عادية ، ومع ذلك فالشعراءالإنسانيون من أمثال «بابلونيرودا» لا يمكن أن تفقد أشعارهم ما فيها من لهيب مشتعل، فى أى لغة تنتقل إليها، ذلك لأن نار الموهبة المقدسة تظل متوهجة فى هذه الأشعار، مهما تغيرت أثواب اللغة وهذا أيضًا دليل آخر على الأصالة الكامنة فى «عبقرية البساطة» ، ذلك أن الشاعر العظيم يكتب قصائده من قلبه، ولغة القلوب لغة إنسانية عامة يفهمها الجميع ويحسون بها، و«نيرودا» كان شاعرًا واسع الثقافة، فقد قرأ كثيرًا، وحفظ أروع قصائد الشعراء، من «بوشكين» الروسى إلى «شكسبير» الإنجليزى، إلى صديقه الأسبانى الرائع «لوركا»، ولم تكن ثقافة «نيرودا» ثقافة معتمدة على الكتب فقط، بل كانت ثقافة «حياة» أيضًا ، فقد كان كثير التنقل والرحلة، وكان له أصدقاء ومحبون فى كل أنحاء العالم، ونستطيع أن نقول عنه أنه صاحب «دكتوراه من جامعة الحياة» فخبرته بالناس كانت واسعة ومعلوماته عن أحوالهم كانت عميقة وصادقة ، وحبه للإنسانية، فى كل مكان تكافح فيه، كان من أصدق العواطف وأكثرها أصالة وصلابة، وقد بلغ من إيمان «نيرودا» بأنه إنسان عالمى وليس إنسانًا محصورًا فى وطن واحد محدود، أنه قام بتغيير اسمه الأصلى، وقدكان اسمًا لاتينيًا معقدًا وهو «نافتالى ريس باسوالتو» فغيره الشاعر إلى الاسم الذى عرفه العالم به وهو «بابلونيرودا» وكلمة «بابلو» معناها «الشعب» أو «الناس» بالأسبانية، وهى بالتحديد كلمة **PUEBLO** أما كلمة «نيرودا» فقد اختارها لأنه كان يعشق أديبًا تشيكيًا اسمه «جان نيرودا» عاش فى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا ما

بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٩١، أى أن اسم «بابلو نيرودا» يمكن ترجمته فى النهاية إلى «نيرودا الشعبى» وقد رفع الشاعر قضية أمام المحكمة فى بلاده لتغيير اسمه الأصلى، ليصبح اسمه الرسمي هو «بابلونيرودا» الذى عرفه به العالم ، وقد حكمت له المحكمة بذلك في سنة ١٩٤٦، أى وهو فى الرابعة والأربعين.

«عبقرية البساطة» تتجلى فى قصائد «نيرودا» ونحن نطالعها فى ترجمتها العربية السهلة التى قدمها لنا الدكتور محمود صبح فى كتابه «بابلونيرودا- مختارات شعرية» ومن بين هذه المختارات أتوقف أمام قصيدة عنوانها «نشيد إلى الخبز» وعندما نقرأ العنوان فإننا نشعر بالدهشة، فهل يستطيع شاعر أن يكتب قصيدة جميلة وبالغة الروعة عن «الخبز» ؟ إن «الخبز» شىء مادى نحتاج إليه جميعًا . ولكن كيف يجد الشاعر فيه شعرًا يؤثر فينا ويحرك نفوسنا ونقول عنه : هذا فن جميل ؟ إنها عبقرية البساطة لأن «نيرودا» رأى بقلبه العامر بالإنسانية والحنان أشياء كثيرة «كامنة» فى رغيف الخبز، فقد رأى فيه «سنبلة القمح» ورأى فيه جهد الإنسان وعرقه، من زراعة القمح إلى نيران الأفران ، وبذلك جاءت قصيدة «نيرودا» عن رغيف الخبز رائعة ، وكأنها قصيدة فى الحب والغزل، وذلك لأنه رأي فى الرغيف ما لا تراه العين العادية ، يقول الشاعر العظيم :

«أيها الخبز .. بين الطحين والماء والنار أنت تقوم ، وأنت ثقيل وخفيف، محنى ومستدير مثل بطن الأم .. يا خبز .. كم أنت سهل .. كم أنت عميق.. فى «صينية» الفرن تستطيل خيوطك البيضاء كالأوانى، كالصحون، كالأوراق وفجأة، تتحرك فيك موجة الحياة حيث تلتقى «النطفة» بالنار فتنمو وتنمو، فجأة مثل خصر، مثل ثغر ، مثل نهد، مثل تلال الأرض، مثل الحياة ، منك تصعد الحرارة ، ويغمرك الكمال، والآن .. وأنت قبل أن تلمسك يد .. أنت «فعل إنسانى» .. أنت «أعجوبة تتكرر» .. أنت إرادة الحياة».

«يا خبز كل فم .. لن نتوسل إليك فنحن البشر ، لسنا متسولين.. من الماء والأرض سوف نصنع خبزًا .. سوف نزرع قمحًا .. وخبز كل فم.. هو خبز

لكل إنسان .. وسوف يأتينا هذا الخبز لأننا تعبنا، فزرعناه، وصنعناه.. لا من أجل إنسان واحد بل من أجل الجميع .. سوف نوزع مع الخبز، كل ما هو على شكل الخبز، وبطعم الخبز .. الأرض .. الجمال .. الحب ، فكل هذا له شكل الخبز.. له طعم الخبز، له نطفة العجين .. نحن أيها الخبز لن نتسول. سنمضى نبحث عنك.. سنكافح معًا .. سوف نتوج رؤوسنا بالسنابل، لنكتسح الأرض ونأتى بالخبز .. وسوف تصبح هذه الحياة بسيطة وعميقة.. نقية وطاهرة .. وسوف يكون خبزنا مقدسًا .. مكرما ، لأنه ثمرة لأقسى وأطول كفاح عرفه الإنسان» .

والذين يعشقون الفن الخالص ، سوف يجدون فى هذه القصيدة صورًا عجيبة وبديعة ، فالرغيف يشبه «الثغر» و«الخصر» وعندما ينتفخ فإنه يشبه «بطن الأم الحامل» والرغيف فيه معنى «الكرامة» فنحن لا نحصل عليه بالتوسل وإنما بالتعب والكفاح ،. وكل شىء جميل فى هذه الدنيا له شكل الرغيف فى بساطته وعمقه ، فالأرض والجمال والحب ، كلها لها شكل الرغيف ، والرغيف «نطفة» لأنه أصل الحياة .. وما أجمل عبقرية البساطة فى هذه القصيدة ، وهذه الصور الفنية الحية المؤثرة .

●●●

الغريبان

من أقسى المشاعر التى يمكن أن يتعرض لها الإنسان ، ذلك الشعور الذى ينتابنا جميعًا فى بعض الأحيان ، وهو الشعور بالوحدة والاغتراب فى هذا العالم، وليس الشعور بالوحدة والاغتراب معناه أن يعيش الإنسان فى واحة بعيدة خالية من البشر، فهذا الشعور يهاجم الإنسان هجومًا قاسيًا وهو يعيش مع الناس، ولكنه لا يجد بينهم إلا من هو مشغول عنه، فلا يستطيع أن يتحدث مع أحد عن همومه وشكواه ، والإنسان فى هذه الحالة يرى الكثيرين يتحركون حوله ، ولكنه لا يرى بينهم أحدًا يرتبط معه بخيط رفيع من المودة والقدرة على الفهم والمشاركة الوجدانية والروحية ، وقد يشعر الإنسان بشعور الوحدة القاسية حتى وهو بين أهله، إذا لم يجد بين هؤلاء الأهل القريبين من يستمع إلى صوت روحه ونبضات قلبه ونزيف همومه وأحزانه .

وقد عبر الكاتب الروسى الإنسانى العظيم «أنطون تشيكوف» فى إحدى قصصه القصيرة الرائعة عن هذا المعنى ، والقصة اسمها «وحشة» أو «لمن أشكو أحزانى» وبطل القصة «حوذى» اسمه «أيونا» كان يعمل سائقًا لعربة «حنطور» يجرها حصان، وقد فقد هذا «الحوذى» الطيب ابنه الصغير «كوزما» الذى اختطفه الموت وهو طفل، فامتلأت نفس «الحوذى» بالحزن، واشتعل فى قلبه ألم مثل الحريق، وكان بحاجة شديدة إلى من يستمع إليه، ويشاركه أحزانه وهمومه، ويواسيه، وحاول «الحوذى» أن يتحدث إلى بعض «زبائنه» الذين يركبون فى عربته، ولكنهم جميعًا كانوا سرعان ما يغلقون آذانهم وينصرفون عن الحديث معه إلى أحاديث أخرى خاصة بهم وحدهم. لقد وجد «الحوذى» العالم كله وكأنه حائط من الصخر، لا يشعر به ولا يحس، وانتهى الأمر «بالحوذى» بعد عمله الشاق إلى أن يجد نفسه وحيدًا مع «حصانه» ، فأخذ يتحدث إلى الحصان فى حنان، وأخذ يشكو له همه

وأساه، وتصور الرجل أن الحصان ينصت إليه ويتجاوب معه ويشاركه فى أحزانه، والغريب أن الرجل قد شعر بعد حديثه مع حصانه بالراحة، وبأنه قد وجد أخيرًا فى هذه الدنيا القاسية من يفهمه وينصت إليه. ولم تكن هذه القصة الجميلة إلا تعبيرًا صادقًا عن هذا الشعور بالوحدة الذى يفترس الإنسان فى بعض الأحيان ويضعه فى قفص حديدى من الهموم والأحزان [1] .

وهذا المعنى الإنسانى، وهو حاجة كل منا إلى التغلب على شعوره القاسى بالوحدة والاغتراب، كان منبعًا للإلهام عندشاعر أمريكا العظيم «والت ويتمان» ١٨١٩ - ١٨٩٢» والذى جعل من قصائد كثيرة فى ديوانه الكبير «أوراق العشب» حربًا على الشعور بالوحدة ودعوة إنسانية كريمة للمشاركة الوجدانية بين الناس، بدلاً من أن يصبح كل إنسان عالمًا مغلقًا على نفسه، ليس فيه مكان للآخرين، وليس فى قلبه مساحة من الحنان والحب لغيره . وعندما يصبح المجتمع بهذه الخشونة وهذه القسوة فإنه يكون مجتمعًا قد فقد إنسانيته، حتى لو كان هذا المجتمع فى قمة نهضته وتقدمه المادى، فما قيمة التقدم الهائل ، إذا كان هذا التقدم لا يعرف معنى القلب الرحيم، واليد الحانية، والقدرة على الإنصات لآلام الناس وأحزانهم؟! وفى إحدى قصائد «ويتمان» يخاطب إخوانه فى الإنسانية ويقول :

«إذا أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك».

وإذا كان الله نفسه يقول «**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**» ، فلماذا يكون الإنسان بعيدًا عن أخيه، لا يستجيب له إذا دعاه، ولا يحنو عليه إذا كان بحاجة إليه، وإذ كان محتاجًا أيضًا إلى عطفه وحنانه؟ ولذلك فإن الشاعر «ويتمان» يقول لكل غريب شاعر بالوحدة بيته الرائع» .. إذ أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك..» والشاعر هنا لا يقلل من شأن نفسه ، ولكنه يرفع راية جميلة هى راية الإنسانية، ويدعو البشر

---

(١) قصة تشيكوف لها ترجمات متعددة منها ترجمة د. أبو بكر يوسف فى المجلد الأول من كتاب فى أربع مجلدات يحمل اسم «انطون تشيكوف - مؤلفات مختارة» - وقصة تشيكوف التي تجرى الإشارة إليها هنا مكتوبة سنة ١٨٨٦ .

إلى أن يكونوا قريبين من بعضهم البعض، مثل قرب التراب الذى ندوسه بأحذيتنا ، وهو نوع من الاقتراب المتواضع الصادق المستعد للتجاوب الحقيقى السريع مع الأخرين، فالحياة صعبة، ويجب علينا أن نخفف من آلامها وأحزانها بالحنان والدفء واقتراب البشر من بعضهم البعض.

وفى قصيدة جميلة أخرى عنوانها «إليك» يقول الشاعر «ويتمان» :

«أيها الغريب

يا عابر السبيل

إذا مررت بى

وكنت تريد أن تتحدث معى

فلماذا لا تفعل ؟

إننى أيضًا أريد أن أتحدث معك ».

وفى هذه الأبيات القليلة الجميلة دعوة إلى الوحدة الإنسانية بين جميع البشر والأدب الإنسانى فى نماذجه العالية ملئ بهذه الدعوة إلى التعاطف والمشاركة والحنان.

على أن من أجمل القصص الواقعية التى تعالج محنة الوحدة والاغتراب تلك القصة الحقيقية التى يرويها شاعر «تشيلى» العالمى الكبير «بابلونيرودا» فى مذكراته التى ترجمها الأديب العربى الفلسطينى الدكتور محمود صبح. وهى قصة ليس فيها شىء من الخيال، فأشخاصها حقيقيون وأحداثها صحيحة، وهى قصة مؤثرة تنفذ إلى أعماق القلب، وتدل على أن الإنسان فى أوقات المحنة قادر على خلق لغة روحية، يستطيع أن يتفاهم بها مع غيره، حتى ولو كان غير قادر على فهم لغته التى يتكلم بها. والقصة التى يرويها الشاعر «نيرودا» وقعت أثناء الحرب الأسبانية سنة ١٩٣٦، وهى الحرب التى نتج عنها هجرة مئات الآلاف من الأسبان، وكانت هذه الهجرة تتوقف فى بعض بلدان أوروبا الغربية ، فى طريقها إلى بلدان أمريكا اللاتينية التى تتحدث الأسبانية جميعًا باستثناء «البرازيل» التى تتكلم البرتغالية ، ومن هنا اتجهت هجرة الأسبان أثناء الحرب الأهلية سنة

١٩٣٦، إلى دول أمريكا اللاتينية، حيث يجد الأسبانى المهاجر «وطنًا لغويًا» كما أن كثيرين من أبناء أمريكا اللاتينية هم من أصول أسبانية.

وهذه هى القصة العجيبة التى يرويها الشاعر «بابلونيرودا» فى مذكراته حيث يقول :

«أذكر حكاية ذات تأثير كبير فى نفس كل من يسمعها وهى حكاية الشاعر الأندلسى (١) . بيدرو جارفياس فقد هاجر «جارفياس» من أسبانيا أثناء الحرب الأهلية، واستقر به المنفى فى حصن من حصون «اسكتلندا» فى شمال إنجلترا وكان هذا الحصن منعزلاً بعيداً، فكان الشاعر «جارفياس» بسبب طبيعته الأندلسية القلقة الأنيسة معًا يذهب كل يوم إلى مقهى منعزل هناك فى تلك المنطقة ويجلس وحده فى صمت وسكون، إذ أنه لم يكن يتكلم الإنجليزية بل إنه يكاد لا يتكلم الأسبانية اللهم إلا فى لغة أندلسية غجرية ما كنت أنا الأسبانى اللغة أفهمها إلا بصعوبة ، وكان الشاعر «جارفياس» يقضى وقته الطويل فى هذا المقهى وهو يحتسى مشروباته فى اكتئاب وإحساس بالوحدة . وقد لفت هذا الإنسان الأخرس الأبكم الوحيد نظر صاحب المقهى الصغير ، وذات ليلة بعد أن غادر المقهى جميع رواده، التفت صاحب المقهى إلى الشاعر «جارفياس» وطلب منه فى رجاء أن يبقى ليستمرا معًا فى تناول ما يشاءان من مشروبات حتى مطلع الفجر، وأن يجلسا معًا قرب نار المدفأة المتوقدة التى تقذف الشرر، فتبوح بما لا يستطيعان البوح به، وأصبحت دعوة صاحب المقهى للشاعر عادة يومية، ففى كل ليلة يستقبل صاحب المقهى ذلك الشاعر الوحيد، وقد كان صاحب المقهى وحيداً أيضًا ، فلا امرأة تأويه ، ولا أسرة تشغله أو تسليه ، وشيئًا فشيئًا أخذت العقدتنفك من لسانيهما ، فكان الشاعر «جارفياس» يحكى لصاحب المقهى قصص الحرب الأهلية الأسبانية كلها عن طريق صيحات وإشارات ولعنات وتأوهات أندلسية! . وكان صاحب المقهى يصغى إليه فى سكون مهيب دون أن يفهم ولا كلمة واحدة مما يقوله الشاعر، وبدأ

---

(١) الأندلس هى الجزء الجنوبى من أسبانيا وهى فى أسبانيا أشبه بالصعيد فى مصر . والأندلس - كما هو معروف - هى الجزء الذى حكمه العرب من أسبانيا منذ دخولهم إليها سنة ٧١١ ميلادية وحتى خروجهم منها سنة ١٤٩٢ ، أى أنهم حكموها وعاشوا فيها حوالى سبعمائة وواحد وستين سنة متصلة.

صاحب المقهى «الاسكتلندى» يقص على الشاعر حكاية فشله فى حياته ، أو هكذا كان الشاعر يتخيل. كان صاحب المقهى يروى حكاية هروب زوجته ، وانفصال أبنائه عنه ، وكانت صور هؤلاء الأبناء بأزيائهم العسكرية تزين الجدران حول المدخنة، كل هذا طبعًا قد يكون هو ما كان يحكيه لصديقه .. أقول قد .. لأن «جارفياس» الشاعر، لم يكن قد فهم كلمة واحدة مما كان يقوله صديقه صاحب المقهى، وذلك خلال الشهور الطويلة التى استغرقتها هذه الأحاديث الشيقة الغريبة .

غير أن صداقة هذين الرجلين الوحيدين المهجورين الشاعرين بالغربة اللذين كانا يتحدثان معًا فى ود وعاطفة ، فيروى كل منهما همومه وشئونه بلغته التى لا يفهمها الآخر، راحت تزداد وتنمو وتتعمق كل ليلة حتى الشروق، وأصبحت هذه الصداقة ضرورية لكل منهما . وحين أصبح على الشاعر «جارفياس» أن يرحل مضطرًا إلى المكسيك ، ودع الصديقان بعضهما : متحدثين، متعانقين، باكيين ، حزينين، والذى كان يحز فى نفسيهما أنهما سيعودان من جديد إلى العزلة والوحدة.

ويقول «بابلونيرودا» بعدذلك أنه تحدث مع الشاعر «جارفياس» عندما التقى به فى «المكسيك» وسأله :

« .. ماذا تظن يا «بيدرو» أنه كان يقص عليك؟» .

فقال له الشاعر «جارفياس» :

«الحقيقة» يابابلو - أننى ما فهمت منه كلمة، لكن حيث كنت أنصت إليه كان عندى شعور أكيد أننى أفهم كل مايقول، وحين كنت أتكلم أنا ، كنت متأكدًا كذلك أنه كان يفهم كل ما أقول.. وهذا هو المهم».

تلك هى القصة الإنسانية المؤثرة التى يرويها «بابلونيرودا» فى مذكراته . وهى قصة تثبت أن هناك لغة مشتركة بين النفوس والقلوب، وهى لغة أخرى غير لغة الكتابة والكلام ، وهذه اللغة الروحية هى التى اعتمد عليها هذان الشخصان اللذان التقيا على أرض مشتركة من الإحساس بالغربة والوحدة. ولابد أن يتعرض الإنسان فى وقت من الأوقات لظرف من هذه الظروف القاسية التى تجعله يشعر بالوحدة والاغتراب، بل وقد يتعرض الإنسان أحيانًا للإنكار والتجهم والتجاهل، حتى من أصدقائه أو أبنائه أو

أهله الأقربين، ولكن الإنسان إذا كان لديه ما يمكن أن نسميه باسم «ثقافة الألم» سوف يرتفع بنفسه عن الاستسلام للمشاعر الذليلة ، فللألم كبرياء مثله فى ذلك مثل أى شعور صادق وكريم. ولابد فى لحظة من اللحظات أن نجد بين «قش» الحياة وعشبها الأصفر وردة تفوح بعطر المحبة والتعاطف، تمامًا كما وجد شاعر الأندلس الوحيد الغريب «بيدرو جارفياس» صديقًا له يتبادل معه حديث المودة والمشاركة النفسية ، وذلك دون أن يعرف أحدهما لغة الآخر . وسوف يظل هناك دائمًا فى هذه الدنيا لغة أفصح وأكثر بلاغة من لغة الكلام، وهى لغة القلب، ولغة التعاطف الإنسانى الجميل، ولغة الإصغاء والمشاركة ، ولغة الحنان الذى بغيره تصبح الدنيا جحيمًا لا يطاق وهذاما يقوله لنا الشاعر «بابلو نيرودا» فى تلك القصة العجيبة التى رواها فى مذكراته.

●●●

السيف والمنديل

عندما نراجع تاريخ الأدب الإنسانى ، سوف نجد أن هناك مدارس متعددة للشعر، وسوف نجد تعريفات للشعر بعدد هذه المدارس الكثيرة، ولن نستطيع أن نصل إلى تعريف واحد مشترك يتفق عليه الجميع. وهذا أمر طبيعى ، فالناس يختلفون فى ثقافتهم وأذواقهم وظروف حياتهم، كما أن أجيال البشر تتعاقب على مر التاريخ ، ولكل جيل من هذه الأجيال همومه ومشاكله الخاصة به، وكل جيل له شعراؤه القريبون من قلبه، والذين يعبرون عنه ويطربونه ويخلقون له لحظات من الفرح لا يستغنى عنها أى إنسان ، فالشعر الحقيقى الجميل فى آخر الأمر هو التعبير عن الفرح بالحياة ، وكل شعر لا يخلق نوعًا من الفرح والنشوة، هو شعر مغشوش وزائف .

على أن الاختلاف الواسع بين الناس فى فهم الشعر وتحديد معناه ومذاهبه الفنية، لم يغير الاتفاق التام بين البشر على أن الشعر هو ضرورة للناس جميعًا . والشاعر الشعبى فى بلادنا معروف، وقد كان لهذا الشاعر مكانة مهمة فى الريف وسائر البيئات الشعبية، وكان هذا الشاعر قبل ظهور الراديو والتليفزيون هو البديل الوحيد لهذه الوسائل الحديثة، فكان يروى للناس الملاحم الشعبية الشهيرة مثل «أبو زيد الهلالى» و«عنترة» وغيرهما، وكان يلجأ إلى الحيل الفنية المعروفة فى مسلسلات الإذاعة والتليفزيون فيتوقف كل ليلة عند «لحظة مثيرة» ، حتى يجذب اهتمام الجمهور، فيأتى الجمهور فى الليلة التالية وكله شوق وفضول لمعرفة ما جرى بعد ذلك وما صارت إليه الأحداث والصراعات بين الرجال والنساء، وكان الشاعر يروى ويغنى معًا، ففى الجزء المملوء بالحوادث والتفاصيل تكون الرواية هى الوسيلة، والغناء غالبًا ما يكون تعليقًا على موقف أو حادث أو لحظة فرح أو لحظة حزن وشجن.

هذه الجماهير الشعبية التى كانت تستمع إلى «الشاعر» وتهواه وتتأثر به، لم تكن جماهير متعلمة، ولم تكن تعيش حياة سعيدة مملوءة بالرخاء، بل كانت على الأغلب جماهير تشقى فى حياتها من أجل لقمة العيش، ومع ذلك فلم تمنعها صعوبة حياتها وقلة حظها من الرزق، فى أن يكون لها شاعرها الذى يطربها ويغنى من أجلها،فالشعر فى حياة البشر ضرورة. وهذا هو ما يتفق عليه الجميع ، وإن اختلفوا بعد ذلك فى تحديدمعنى الشعر وتحديد مذاهبه وألوانه المختلفة.

وكثيرون من كبار شعراء العالم يحاولون تقديم معنى للشعر كما يفهمونه، وهم يكتبون قصائدهم بوحى هذا المعنى ، وحتى لو لم يحدثنا الشاعر عن معنى الشعر كمايفهمه، فإن قصائد الشاعر نفسها تنطوى على هذا المعنى، ويمكن أن نفهم من هذه القصائد «معنى الشعر» كما يتصوره الشاعر دون حاجة إلى أن نسمع منه تعريفه الخاص للشعر.

ومن أجمل تعريفات الشعر الكثيرة المتعددة، ذلك التعريف الذى يقدمه لنا شاعر «تشيلى» العالمى العظيم «بابلو نيرودا» (١٩٠٤-١٩٧٣) ، وهو الشاعر الكبير الذى نال جائزة نوبل سنة ١٩٧١. وقد كان معروفًاعن جائزة نوبل على مدى تاريخها كله منذ أن بدأت سنة ١٩٠١، أنها معادية لكل من كان يبدو فى أدبه وتفكيره أى «نزعة يسارية» ظاهرة. وأحدالاستثناءات القليلة فى هذه القاعدة هو «نيرودا» فقد ذهبت إليه جائزة نوبل، رغم أنه كان معروفًا فى العالم كله بأنه من كبار «أهل اليسار» فقد كان داعية للعدالة، مؤمنًا بحق الطبقات الشعبية فى الحياة الكريمة، وكان يكتب أشعاره الجميلة لهذه الطبقات، ولكنها كانت دائمًا أشعارًا راقية وجميلة ، مما جعل لجنة جائزة نوبل تنحنى أمام هذه الأشعار ذات الجمال الطبيعى المتدفق ، والتى تفيض بالصدق والحنان على الإنسان الذى يكافح فى كل مجال من أجل قوت أولاده، ومن أجل بعض لحظات الفرح القليلة فى حياته وحياة أهله . وذهبت جائزة نوبل إلى «نيرودا» دون أن يعترض أحد علي ذلك، لأن جمال شعر «نيرودا» لم يكن موضع خلاف، حتى عندالذين يكرهون اليسار وأهل اليسار .

أراد «نيرودا» فى مذكراته الرائعة أن يقدم لنا معنى الشعر كما يفهمه، فلم يدخل فى أى تعقيدات فكرية ، بل إنه لم يكن يفكر فى أن يشغل نفسه بتقديم تعريف للشعر، إلا عندما وقعت حادثة هزته وهو يعمل سنة ١٩٣٦ فى سفارة بلاده فى أسبانيا.

ففى هذا العام اشتعلت الحرب الأهلية الأسبانية، وفى بداية هذه الحرب قامت قوات الطاغية «فرانكو» بقتل شاعر أسبانيا الكبير «لوركا» (١٨٩٨ - ١٩٣٦)، وكان «لوركا» صديقًا «لنيرودا» وعندما عرف «نيرودا» باغتيال صديقة وحبيبه «لوركا» توقف ليسأل نفسه : ما معنى الشعر ؟ ..

يقول «نيرودا» فى مذكراته صفحة ٢٢١ ترجمة الأديب العربى الفلسطينى الدكتور «محمودصبح» :

عندما انطلقت الرصاصات الأولى فاخترقت قلب «لوركا» قيثارة أسبانيا، وانبثقت منها بدل الألحان نافورات من الدم، توقفت أشعارى مثل شبح فى وسط شوارع الكآبة الإنسانية، ورأيت أنى قد مشيت فى دنيا «الشعور بالوحدة» من الجنوب إلى الشمال، فوجدت نفسى أمام الشعب .. الشعب الذى أراد شعرى المتواضع أن يكون له «سيفًا ومنديلاً» حتى يمكن لهذا الشعر أن يجفف العرق بعد الجهد والآلام الكثيرة ، وأن يكون سلاحًا له فى معركة الخبز».

وبعد هذا التعريف للشعر بأنه «سيف ومنديل» ، يقول «نيرودا» عن شعره كلامًا هو الشعر نفسه.. فهل هناك شعر أجمل من قول نيرودا عن شعره:

«إن شعرى يتهيأ كى يتحدث مع أشباح شمسية فى وضح النهار..

إن شعرى يتهيأ لكى يسير .

لكى يكتشف أعماق المعدن المختبئ فى سر الأرض.

إن شعرى يعد العدة كى يحدد العلاقة المنسية بين الإنسان والخريف.

وأحيانًا يكون الجو معتمًا.

ولكن سرعان ما تتجلى الغيوم وينطلق بريق مشحون ، فيه تألق ورعب.

إنه بناء جديد بعيد تمامًا عن كل الكلمات المستعملة والمستهلكة

وهو بناء يشق سطح الهواء.

إنه قارة جديدة مكونة من أكثر المواد الشعرية سرية..

وهى قارة شامخة فى الفضاء.

وفى تعمير هذه الأراضي ، وفى تصنيف هذا الملكوت، وفى لمس ضفاف ألغازه ، وفى إخماد عواصفه وتهدئة أمواجه .. قضيت سنين غامضة، متوحدة، بعيدة ..!!».

هذا هو كلام «نيرودا» عن شعره، بعدأن اهتدى إلى أن هذا الشعر ليس له إلا تعريف واحد له هو أن يكون «سيفًا ومنديلا» ، وفى كلام «نيرودا» عن شعره شىء من الغموض. ولكنه غموض فيه سحر، وفيه بساطة، وفيه طيران بأجنحة شفافة مثل أجنحة الملائكة، ولذلك فنحن لا نجد صعوبة فى فهم كلام «نيرودا» عن شعره، فهو كلام مثل كلام المتصوفين الذين يصرخون من قوة العشق ويقولون : يا حبيبى .. فنظن أنهم يتحدثون عن امرأة محبوبة .. وهم فى حقيقة الأمر يتحدثون عن الله.

وهذا الفهم للشعر بأنه «سيف ومنديل» هو الذى جعل قصائد «نيرودا» نوعًا من الأغانى الشعبية ، وكلها أغان يرددها الناس، ويجدون فيها خبزًا لأرواحهم، أو يجدون فيها كما يقول «نيرودا» : سيفًا فى معركتهم من أجل لقمة الخبز، ومنديلاً يجفف لهم عرق الجبين، وكأنى مع هذا الشاعر الإنسانى العجيب أمام شيخ من شيوخ الطرق الصوفية الشعبية، يلبس الملابس الملونة، ويضع فى وسطه حزامًا أخضر، ويلبس فوق رأسه عمامة خضراء، ويقود الجماهير الملتفة حوله إلى «الرقص» و«الذكر» تعبيرًا عن أفراح خارجة من أعماق النفوس، رغم أن هذه الجماهير «الراقصة» الذاكرة لا تملك من نعيم الحياة ويسرها شيئًا على الإطلاق .. ومع ذلك فهى ترقص وتذكر فى فرح عجيب لا يبرره شىء من ظروف حياتها

الصعبة، وتوليد الفرح من حياة مملوءة بالمتاعب هو معجزة الشاعر الذى اهتدى - عندما سالت دماء صديقه «لوركا» - إلى أن الشعر لا شىء سوى «سيف ومنديل» .

ونمضى مع «نيرودا» شاعر «السيف والمنديل» فى عالمه السحري الجميل، فنقرأ وصفه لعلاقته كشاعر بوطنه «تشيلى» بعد أن عاد إليه من رحلاته الطويلة، وتنقله المستمر فى عواصم الدنيا بسبب عمله الدبلوماسى أو بسبب هروبه من الذين كانوا يريدون أن يقبضوا عليه ويلقوا به فى السجون يقول «نيرودا» :

- «لقد عدت من جديد إلى «سانتياجو» عاصمة بلادى ، فنزلت فى منزلى الذى استطعت امتلاكه على مدى فترة طويلة بفضل تحسبى لما قد يجىء به المستقبل.

في هذا المكان ذى الأشجار الكبيرة الممتدة فى الفضاء، جمعت كتبى، وبدأت مرة أخرى الحياة الصعبة. لقد بحثت من جديد عن جمال لوطنى .. جمال الطبيعة العنيف ، عن روعة النساء فى بلدى ، عن أعمال زملائى ، عن ذكاء بنى وطنى . لم يكن البلد قد تغير أو تبدل: ريف متخلف . فقر مريع فى مناطق المناجم. والناس المتألقون المتأنقون يملأون نواديهم. ولقد سبب لى قرارى بالعودة إلى بلادى اضطهاداً وملاحقة، ورأيت النجوم فى عز الظهر . ولكن .. هل هناك شاعر يندم؟!!».

ولوحة أخيرة نتوقف أمامها فى مذكرات «نيرودا» حيث يقول:

- «لقد كان علي أن أكافح، أن أحب وأن أغنى ، أن انتصر وأنهزم ، أن أتذوق طعم الخبز، أن أذوق طعم الدم، لقد عشت من أجل شعرى، وشعرى لم يتخل عنى، وكان داعمًا لى فى كل صراعاتى ، وقدحصلت على جوائز كثيرة، جوائز مثل الفراشات الجميلة، ولكنى نلت جائزة كبرى .. جائزة يحتقرها الكثيرون ، إلا أنها فى حقيقة الأمر مستعصية على الكثيرين. لقدأصبحت بعد عناء طويل : شاعراً شعبيًا . وتلك هى جائزتى الكبرى.

ليست جائزتى هى الكتب المكتوبة عنى ، ولا القصائد المترجمة لى ، أو المؤلفات التى تصف قصائدى وتشرحها أو «تحنطها». إن جائزتى هى هذه، هى تلك اللحظة القصيرة فى حياتى ، حين صعد إنسان كما لو كان يصعد من جهنم، وصعد من حفرة منجم «للبارود»فى وجه مشوه بسبب العمل الرهيب.. فى عينين محمرتين بسبب الغبار القاتل، ومد لى يده المتصلبة، وقال لى فى عينين تبرقان : «.. إنى أعرفك منذ زمن طويل .. يا أخى».

إن هذا هو إكليل الغار لشعرى، حيث يخرج عامل منجم قالت له الريح والليل والنجوم مرات عديدة فى بلادى :

- إنك لست وحدك ، فهناك شاعر يفكر فى آلامك.

هذا هو «بابلو نيرودا» شاعر السيف والمنديل، والشعر - حقًا - هو سيف ومنديل ، ولسوف أجد «نيرودا» دائمًا فى غرفتى المتواضعة، فأضمه إلى صدرى، وأتحدث إليه ، وأهمس بأسرارى ، وأقرأ قصائده الحلوة البسيطة، وأجد فيه أنيسًا ، وثرثارًا عبقريًا يملك مئات الحكايات عن الناس المنتشرين فى أرض الله الواسعة، ولا أشعر أبدًا أن يدى تريد أن تترك يده المملوءة بالدفء والحنان.

●●●

ألوان من الناس

فى هذه الدنيا لا يكفى أن يكون الإنسان صاحب عقيدة من العقائد الطيبة السليمة، بل يجب عليه أيضًا أن يكون لديه من قوة الضمير ما يجعله صاحب أخلاق صحيحة ، فبدون هذا الضمير وهذه الأخلاق لا تنفع العقائد ولا تفيد، مهما كانت هذه العقائد راقية ونبيلة ، فالعقيدة ليست كلامًا يقال باللسان، ولكنها سلوك وممارسة وتعامل مع الآخرين، وبدون الأخلاق القوية لا تستقيم أى عقيدة مهما كانت قيمتها ، وقد أثبتت التجارب الإنسانية على مر التاريخ أن بعض أصحاب الأفكار السليمة، كانت أخلاقهم ضعيفة، وكان سلوكهم شائنًا نتيجة لهذا الضعف ، وعلى العكس من ذلك فقد يكون هناك من يؤمنون بأفكار تثير النقد والاعتراض، ولكنهم يكونون مع ذلك من أصحاب الأخلاق القوية والضمائر الحية ، فتأتى مواقفهم سليمة ومثيرة للإعجاب والتقدير ، رغم ذلك الخطأ القائم فيما يعتنقون من أفكار.

إنها معادلة إنسانية تثير القلق والدهشة، ولكنها حقيقة نقابلها فى حياتنا بصورة دائمة ومستمرة، فبعض الذين يقولون إنهم يؤمنون بأفكار كبيرة براقة، يسقطون أخلاقيًا ، ويرتكبون صغائر كثيرة، ويؤذون الناس بغير رحمة ولا عاطفة ، وعلى العكس من ذلك فإن بعض من يعتنقون أفكارًا ذات سمعة سيئة، نجدهم أحيانًا عند التعامل معهم من أطيب الناس قلبا، ومن أكثرهم عطفًا وحنانًا على الآخرين .

وفى العصور الحديثة شاعت كلمتان شهيرتان هما «اليمين» و«اليسار» أما اليمين فهو الذى يمثل الأفكار التقليدية المحافظة التى ترفض التغيير حتى لو كان هذا التغيير ضروريًا لنهضة المجتمع وتقدم الإنسان ، أما «اليسار» فهو يمثل التفكير الحى النشيط الذى يدعو إلى التغيير الدائم نحو الأفضل والأكثر تعبيرًا عن غالبية الشعب، خاصة تلك الفئات التى

تبذل جهدًا كبيرًا وتتعب كثيرًا فى العمل والإنتاج ، ولكنها لا تجنى من وراء ذلك إلا ثمرات قليلة محدودة، مثل العمال والفلاحين وصغار الموظفين، وقد ظهر اللفظان ، وهما اليمين واليسار ، بهذا المعنى ، منذ أيام الثورة الفرنسية الكبرى التى اشتعلت سنة ١٧٨٩، وبالتحديد فى برلمان الثورة الأولى ، وهو «الجمعية الوطنية» .. ففى هذه الجمعية الوطنية، كان المتطرفون الثوريون المطالبون بالتغيير العنيف والسريع يجلسون على اليسار، حيث يعارضون ويقولون «لا»، بينما كان الجالسون على اليمين يؤيدون ويقولون «نعم» ويحاولون إبقاء الحال على ما هو عليه ، وإن كان هناك ضرورة للتغيير، فليكن هو التغيير الطفيف اللطيف غير العنيف.

من يومهاأصبحت كلمة «اليمين» تعنى المناصرة للأفكار الجامدة الثابتة التى يحب البعض أن يسميها بالأفكار «الرجعية» وأصبحت كلمة «اليسار» تعنى الثورة ومناصرة التقدم والحماس للتغيير، ومن هنا كانت كلمة «اليمين» سيئة السمعة، أما كلمة «اليسار» فقد أصبحت كلمة طيبة السمعة.

وهذه المعانى بالطبع تختلف تمامًا عن المعانى السائدة فى الفكر الإسلامى، إذا أن الفكر الإسلامى يعتبر «أهل اليمين» هم الأفضل والأرقى والأتقى ، والأكثر قبولاً عند الله، والأصدق حبًا للخير ومصلحة الإنسان والمجتمع، أما «أهل اليسار» فهم أهل النار والأشرار ، الذين ينتظرهم عقاب الله الشديد فى الآخرة.

ومع ذلك فإن الذي انتشر وانتصر وساد فى الفكر العربى الحديث هو المعنى الأوروبى لليمين واليسار، فاليمين هو الشر، واليسار هو الخير، والاستخدام الأوروبى للمصطلحات ومعانى الألفاظ قد اكتسح العقل العربى فى القرن العشرين اكتساحًا كاملاً، وهذه قضية تستحق المعالجة فى مجال آخر، لكى نعرف مدى ما فيها من صواب أو خطأ.

ونعود إلى اليمين واليسار بمعناهما الأوروبى فالمفروض أن يكون أهل اليمين ، حسب هذا المعنى هم هؤلاء الذين لا ينتظر منهم أحد أى خير، وأن يكون أهل اليسار هم الأخيار والأحرار، هذا هو الأمر كما يبدو عليه من الناحية النظرية، ولكن الواقع الإنسانى يقول لنا شيئًا آخر: فكم من

«يمينى» أظهر مواقف نبيلة، وتصرف تصرفات يحكمها الضمير والأخلاق الرفيعة، وكم من «يساري» كان على العكس عدوًا للبشرية ، سريع التقلب، خاليًا من الضمير وسلامة الأخلاق.

وفى رحلتنا مع مذكرات شاعر «تشيلى» العالمى الكبير «بابلو نيرودا» الحاصل على جائزة نوبل سنة ١٩٧١ ، وهى المذكرات التى ترجمها إلى العربية الأديب الفلسطينى المثقف الفنان الدكتور محمود صبح، نجدنموذجين مدهشين لليمينى الطيب واليسارى الشرير، وعندما تأتينا هذه الرؤية، أو هذه الشهادة من فنان عظيم مثل «نيرودا» فإن الأمر لا يحتمل الشك أو الريبة ، ذلك لأن نيرودا عاش يساريًا طيلة حياته، وعرف السجن والمنفى لشدة إيمانه باليسار، بل إن من المرجح أنه مات مقتولاً بسبب «يساريته» وهو مريض فى المستشفى سنة ١٩٧٣، وكان فى التاسعة والستين.وقد تم اغتياله المحتمل على يد الانقلاب اليمينى الذى وقع فى تشيلى فى نفس سنة موت «نيرودا» .. أى سنة ١٩٧٣، فشهادة «نيرودا» إذن هى شهادة صدق لا تقبل التجريح.

ففى سنة ١٩٤٩ كان «نيرودا» عضوًا منتخبًا فى برلمان بلاده. ولكن الحاكم اليسارى لتشيلى واسمه «بيديلاً» انقلب انقلابًا كاملاً بعد وصوله إلى السلطة وكان هذا الحاكم نموذجًا لليسارى الذى يستخدم الجاذبية الشعبية لليسار فى أقطار أمريكا اللاتينية ، ومنها «تشيلى» دون أن يكون لديه ضمير حى أو أخلاق كريمة، تضمن استمراره على الإيمان بمبادئه وأفكاره التى بسببها التف الناس حوله وامنوا به ورفعوه إلى مقام الرئاسة. يقول «نيرودا» :

- فى وسط مرارات قاسية كنا نحس بها فى تشيلى تجدد الأمل، إذ إن أحد مرشحى الرئاسة وهو «بيديلا» أقسم أن يعمل فى سبيل العدالة، فكسب سمعة حسنة، وأصبحت أنا رئيسًا للدعاية فى حملته الانتخابية، فحملت إلى أنحاء أرض تشيلى كلها هذه البشرى الجديدة عن مرشحنا هذا، فاختاره الشعب بأكثرية كاسحة ليكون رئيسًا لشيلى».

وبعد أن أطمأن «بيديلا» فى موقعه الرفيع إنقلب بصورة كاملة على كل

ما دعا إليه ودفع الناس إلى الالتفاف حوله ، وجعل «نيرودا» من أكبر الدعاة له والمنادين باختياره لقيادة البلاد، ونعود إلى «نيرودا» نفسه لنقرأ ما يرويه عن تحول هذا الزعيم اليسارى إلى طاغية نسى تمامًا كل ما ادعاه من إيمان بالشعب والعدالة والحرية . يقول «نيرودا» :

- «سرعان ما غير بيديلا أصدقاءه وأحل محلهم آخرين وأقحم أسرته فى الطبقة الأرستقراطية ، وكشف عن شخصية تافهة ضعيفة تحاول أن تظهر بمظاهر القوة والجبروت، لقد فعل ما فيه الكفاية من أذى لتشيلى، وأعاد تاريخ البلد إلى الوراء، وكان أبناء تشيلى فى عهده ينظرون إلى بعضهم البعض فى خجل دون أن يفهموا كيف كان هذا الزعيم السياسى من دعاة الاعتدال، وكان يتظاهر باليسارية، ولكنه كان فى حقيقته مكارًا خبيثًا، فانقلب وتحول . وأصبحت السجون فى عهدة مليئة بالمعتقلين السياسيين، وانشئت معتقلات جديدة ، وأصبحت دولة تشيلى تحت حكمه دولة بوليسية بالكامل، والكثيرون من أصدقاء هذا الطاغية «بيديلا» والذين وقفوا إلى جانبه بقوة أثناء الانتخابات حتى أوصلوه إلى منصبه .. هؤلاء الأصدقاء ساقهم الطاغية إلى السجون فى الجبال العالية أو فى الصحراء، وذلك فى أول لحظة حاولوا فيها أن ينبهوه إلى تحوله وتغيره من زعيم يسارى واعد بالعدالة والحرية إلى طاغية لا يعبأ بشىء . فالحقيقة أن الطبقة العالية التى تتقن التوريط بقدراتها الاقتصادية ابتلعت حكومة تشيلى كما جرى ذلك عدة مرات من قبل . لقد تحول «بيديلا» ذلك القائد الذى اخترناه بأصواتنا، إلى شخص دنئ حقير سافل وتافه عنيف دموى ، ومن المؤكد أن تأنيب ضميره لم يكن يسمح له بأن ينام ، ولذلك فقد أقام قرب قصره مواخير للغلمان والبغايا خاصة به، زودها بسجاجيد ومرايا يستخدمها فى ملذاته. وفى الليلة التى بدأ فيها القمع والاضطهاد لزملائه الذين أوصلوه إلى السلطة، دعا ثلاثة من قادة العمال إلى العشاء معه، وبعد انتهاء الوليمة نزل معهم على سلالم قصره ، ثم ذرف من عينيه بعض الدموع وعانقهم وقال لهم: أننى أبكى .. لأننى قد أمرت بسجنكم، فحين تخرجون من هنا سوف يعتقلونكم. ولا أعرف إذا ما كنا سوف نرى بعضنا البعض مرة أخرى أو لا».

ويضيف «نيرودا» إلى هذا الوصف المؤلم لشخصية ذلك الزعيم اليسارى النذل «بيديلا» قوله :

«إن كل ما قام به هذه الطاغية الخائن لمبادئه اليسارية قد تم تحت حماية ورعاية حكومة الولايات المتحدة الأمريكية».

وهكذا فقد انهار هذا الزعيم اليسارى وتحول إلى طاغية دموى، لأنه كان فاقدًا للضمير والأخلاق ، ولم تنفعه «يساريته» أو تمنعه من السقوط والانهيار.

وفى ظل هذا الطاغية «بيديلا» كان على شاعرنا «نيرودا» أن يختفى عن الأنظار ويهرب من بلاده إلى الأرجنتين، بعد أن تم «طرده»من البرلمان الذى كان عضوًا منتخبًا فيه، وبالفعل بدأ «نيرودا» رحلة هروب قاسية ، وكان لابد أن يخرج فيها من حدود بلاده، إلى الحدود الأرجنتينية لينجو من الاعتقال أو الاغتيال على يد صديقه اليسارى السابق «بيديلا» ، ووصل «نيرودا» فى رحلة هروبه إلى المرحلة الأخيرة ، حيث اختبأ فى بيت صغير متواضع، يقع فى منطقة غابات واسعة يملكها أحد «أهل اليمين» الأثرياء واسمه الأسبانى الصعب هو «رودريغيث» ، ويصفه «نيرودا» بأنه كان صاحب مصانع كثيرة، وأنه ماهر وسريع الحركة، وكان رجعيًا أصيلاً، وعضوًا دائمًا فى أكثر الأحزاب «يمينية» فى تشيلى .

وتصادف أن غطى الثلج الطريق الرئيسى الموجود فى هذه الغابة التى يملكها ذلك اليمينى الرجعى الكبير، وتصادف أيضًا أن صاحب هذه الغابة قد جاء لزيارة ممتلكاته ، و«نيرودا» مختبئ فيها، وظن «نيرودا» أن رحلته الشاقة سوق تنتهى بالقبض عليه وتسليمه للسلطات التى تطارده ، ولكن أحد أصدقاء «نيرودا» قال له:

«لابد من مواجهة «رودريغيث» صاحب المكان وجهًا لوجه ، وأنا أعرفه جيدًا ، وهو رجل بمعنى الكلمة، ولن يبوح بشىء عنك، ولن يفشى سرك».
وهذا هو بالفعل ما حدث.

جاء ذلك الرجعى اليمينى الرأسمالى وقابله شاعرنا «نيرودا» وتحدث معه، واختلفا بشدة حول كل القضايا والآراء . ولكن هذا الرجعى اليمينى وعد بحمايته فى أرضه ، وقال لاتباعه وموظفيه :

«إن كان هناك أى مانع يعوق مسيرة «نيرودا» إلى الأرجنتين من الطريق التقليدى المعروف «فإن عليكم أن تشقوا طريقاً آخر يصل إلى الحدود، أوقفوا أعمالكم كلها لتشقوا هذا الطريق . هذه هى أوامرى».

وهذا ما حدث ، فقد تم شق طريق طولها ستون كيلو مترًا ، ليخرج منها «نيرودا» من بلاده تشيلى إلى الأرجنتين، حيث يجد مأواه ومنفاه الآمن.

وخرج «نيرودا» من الطريق التى شقها لها يمينى رجعى ، ليساعده على النجاة من المطاردة والاعتقال وربما الاغتيال.

يقول «نيرودا» :

«لن أنسى أبداً هذا الرجل الذى أمر بشق طريق طولها ستون كيلو متراً خلال الغابة البكر من أجل أن يصل شاعر إلى حريته».

وهكذا نتعلم من تجارب الحياة . فالمبادئ والعقائد وحدها لا تكفى لكى يتصرف الإنسان بأسلوب نبيل، واليسارى «بيديلا»كان نذلاً خان أصدقاءه ومبادئه، واليمينى «ريدريغيث» شق طريقًا طويلة فى غابته لإنقاذ شاعر لم يكن له فى تلك اللحظة أى حول أو قوة، فالضمير والأخلاق هما اللذان يعملان فى نهاية الأمر فى واقع الحياة، ولا يكفى أبدًا أن يختفى الإنسان وراء مبادئ نظرية جذابة يرددها لسانه بينما يكون ضميره غائبًا وأخلاقه ضعيفة . فالمبادئ فى حد ذاتها يمكن أن تكون سامية وكريمة ، ولكن تطبيق هذه المبادئ فى واقع الحياة يمكن أن يتعرض للتحايل والعبث ، فتسقط المبادئ ويسقط الإنسان .

●●●

الفراشة النبيلة

فى هذه الرحلة مع هذا الشاعر العالمى الساحر «بابلونيرودا» أريد أن أتوقف أمام بعض لقطات مضيئة من مذكراته الرائعة ، والتى لا أظن أننى قرأت مذكرات أخرى فى مثل جمالها وقدرتها على أن تخطف القلب وتعتصره فى وقت واحد، فهى مذكرات مليئة بالفرح و«الشقاوة» ومن كان يمتلك كل هذه القدرة على «الفرح» و«الشقاوة» فلابد أن يكون جسمه مليئًا بالجراح، لأنه عندما يشعر بالنشوة التى امتلأ بها قلبه فى أغلب أوقات عمره، فإنه يقفز هنا وهناك، ويندفع ، دون حساب للعواقب، إلى أماكن مليئة بالمخاطر، فهو يريد أن يعرف مايحدث، ويريد أن يشارك الناس «الغلابة» فى دفء حياتهم وبؤسها معًا، وهذه القفزات المستمرة فى حياة شاعرنا «المرح» و«الشقى»معًا لابد أن تنتهى ببطحة على رأسه، أو كسر فى يده أو رجله، وما أكثر الجراح التى امتلأ بها قلب هذا الشاعر الجميل وجسمه، نتيجة لأنه كان لا يطيق الهدوء والاستقرار، ولأنه كان لا يطيق أن يكون لعبة فى يد الطبقات الارستقراطية فى بلده وفى شتى أنحاء العالم، وقد كانت هذه الطبقات تتمنى أن تفرش الأرض تحت قدميه بالورد أو بالذهب، لأنه كان يملك فيضًا غير محدد من سحر الكلام، ومن أجمل ما رزقه الله للإنسان من قصائد الشعر الجميل.

ولكن نيرودا كن يحب الشعب العادى البسيط، لأنه هو نفسه نشأ فى الفقر، وكاد الفقر يسحقه ويقضى عليه، إلا أنه أفلت بنعمة الموهبة الشعرية التى منحها له الله، فكان هواه دائمًا مع الفقراء، فهم أحبابه وأحباب الله أيضًا . وكان «نيرودا» من ناحية أخرى إبنا لشعب من أفقر شعوب الدنيا هو شعب «تشيلى» ، وهو أيضًا شعب من أسوأ شعوب الأرض حظًا، لأن الطغيان تسلط عليه لسنوات طويلة جدًا فى تاريخه المعاصر، وكانت قدم

أمريكا الغليظة تدوس عليه كلما حاول أن يرفع رأسه، لأن هذا البلد فيه مناجم «نحاس» ، وفيه مناجم «ملح البارود» وهما مادتان عزيزتان وضروريتان للسادة الأمريكان، حتى يستكملوا عناصر قوتهم وهيمنتهم على الدنيا كلها. وكان على شعب «تشيلى وغيره من شعوب أمريكا اللاتينية، أن يكونوا فى خدمة الإمبراطورية الأمريكية، وكان الأمريكان يطلقون على أمريكا اللاتينية اسمًا مهذبًا جداً هو «حديقة أمريكا الخلفية». والحقيقة أنها ليست حديقة، ولكنها مطبخ، ومخزن لتجميع المواد الضرورية التى تحتاج إليها السيادة الأمريكية.

«نيرودا» الجميل، كان متاحًا له من أوسع الأبواب، أن يكون الطفل المدلل للأمريكان، ولغيرهم من سادة الأرض فى هذا الزمان، ولكنه كان فراشة جميلة، لا تحب أن تتنقل إلا فى الحقول، حيث السنابل والأزهار، ولا تحب العطور الباريسية، ولكنها تعشق رائحة العرق على جبهة الفلاحين وعمال المناجم، ولم يكن يفعل ذلك بسبب أفكار نظرية مجردة، ولكنه كان يفعله بدافع من فطرته الطيبة، وهوى قلبه، وبحثه عن معنى وحيد للسعادة هو أن يشارك غيره من أبناء بلاده فى «الشقاء المشترك». لقد كان - كما أشرت - فراشة نبيلة ، «تنط» وتقفز من مكان إلى مكان، أجنحتها ملونة بألوان بهيجة، ومحطات الرحلة والانتقال بالنسبة له هى قلوب الناس ووجوههم «التعبانة» وليست القصور والصالونات التى كانت تحلم بالاستيلاء عليه ولكنها عجزت عن ذلك، لأنها لا يمكنها أن تسجن الفراشات الجميلة والنبيلة حتى لو صنعت لها أقفاصًا من الذهب الخالص.

مذكرات «نيرودا» كلها شعر من نفس النسيج الحريرى لقصائده، بل إننى أرى فيها أحيانًا شعرًا أجمل من كل أشعاره الجميلة، لأن فيها تعبيرًا عن دهشته وفرحته وأحزانه الجريحة، وتعبيرًا عن الناس الكثيرين الذين التقى بهم ، وهو يقفز كعادته ،من مكان إلى مكان.

وعندما احتفلت عدد من العواصم الكبرى وعلى رأسها باريس فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٩٨ بمرور خمسة وعشرين عامًا على رحيله كان من الغريب أن أعداءه يشاركون - بحماس شديد - مع محبيه فى الاحتفال بذكراه، لأن

الاحتفال بالراحلين لا يخيف أحدًا ، ولا يثير شيئًا من الحسد والنكد والكراهية والمطاردة التى كان يتعرض لها نيرودا فى حياته.

وأعود للوقوف مع هذا الشاعر الإنسانى الكبير ، أو هذه الفراشة النبيلة، أمام مذكراته التى تفيض بالروح الشعرية ، بل هى «ماء ورد» يتدفق من قلب كبير على جروح الإنسان ، فيشفيها ، ويحنو عليها ، ويثبت أن الشعر هو فى جوهره روح متوهجة نشيطة نشوانة، قبل أن يكون ألفاظًا وأنغامًا وصورًا ملونة وخيالات جذابة.

وصاحب الفضل فى أن تكون هذه المذكرات بين أيدينا كما أشرت مرارًا فى الفصول السابقة هو الأديب العربى الفلسطينى المثقف الدكتور محمود صبح، الذى ترجم هذه المذكرات من لغة الشاعر الأسبانية إلى اللغة العربية ترجمة رائعة تستحق التقدير والإعجاب ، وتستحق أن نوجه إليها ألف سلام وسلام.

يحدثنا «نيرودا» عن اسمه، فيما يمكن أن يكون قصيدة عنونها «زهرة على تمثال» فقد كان اسمه الأصلى - كما أشرنا فى فصل سابق - اسمًا أسبانيًا لا تينيًا صعبًا معقدًا هو «نيفتالى ريس باسوالتو» ولعلى لا أخطئ لو قلت أنه لو احتفظ بهذا الاسم المعقد الغريب، لفقد نصف منزلته الشعرية العالمية، لأن أحدًا لن يستطيع أن يحفظ هذا الاسم ويردده بسهولة، ولكن «شقاوة» نيرودا ورغبته الدائمة فى القفز على الحواجز دفعته إلى تغيير اسمه وهو يروى قصة هذا التغيير فى بساطة طفولية جميلة ومليئة بالشاعرية فيقول:

«حين كان لى من العمر أربع عشرة سنة كان أبى - سائق القطار - يضطهد نشاطى الأدبى فى تعنت شديد، إذكان يخجله ولا يرضيه أن يكون له ولد شاعر. ولكى أخفى أشعارى الأولى فقد بحثت لى عن لقب أتبناه ويحمينى ويساعدنى على نشر أشعارى دون أن أتعرض لإيذاء أبى ، فعثرت فى إحدى المجلات على هذا الاسم «التشيكى» دون أن أدرى أنه اسم كاتب وشاعر كبير، يحترمه شعبه ويشعر نحوه بالإجلال، وهو مؤلف «بالادا» وكلمة «بالادا» معناها القصيدة العاطفية الروائية الطويلة، وهو أيضًا

مؤلف رومانسية جميلة جداً، والرومانسية هى قصيدة غنائية عذبة طويلة وذات قافية واحدة تتكرر فى البيت الثانى ، كما أن له تمثالاً فى وسط العاصمة براغ، وعندما وصلت بعد سنين طويلة ، إلى تشيكوسلوفاكيا، سارعت ، فوضعت زهرة عند أقدام تمثاله ذى اللحية الكبيرة .

وفى لقطة أخرى من هذه المذكرات نستطيع أن نعتبرهاقصيدة عنوانها «رفضت السلام عليه» يقول «نيرودا» الجميل :

«زرت جواتيمالا» وكان رئيسها فى ذلك الوقت رجلاً يسمى «أوبيكو»، وكان بديناً سميناً له نظرة باردة، وكان قاسيًا جبارًا ، وكان مخلصًا أشد الإخلاص فى جبروته وطغيانه، وكان هو «القانون» ، وهو الآمر الناهى ، ولم يكن لأحد فى بلاده أى حق فى أن ينطق أو يتكلم إلا بأمره وإذنه وقد تعرفت على أحد مساعديه، وهو الآن صديق لى ، وقد اعتبره أهل بلده «ثوريا» كبيرًا ، لأن هذا الصديق تجرأ يومًا فناقش الزعيم فى أمر صغير جداً، فما كان من الزعيم إلا أن قيده إلى «عامود» فى مكتبه بالقصر الرئاسى وجلده بلا رحمة عقابًا له على وقاحته، وثوريته. وقد طلب منى الشعراء الشبان فى «جواتيمالا» ، أن أقرأ عليهم بعض قصائدى ، وأرسلوا إلى الطاغية «أوبيكو» برقية بذلك ، فسمح لهم ، فأنا عابر غير مقيم ، وامتلأ المكان بأصدقائى ، وبكثيرين من الطلبة الشبان، فقرأت بعضاً من قصائدى على أمل أن تفتح لهم شيئًا من نوافذ ذلك السجن الكبير. وجلس رئيس الشرطة فى مكان بارز، وفى أول صف ، وكانت جلسته تحمل معنى التفتيش والإنذار. وقد عرفت بعد ذلك أنه كانت هناك أربع بنادق سريعة الطلقات موجهة نحوى ونحو الجمهور، وكلها كانت سوف تنطلق إذا غادر رئيس الشرطة مقعدة وقاطع قراءتى لشعرى . لكن ما جرى كان غير ذلك. فقد ظل «رئيس الشرطة» فى مقعده يستمع لأشعارى حتى النهاية ثم رغبوا فى تقديمى إلى الطاغية، وكان رجلاً مجنوناً بالتشبه بنابليون،وكان يترك خصلة من شعره تتدلى فوق جبينه، ويقف وقفة «بونابرت» وقالوا لى إن رفضى للسلام على «الديكتاتور» بعد لفتته الكريمة بالسماح لى بالسلام عليه هو أمر خطير جداً ، لكننى أثرت ألا أسلم عليه، وعدت هاربًا ومسرعًا إلى المكسيك!!».

وفى لقطة ثالثة من مذكرات نيرودا يمكن أن نسميها باسم قصيدة «الشاعر والأحذية» يقول نيرودا :

«أثناء هروبى فى بلدى - تشيلى - كنت أختبئ فى ركن هادئ بإحدى المدن الصغيرة، وكان عندى حب استطلاع لا حد له. وكانت تبدو أمامى أسئلة غامضة منها: لماذا كان الناس يتوقفون دائمًا أمام مكان معين.. كنت أراقبهم منه وأنا مختبئ ؟ ما هى هذه «السلعة» السحرية التى كان يتم عرضها عليهم؟ عائلات بأكملها كانت تتوقف لمدة طويلة وأطفالها على أكتافها، وما كنت أستطيع إلا على البعد ، أن أرى علامات التجلى والوجد والهيام التى كانت ولا شك تبدو عليهم حين ينظرون إلى تلك السلعة الساحرة لكننى كنت أحاول أن أتخيلها فى وجدانى وذهنى.

بعد ستة أشهر عرفت أن ذلك المكان الساحر كان واجهة حانوت صغير لبيع الأحذية . وهنا أطالبك بأن تسجل الآن أن الحذاء هو أكثر ما يهم الإنسان، وقد أقسمت أن أدرس هذا الموضوع، وأن أبحث فيه. وأعبر عنه. لكن الظروف لم تساعدنى، ومع ذلك فإن «الأحذية» غير قليلة فى شعرى وقصائدى .. كل ذلك دون أن أكون قد عزمت على أن أكون .. شاعرًا حذائيًا!!».

ونمضى مع مذكرات «نيرودا» ، وهذا الجزء هو لقطة مؤثرة يمكن اعتبارها قصيدة رائعة عنوانها «موت الصديق» وفيها يتحدث نيرودا عن موت صديقه «الليندى» رئيس تشيلى سنة ١٩٧٣، والذى كان موته مقدمة لموت «نيرودا» نفسه فى نفس العام . يقول نيرودا :

«.. كان (الليندى) حاكمًا يستشير قبل اتخاذ أى قرار ،كان عدوًا للديكتاتورية ، وكان ديمقراطيًا مخلصًا حتى فى الجزئيات الصغيرة، لقد كان هذا الرجل رغم أنه لم يخرج من بين صفوف الطبقة العاملة، نتاج نضال هذه الطبقات الشعبية ضد الجمود والاستغلال ، ولذلك كان كل ما حققه خلال فترة حكمه القصيرة هو أعظم ما تحقق فى تاريخ بلادى - تشيلى - كله، إن تأميم «النحاس» وحده كان عملاً جبارًا ، ولكن آمال«الليندى» التى لا تمحى، أغضبت أعداء الحرية فى بلادى، ولذلك قام

هؤلاء الأعداء بقصف قصر الرئاسة الذى كان يقيم فيه «الليندى»، إذ أن طيارين من - تشيلى - انقضوا على القصر الذى كان خلال قرنين من الزمان مركز الحياة المدنية فى البلاد، إنى أكتب هذه السطور العاجلة فى مذكراتى بعد انقضاء ثلاثة أيام فقط على تلك الأحداث التى أدت إلى موت صديقى ورفيقى العظيم «الليندى». لقد أحاطوا اغتياله بجدار من الصمت، دفنوه سراً ، ولم يسمحوا إلا لأرملته بأن ترافق ذلك الجثمان الذى لا يموت. إن رواية «القتلة» هى أنهم وجدوه جثة هامدة مما يدل على أنه انتحر. أما الرواية الحقيقية فهى مختلفة، إذ أنه بعد القصف الجوى، اقتحمت الدبابات قصر الرئاسة ، لكى تقاتل فى بسالة رجلاً وحيداً فرداً ، ألا وهو رئيس جمهورية تشيلى «سيلفادور الليندى» الذى كان ينتظرهم فى مكتبه دون أن يكون له رفيق غير قلبه العظيم، وقد أحيط بالدخان والنيران. لقد كان لهم أن ينتهزوا هذه الفرصة النادرة. كان لابد من إفراغ الرصاص من الرشاشات فى جسده، فهو لن يتخلى أبداً عن منصبه، وقد تم دفن جسده سراً فى مكان ما . لقد مضى ذلك الجثمان إلى القبر لا ترافقه سوى امرأة واحدة وحيدة ، هى زوجته، وكانت تحمل فى نفسها ألم العالم كله. لقد كانت شخصية «الليندى» المجيدة الميتة، تمضى وهى مليئة برصاصات رشاشات عساكر تشيلى الذين خانوا بلادهم مرة أخرى!!».

تلك كانت آخر كلمات «نيرودا» ورغم أنها كلمات مكتوبة فيما نسميه باسم «النثر» ، إلا أننى أرى فى هذا النثر الوصفى المباشر قصيدة شعر مؤثرة عنوانها «موت الصديق» . وبعد أن كتب الشاعر العظيم هذه الكلمات بفترة قليلة مات «نيرودا» ، تلك الفراشة الجميلة ، المرحة الحزينة ، وقد ترك وراءه ثروة ثمينة هى قصائده الرائعة ومذكراته العجيبة.

●●●

رحلة الأحلام

قبل أن أتحدث عن بعض قصائد «نيرودا» أحب أن أشير إلى أننى تعلمت من رحلتى مع هذا الشاعر العظيم حقيقتين كبيرتين: الأولى هى أن الشعر ضرورى للأرواح مثل ضرورة الخبز للأجسام ، والثانية هى أن الشعر «قوة» قد تفوق أحيانًا قوة الدبابات والمسدسات والبنادق، وقد روى «نيرودا» فى مذكراته التى ترجمها إلى العربية من الإسبانية - لغة الشاعر - الأديب الفلسطينى الدكتور محمود صبح، ما يثبت لنا هاتين الفكرتين، وهما ضرورة الشعر لروح الإنسان ، وقوة الشعر فى مواجهة المخاطر الكبيرة، وعن المعنى الأول وهو ضرورة الشعر يقول «نيرودا» :

- «إن كل إنسان وصل من الهزيمة أو من الأسر كان يشبه رواية ذات فصول.. ذات نحيب .. ذات شعور بالوحدة .. ذات غرام.. بعض هذه الروايات والحكايات كان يذهلنى ويأسرنى .. لقد عرفت «جنرالاً» فى الطيران، طويل القامة، زاهداً فى الدنيا .. رجلاً عسكريًا له خبرة ودراية، وله من الأوسمة ما له، ومن الألقاب أحسنها . رأيته فى باريس فى أواخر ثلاثينات القرن العشرين، بعد هزيمة الجمهوريين الأسبان أمام الطاغية «فرانكو» .. كان عجوزاً منتصب القامة .. كأنه من مدينة «قشتالة» الأسبانية التي أضناها الزمن، وتركت الأيام آثارها على جمالها الفريد. وحين استطاع جيش الطاغية «فرانكو» أن يقسم المنطقة الجمهورية إلى قسمين، كان على هذا الجنرال الأسبانى ، الطيار ، واسمه «هيريرا» أن يعيش فى ظلام مطبق ومطلق. وكان عليه أن يحلق بطائرته فى الليالى المعتمة المظلمة فوق أراضى جيش العدو، وذلك لكى يعطى الأوامر فى هذه الجبهة أو تلك من جبهات القتال، وكانت طائرته تمر من بين طلقات من جيش الطاغية «فرانكو» وتكاد هذه الطلقات تلمس الطائرة وتدمرها، ولكنه لمهارته - كطيار

مقاتل - كان ينجو من هذه الطلقات، ولكثرة ما كان على هذا الجنرال الأسبانى أن يتجول ويحلق بطائرته فى الأجواء المظلمة وغير المأمونة فإنه كان يشعر بالملل والسأم، ولذلك فقد تعلم طريقة «برايل»حتى يستطيع أن يقرأ فى الظلام. وحين أتقن المعرفة بكتابة العميان كان يقوم بتأدية مهماته الخطيرة فى الليالي المظلمة، وهو يقرأ بأصابعه ما يحب من قصص وأشعار، وقد توقفت قراءاته الليلية بعد الهزيمة النهائية للجمهوريين الذين كان يعمل فى صفوفهم وينتمى إليهم. ثم أضطر فى آخر الأمر إلى اللجوء لفرنسا».

تلك هى القصة الواقعية التى رواها الشاعر «نيرودا» فى مذكرته.

وهكذا نجد جنرالاً يتعلم قراءة العميان لكي يقرأ الأشعار فى الظلام، وخلال معارك الحرب الخطيرة، فهل هناك دليل على حاجة الإنسان للشعر والفن أقوى من هذا الدليل ؟

أما قوة الشعر فإن «نيرودا» يروى لنا هذه القصة التى انتصر فيها الشاعر على دبابة عسكرية كادت تقضى عليه، حيث يقول :

«فى سنة ١٩٤٥، وقفت أخطب وألقى بعض قصائدى فى اجتماع سياسى، كان عددنا يقرب من مائتى شخص، وإذا بى أسمع ضجة آليات تقترب، وعلى بعد أربعة أمتار أوخمسة منى وقفت دبابة عسكرية، ثم أطل منها رشاش تم تصويبه نحو رأسى ، وظهر قرب الرشاش ضابط متأنق جداً ، لكنه جاد وصارم إلى أبعد الحدود، وأقتصر هذا الضابط على توجيه نظرات عينيه إلى وجهى بينما كنت أتكلم.. وذلك كان كل شىء».

هذه القصة الواقعية التى يرويها «نيرودا» فى مذكراته تكشف عن القوة التى يملكها الشاعر فى وجه «الدبابة» فقد انتصرت قوة الشاعر على الدبابة التى كان يمكنها أن تقضى على الشاعر والأشخاص المائتين الذين كانوا يستمعون إليه . وما حدث فى هذه القصة ليس هو القاعدة، فقد تعرض شعراء كثيرون للقتل مثل «لوركا» شاعر أسبانيا الكبير وصديق «نيرودا» الحميم. على أنه فى بعض الأحيان يستطيع الشاعر بقوة روحه وهيبته بين جمهوره أن يصد عدوانًا محتملاً عليه، دون أن يكون فى يديه مسدس أو قنبلة، بل مجرد قصائد وكلمات قوية ونبيلة.

ونمضى فى رحلتنا مع هذا الشاعر الجميل لنتوقف أمام بعض قصائده.. وهى أيضًا مثل مذكراته مترجمة من الأسبانية، وقد قدم هذه الترجمة للقصائد مترجم المذكرات نفسه وهو الأديب الفلسطينى الدكتور محمود صبح. ولابد من الإشارة إلى أن ترجمة الشعر هى من أصعب الأمور، لأن الشعر - على عكس الرواية والقصة والمسرح - يرتبط ارتباطًا وثيقًا باللغة التى يكتب بها الشاعر، فاختيار الألفاظ وكتابة «النوتة الموسيقية» للقصيدة، كل هذا مرتبط بلغة الشاعر الأصلية، وهى هنا اللغة الأسبانية التى كان يكتب بها «نيرودا»، وبدون هذه اللغة يفقد الشعر بعض عناصر الجمال الأساسية فيه. ومع ذلك فإن الشعر الإنسانى العظيم تظل فيه «شرارة»داخلية من «نار» الفن الأصيل، وفى أى لغة ينتقل إليها ، وربما كانت الترجمة هى الوسيلة التى تحدد «نوعية» الشعر» ومعدنه الحقيقى ، فإن كان شعرًا يعتمد على الألفاظ والموسيقى الخارجية الظاهرة، فقط فإن الترجمة تؤدى إلى ذوبان الشعر كما يذوب الثلج، فلا يبقى منه شىء، أما الشعر الإنسانى الصادر عن قلب عامر بالمشاعر، وموهبة حقيقية تمسك بجوهر الحياة ، فإن هذا الشعر يصبح «لغة إنسانية عامة» ولا يمكن أن يفقد عند الترجمة شيئًا إلاأثوابه الخارجية، أما الروح الأصلية فتبقى على حالها : جميلة ومثيرة وقادرة على مخاطبة الوجدان الإنسانى فى كل مكان، وهذا هو ما نجده فى قصائد «نيرودا» ، وهى قصائد ذات روح إنسانية قوية ، وهى أيضًا بسيطة غير مثقلة بالزخارف الكثيرة، ولذلك ففى استطاعتها أن تنتقل بأهم عناصر الجمال فيها من لغة إلى أخرى ، كما تنتقل العصافير فى حرية على أغصان الأشجار المختلفة، دون أن تفقد شيئًا من قدرتها على الغناء الجميل.

من قصائد «نيرودا» قصيدة له عنوانها «أغنية العاشقين» .. وهذا هو نص القصيدة بأكملها :

«هى كانت جميلة طيبة، اغفر لها يارب . هو كان عذبًا حزينًا .. اغفر له يارب .. كان ينام فى ذراعيها البيضاوين، مثل نحلة فى زهرة، اغفر له يارب. كان يعشق الأغانى العذبة . وهى .. كانت تعشق الأغانى العذبة. اغفر لهما يارب. حين كان يتكلم يبدو كما لو كان أحدقد بكى فى صوته. اغفر له يارب. هى كانت تقول : أنا خائفة .. أنا أسمع صوتًا يأتى من بعيد.. اغفر لها

يارب. هو كان يقول : ضعى يدك الصغيرة فى شفتى ، اغفر له يارب. كانا معًا يتأملان النجوم. لم يتكلما أبدًا عن الغرام. حين كانت تموت فراشة، كانا يبكيان معًا ، اغفر لهما يارب. هى كانت جميلة طيبة. هو كان عذبًا حزينًا ، ماتا معًا من ألم واحد . اغفر لهما يارب ، اغفر لهما يارب ، اغفر لهما يارب ، اغفر لهما يارب ».

وفى قصيدة أخرى عنوانها «نشيد إلى الإنسان البسيط» يصور «نيرودا» إحساسه العميق بتلك النزعة الأصلية التى يدعو إليها وهى نزعة «الإخاء الإنسانى» ، وهو الإخاء الذى لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الرحمة والحنان والمحاولة الصادقة للتعاطف بين الناس وقد يكون ما يصوره «نيرودا» خياليًا وصعب التحقيق فى الواقع ، ومع ذلك فهو يحرك مشاعرنا ويملأ نفوسنا بإحساس دافئ ومشاعر جميلة . وإذا كان واقع الحياة مختلفًا عن واقع الأحلام التى يصورها لنا الشاعر ويطير على أجنحة كلماته فى أجوائها الواسعة، فإن ذلك فى حد ذاته يحقق لنا لحظات من المتعة والسعادة، وعندما نخرج إلى الواقع نكون مثل الذى خرج من البحر بعد سباحة ناجحة، أى أننا نعود إلى شاطئ الحياة الواقعية وفى نفوسنا كثير من النشاط والحيوية ، بحيث نستطيع أن نواجه متاعب الحياة ونحن أقوياء وقادرون على الاحتمال ، ولذلك فإن أحلام الشعراء الكبار ليست عبثًا ، وليست نوعًا من الدواء المهدئ للتوتر والحزن، ولكنه غذاء ، أو «فيتامينات» لتقوية الروح ومساعدتها على أن تكون أشد صلابة ومتانة، حتى لا تتكسر عند أول عاصفة .

يقول «نيرودا» فى قصيدته «نشيد إلى الإنسان البسيط» :

«سأحكى لك فى السر: من أكون أنا ، وعليك أن تحكى لى بصوت مرتفع من تكون أنت : أريد أن أعرف من أنت . كم تكسب ، فى أى مصنع تعمل، فى أى منجم، فى أى صيدلية، فأنا أشعر بواجب كبير يدفعنى أن أعرف كل شىء».

«لا تندهش. فهذه مهنتى . أنا أنظر فى أعماق الأشياء. لذلك فإنى أمحو الألوان على قطعة القماش، لكى أستطيع أن ألمس النسيج الأصيل قبل أن يختفى تحت الألوان، وعند هذا النسيج أحس بالوحدة بين البشر،

وفى رغيف الخبز أبحث عما هو أبعد من الشكل، أستمتع بلقمة الخبز وأنا أمضغها، وعند ذلك أرى القمح ، وأبصر مزارعه التى تبدو على هيئة الربيع الأخضر. أبصر الجذور والماء وفى رغيف الخبز أرى الأرض . وحدة الأرض.. الماء .. الإنسان .. وهكذا أذوق كل شىء وأنا أبحث عنك فى كل شىء . أسير ، وأعوم فى البحر، وأركب السفن .. حتى ألقاك . وحينئذ أسألك: ما هو إسمك، وأسأل عن الشارع الذى تقيم فيه، وعن رقم البيت، كل ذلك حتى تتمكن من تسلم رسائلى حين أكتب إليك ، وسوف أكتب إليك: من أنا وكم أكسب . وأين أعيش . أرايت كيف أننى بسيط وكيف أنك بسيط وأنه ليس هناك شىء معقد فى الأمر ، أنا أعمل معك . أنت تعيش . أنت تروح وتجىء . الأمر بسيط جداً . أنت الحياة . فيك شفافية مثل الماء. وحينما نتأكد من أننا إخوة سوف أكتب عن حياتك وحياتى ، عن حبك وحبى . وعندما أضع يدى على كتفك، مثلما يفعل الأصدقاء القدماء، سوف أهمس فى أذنيك: لا تتألم . لابد أن يأتى اليوم..تعال.. تعال معى . أنت وجميع الذين يشبهونك من البسطاء . وإن لم تكن أنت تعرف ، فإننى أعرف.. نعم أنا أعرف إلى أين نمضى . وهذه كلماتى لك : لا تتألم ، لأننا سوف نربح .. نحن البسطاء ، وإن لم تكن أنت تعتقد بذلك الآن .. سوف نربح فتعال».

تلك هى بعض عواطف الشاعر نيرودا وأحلامه كما تصورها هذه القصيدة البسيطة الرائعة، إن قلبه يفيض بالإنسانية والرحمة والثقة بأن الخير قادم على الأرض ، وإن الأيام لن تستمر على حالها من السوء والشر وفرض الأسى على البسطاء والأبرياء .. ومثل هذا الشعر منسوج من خيوط الأحلام الحريرية .. وقدلا نجد لهذه الأحلام أثرًا سهلاً فى واقع الحياة . ومع ذلك فليس هناك خطأ فى أن نحلم ونظل نحلم على طريقة «نيرودا» حتى تصبح الحياة أفضل وأجمل . فالأحلام الطيبة وسيلة من وسائل الحرب على الشر. وقد تنجح هذه الحرب فى آخر الأمر ، وربما تنتهى رحلة الأحلام الطيبة بتحقيق مدينة الإنسان الفاضلة على الأرض .

الملسوع .. !!

النفس الحاسدة هى أسوأ النفوس فى هذه الدنيا ، والحاسد مريض بمرض نفسى لا علاج له ، وهو مرض يشبه الأمراض المستعصية التى حارت عبقرية الطب البشرى فى علاجها واكتشاف دواء يشفيه أو يخفف من آلامها . وفى قلب الحاسد نار تأكله قبل أن تأكل قلوب الآخرين. والحاسد فنان لم يحالفه النجاح، فهو يغنى ولكن صوته ردئ، وهو يعزف ولكن آلته الموسيقية «خربانة» وألحانها نشاز . وهو قائد وزعيم، ولكن معاركه كلها من ذلك النوع الذى قال عنه المتنبى العظيم:

وإذا ما خلا الجبان بأرض

طلب الطعن وحده والنزالا

والنزال معناه الصراع والقتال، والحاسد لا ينازل أحدًا ، إلا إذا اهتدى بذكائه الغبى ، أن «الزعل مرفوع» و«الضرر ممنوع» . والدنيا آمنة من الأخطار، والحاسد لا يحب البلابل والعصافير والنساء الجميلات فكل هذه الكائنات الرائعة من ضحاياه لأنه لا يعشق إلا الغربان والبوم والخرائب والحدائق المهجورة التى ماتت فيها الأزهار واصفرت فيها أوراق الأشجار.

والحاسد دائمًا «ملسوع» بأى نجاح، أو أى فرحة صادقة ، أو أى توفيق من الله يصيبه إنسان غيره.

والحاسد لا يشعر بالنشوة والنشاط إلا إذا وجد أمامه نجاحًا يثير فيه الغضب والغيظ فلا ينام الليل ولا يهدأ بالنهار ، لأن هوايته هي أن يواجه «الكمال» بالنقص الذى فيه ، وأن يشوه «الجمال» بما يشتعل فى قلبه من «ماء النار» الذى يؤرقه ويضنيه، وقد كان الفيلسوف العظيم سقراط ضحية للحاسد «الملسوع» عندما وقف فى المحاكمة التى فرضوها عليه ليدافع عن نفسه ويقول فى دفاعه الصادق والساذج معًا :

«أنا جندى قديم، ورجل طاهر الذيل، شريف العيش، وقد جعلت رسالتى هى محو الجهل الشائع فى أثينا، وجعلت هدفى هو خير الناس. وأنا أحاول دائمًا أن أجعل حياتى بركة على أهل أثينا، ولو نجوت من الموت ، فإننى سأظل أجاهد فى نفس الطريق. أما الذى يتهمنى فما هو إلا رجل غبى متكبر ، لا يعرف الحقيقة».

وظل «سقراط» يتحدث ببلاغته القوية الساحرة حتى أثبت صحة أفكاره، وبرهن عليها بأقوى دليل . وعندما وصل إلى هذه النقطة ، كان فى الوقت نفسه قد حدد نوع الحكم الذى صدر ضده بعدذلك، وهو الحكم بالإعدام عليه وتنفيذ الحكم سنة ٣٩٩ قبل الميلاد .

ويعلق «برنارد شو» على دفاع سقراط عن نفسه فيقول :

«إن إثبات سقراط لفكرته كان هلاكًا له، وقضاء عليه . لقد قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره عليه رجحان عقله فى قلوب الرجال من خوف وكراهية، وما كان سقراط يحمل لهم فى قلبه إلا الخير ، وما كان يظن إلا أنه أسدى إليهم كل معروف».

وهناك أيضًا «جان دارك» التى أنقذت فرنسا من الهزيمة فى حربها مع الإنجليز سنة ١٤٢٩، فأثارت الحسد لها والضغينة عليها. ولم تكن «جان دارك» تعرف المكر والدهاء ، ولم تكن تعرف اللف والدوران والحيلة، ولذلك حكم عليها أعداؤها بالموت «حرقًا» سنة ١٤٣١، والذين أصدروا ضدها هذا الحكم القاسى هم الذين خدمتهم وأحبتهم،ولكنهم ضاقوا بها لأنهم كانوا «ملسوعين» من شدة الحسد المشتعل فى نفوسهم ضد هذه الفتاة البريئة الجريئة الطاهرة، وكانت جريمتها فى نظرهم ، والتى لم تجد من يغفر لها، هى أنها تفوقت عليهم جميعًا .

وقد علق «برنارد شو» أيضًا على إحراق «جان دارك» وذلك فى مقدمة مسرحيته الرائعة والتى جعل عنوانها «القديسة جان» ، والمقدمة والمسرحية مترجمتان إلى العربية ترجمة بديعة بقلم العالم الأديب الدكتور أحمدزكى.. يقول برنارد شو فى مقدمة هذه المسرحية :

«لقد كانت لنابليون مقدرة مخيفة كالتى كانت لجان دارك وسقراط،

ولكنه لم يكن صريحًا مجاهرًا برأيه .. وكان طموحًا ، ولكنه لم ينخدع فى «رواجه» عند الناس، ولم يخطئ معنى هذا الرواج أبدًا، وسئل مرة وهو فى قمة مجده وشهرته : كيف يتصور حال الناس إذا تلقوا نعيه ، فقال .. سوف يتنفسون الصعداء!!».

وتعليق برنارد شو صحيح، فقد مات نابليون سنة ١٨٢١ فوق سريره فى منفاه الأخير فى جزيرة «سانت هيلانه» ، بينما مات سقرط - إعدمًا - بالسم ، وماتت جان دارك إحراقًا بالنار . أما نابليون فقداحتمى دائمًا بالحذر، وتحصن بسوء الظن العميق فى البشر، وامتلأ كيانه من البداية للنهاية بفكرة واحدة هى أن «المسوعين» الذين يكرهون النجاح ويخافون منه أخطر من الذين يحبونه ويتعاطفون معه. فالمحبون طيبون وأبرياء، والمسوعون لؤماء وأصحاب حيلة ودهاء.

وهنا نتوقف أمام صديقنا الروحى العزيز الشاعر العالمى الكبير ، والطفل الجرئ المدهش «بابلو نيرودا» (١٩٠٤ - ١٩٧٣) ، فقد خاض هذا الشاعر العبقرى النبيل الجميل كثيرًا من تجارب الحياة ، لأنه كان لا يكف عن الاتصال بالناس والتنقل بين بلدان العالم المختلفة . وقد سماه أحد نقاده باسم طريف هو «الرحالة المستقر» أو «الرحالة المقيم». وهما كلمتان متناقضان ، فالرحلة ضد الاستقرار،وضد الإقامة ، ولكن «نيرودا» الجميل شعر بالطرب من هذا الوصف . وعلق عليه بقوله .. «لقد انتبه هذا الناقد الذى سمانى باسم «الرحالة المستقر» أو «الرحالة المقيم» إلى أنى أحب أن أسافر دون أن أتحرك من بيتى ، ودون أن أخرج من بلدى ، ودون أن أبتعد عن نفسى» .

ومعنى هذه الكلمات أن «نيرودا» كان يتحرك من مكان إلى مكان ولكنه كان يحمل فى قلبه أشياء ثابتة لا تتغير هى بيته وبلده ونفسه.

وكانت تجارب «نيرودا» مع الحياة واسعة ، بسبب حبه للتعرف على الناس والانتقال من عاصمة إلى عاصمة، كل ذلك دون أن يفقد ما فى «الصرة» التى يحملها معه، وهى قلبه، وفى هذه «الصرة» كان بيته وبلده

ونفسه، وفى تجاربه الواسعة التقى «نيرودا» بهذا «الملسوع» ، ذلك الذي قضى حياته كلها فى شن الحرب على الشاعر الجميل دون هوادة أو ملل.

يقول «نيرودا» فى حكايته مع «الملسوع» ، وذلك فى مذكراته الفاتنة التى ترجمها من الإسبانية الأديب الفلسطينى الفنان الدكتور محمود صبح:

«.. إن الأحقاد الصغيرة تنتشر وتستشرى فى أمريكا اللاتينية ، ويصل الحسد أحيانًا إلى حد أن يكون «حرفة» ، ويقال إن شعور الحسدهذا قد ورثناه عن أسبانيا الاستعمارية المنقرضة، التى استبدت ببلادنا وسيطرت عليها لفترة طويلة . وكنت أتردد فى أن أتكلم عن تجاربى الشخصية مع هذا الحسد المتطرف. لم أكن أرغب فى أن أكون أنانيا لا هم له إلا الحديث عن نفسه والانشغال بذاته دائمًا ، لكن - لحسن حظى - كان من نصيبى حساد «ملسوعون» يتميزون بالإلحاح والإصرار والطرافة ، إلى درجة أننى وجدت من المفيد أن أتحدث عنهم. لقد أغضبتنى هذه «الأشباح» التى تطاردنى وتزعجنى، لكننى - فى الحقيقة - اكتشفت أنهم كانوا يؤدون- دون إرادتهم - واجبًا غريبًا هو الدعاية لى ، كما لو أنهم قد قاموا بتكوين مؤسسة تعمل على أن يصبح اسمى يرن فى كل مكان (١) . لقد ترك موت أحد هؤلاء الأشباح الحاسدين بطريقة مأساوية، نوعًا من الفراغ فى حياتى. كان يشن ضدى حربًا خلال سنين عديدة . وكان لا يترك شيئًا مما أفعله أو أقوله دون أن يشن حملة عليه.. وبعد رحيله ، إذ أنه انتحر فى النهاية، فإنى أفتقده إلى حد بعيد، إن أربعين سنة من المطاردة لى لهو أمر رائع حقًا . وحين أفكر فى هذه المعركة الطويلة التى كانت من طرف واحد أشعر بشىء من الابتهاج. لقد كانت هذه المعركة قائمة من جانب إنسان يحارب ظله . وهى معركة من طرف واحد لأنى لم أشارك فيها على الإطلاق. لقد نشر هذا «الحاسد الملسوع» خمسًا وعشرين مجلة كان

(١) هذا المعنى هو نفسه الذى عبر عنه شاعرنا العربى أبو تمام فى قوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود.

موضوعها الأساسى جميعها هو محاولة تهديمى أدبيًا، فكانت تنسب لى كل أنواع الجرائم مثل الخيانة ، والجفاف الشعرى ، والفقر فى الإبداع الفنى، والشذوذ الجنسى، وسائر الانحرافات الخطيرة الأخرى، كذلك كان هذا «الحاسد الملسوع» يكتب منشورات ضدى يوزعها فى مثابرة وإلحاح ، وكان يكتب «ريبورتاجات» لا تخلو من الفكاهة، وأخيرًا نشر مجلدًا ضخمًا عنوانه «أنا ونيرودا» (١) وهو كتاب «سمين بدين» ينطوى على شتائم مقذعة لى . وكان خصمى هذا شاعرًا من بلادى «تشيلى»، وكان أكبر منى عمرًا ، وكان متعصبًا ، متطرفًا صاحب طبع استبدادى، وكان من هؤلاء الأدباء الموهوبين(!) بالأنانية الشرسة، والذين يستخدمون أشكالاً كثيرة من الفظاظة والتركيز على ذواتهم وأنفسهم كان خصمى الخرافى هذا يعيش فى مهزلة مستمرة، حيث كان يحتال على نفسه . ويغش ذاته، ويخترع له شخصية تقوم على «التهديد» ، وكانت هذه الشخصية «التهديدية» حرفة له وحماية».

هذا الحاسد «الملسوع» الذى يتحدث عنه «نيرودا» كان اسمه «بالونيس» ، ولا أحد يذكر هذا الاسم الآن ولا أحد يعرفه . بينما اسم «نيرودا» يملأ العالم بالنور.

ويروى «نيرودا» قصة «ملسوع» آخر اسمه «ريبيرو» يقول عنه:

«.. كان ريبيرو هذا معتوهًا جدًا ولحوحًا إلى أبعد حد.. وقد قضى عدة سنوات ينشر بالأسبانية والفرنسية كتبًا هجائية ينهشنى فيها ويقطعنى إربًا وكان ينفق من ماله على نشر هذه الكتب، وكان يسرف فى تمويل سفريات باهظة يقوم بها وليس لها هدف إلا تدميرى بلا رحمة . لقد رحل هذا الملسوع متحملاً مشقة السفر وتكاليفه إلى مقر جامعة «اكسفورد» عندما علم أنهم سوف يمنحوننى درجة الدكتوراه الفخرية هناك . وسافر إلى «استكهولم» عاصمة السويد عندما أشيع أننى سوف أحصل على جائزة

(١) فى هذا العنوان يحاول الحاسد الملسوع أن يقلد عنوان الكاتب الأسبانى المعروف «خيمنيث» مؤلف كتاب «أنا وحمارى» ومؤلف كتاب «أنا ونيرودا» يقصد الإشارة إلى القول بأن نيرودا من وجهة نظره «حمار» !

نوبل، وعقد مؤتمرات صحفية ، وتحدث فى الإذاعة ليوجه لى كل الاتهامات الخيالية حتى يحرمنى من جائزة نوبل».

ماذا كانت ثمرة جهود هذ «الملسوع» وماذا كانت ثمرة أمواله التى أنفقها فى حربه ضد «نيرودا» ؟ .. لا شىء .. فقد حصل «نيرودا» على الدكتوراه الفخرية من «اكسفورد»، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٧١ . ويقول «نيرودا» فى تبرير حديثه عن هؤلاء الحاسدين الملسوعين :

«إن سلسلة كبيرة من الكراهية تكتسح الأقطار الناطقة بالأسبانية، والوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الشراسة التى تسعى إلى الهدم والتدمير، هى عرض حوادث هذا الحسد الخطير على الناس والتشهير بها».

فالتشهير بالحاسدين الملسوعين فى رأى «نيرودا» مفيد وقد ينفع فى الحد من شرورهم.

وسوف يجد كل منا «ملسوعًا» يعاديه، ويحاول أن يجرحه ويؤذيه ، ولابد أن يظهر هذا «الملسوع» إذا حقق الإنسان أى قدر من النجاح ، وإذا ما وهبه الله شيئًا من التوفيق فى اجتهاده. ولكن «الملسوع» هو فى حقيقته «حشرة بشرية» لا هدف لها إلا الهدم والتدمير وتجريح الناس وتعكير صفو الحياة و«الملسوع» دائمًا بلا ضمير، وليس فى قلبه نور ، وقد يكتسي «الملسوع» بأثواب مزركشة، فيتظاهر بأنه عالم أو مؤرخ أو باحث مدقق، أو طبيب روحانى يعالج النفوس، ولكنها كلها أزياء ملفقة . يقول الشاعر العربى القديم مع بعض التعديل :

ثوب الحسود يشف عماتحته

فإذا اكتسيت به فإنك عارى

.. وإذا كنت امرأة جميلة فسوف تجدين «ملسوعة» تحاول تنغيص حياتك، وإذا كنت رجلاً ناجحًا باجتهادك وتوفيق الله لك، فسوف تجد هذا الملسوع الذى يحاول أن يتسلل داخل ثيابك ليؤذيك ويجرحك. ولا حل مع «الملسوع» إلا أن يتجاهله الإنسان ويمضى فى طريقه على بركه الله.

شخصية شيطانية

لا شك أننا جميعًا نعرف هذا النوع من البشر الذى يمكننا دون أى مبالغة أو تحفظ أن نطلق عليه اسم «الشخصية الشيطانية» ، وهى شخصية ذات أوصاف مألوفه ومعروفة ، إذ أنها تظهر بمظهر مختلف تمامًا عن حقيقتها ، وهذا المظهر يبدو شديدالاتقان والخداع ، بحيث يتعرض الناس أحيانًا لمأزق الثقة بمثل هذه الشخصية الشيطانية وتصديق كل ما تقوله وتظهره من عواطف ومواقف طيبة . وبعد فترة يكتشف الإنسان أنه وقع فى مصيدة، هى مصيدة الاطمئنان إلى هذه الشخصية الشيطانية الزائفة والتى لا هدف لهاإلا الهدم والتدمير واستغلال الآخرين والانتقام منهم دون ذنب أوسبب.

والشخصية الشيطانية تبدو دائمًا - فى مظهرها الخارجى - رقيقة شديدة المرونة، وأحيانًا تكون هذه الشخصية جذابة بالنسبة لمن يتعرفون عليها لأول مرة، ولذلك فمن السهل على أصحاب الشخصية الشيطانية أن يفترسوا الناس، وذلك عن طريق الحديث الحلو، وبشاشة الوجه، وإعلان الاستعداد الدائم لتقديم المساعدة والخدمات، وأحيانًا «تتآمر » الطبيعة نفسها على صناعة «الشخصية الشيطانية» فيكون صاحب هذه الشخصية على شيء من الجمال الذى يريح النفس عند النظر إليه، ويكون أيضًا على جانب من الذكاء والحيلة الواسعة والقدرة على تبرير أى شىء يفعله، وتلك كلها أسلحة تستخدمها الشخصية الشيطانية فى إنجاز رسالتها غير النبيلة فى الحياة .

وأذكر أننى تعرفت فى بدايات حياتى على شخصية من هذا النوع، وقد حقق صاحبها بعض النجاح فى أعماله المتعددة، وكان نجاحه يعود إلى أنه يملك مواهب نادرة ، ولكنه لم يستخدم هذه المواهب فى موضعها الصحيح، أى فى الدفاع عن الخير والجمل ومساعدة الناس على فهم مشاكلهم

وحلها، وبعد أشهر من تعرفى على هذه الشخصية الشيطانية أدركت مدى مافيها من تناقض بين مظهرها الساحر الجذاب وحقيقتها الداخلية المليئة بالشرور، وفى أول صدمة تعرضت لها بسبب هذه الشخصية وجدت نفسى أمام مأساة مؤلمة. وكنت أيامها طالبًا فى كلية الآداب فى جامعة القاهرة. وكانت أفكارى عن الدنيا بسيطة وسهلة وبعيدة كل البعد عن أى تعقيد، ولكن هذه الصدمة أيقظتنى من عالمى الساذج، وجعلتنى أدرك ، وأنا الطالب الصغير الفقير القادم من الريف ، أن الحياة فيها من الصعاب والمخاطر أكثر مما أتصور بكثير، وكنت واحدًا من مجموعة طلاب تعودنا أن نلتقى مع بعضنا البعض فى «بوفيه» كلية الآداب، أو «بوفيه» كلية الحقوق. وكان يجمع بيننا حبنا للأدب والفن والثقافة، ورغبتنا فى متابعة القضايا العامة والبحث عن طريقة للمشاركة فى هذه القضايا، فقد كان من أحلامنا أن نسهم فى صنع مستقبل بلادنا ، وكان بين مجموعتنا الطلابية البريئة طالبة فى كلية الحقوق، كانت تنتمى إلى أسرة كريمة، وتتمتع بالذكاء والحيوية والجرأة والرشاقة والجمال، وهى الطالبة «ف . ع» وكان صاحب الشخصية الشيطانية قد سبقنا إلى التخرج فى كلية الحقوق، وبدأ يشق طريقه فى الحياة العملية، ولكنه كان كثيرًا ما يحرص على أن يشاركنا جلساتنا المختلفة، وبعد فترة عرفنا أنه قد نشأت بينه وبين الطالبة المتميزة «ف. ع» علاقة عاطفية، وكنا نحسد صاحب الشخصية الشيطانية على نجاحه فى أن يخطف قلب تلك الفتاة الجميلة الراقية، وظن الجميع أنه سعيد بما وصل إليه من نجاح عاطفى ، وأن القصة فى طريقها إلى نهايتها الطبيعية وهى الزواج، ولكننا فوجئنا باختفاء الطالبة «ف. ع» وحين سألنا عنها أذهلنا ما سمعناه، فقد انتحرت الطالبة وفارقت الحياة لأن صاحب الشخصية الشيطانية قد خدعها وكسب حبها وثقتها ثم تخلى عنها فجأة ليبحث عن فريسة أخرى ، فلم تحتمل هذه الفتاة الصدمة وتخلصت من حياتها.

واختفى صاحب الشخصية الشيطانية فترة طويلة، ثم ظهر من جديد و«براءة الأطفال فى عينيه» ، لم يكن يشعر بأى ندم، ولم يكن قدغير أسلوبه العذب الجذاب فى الحديث مع الناس والتعامل معهم. واستمر هذا

الشيطان فى حياته يمارس نفس ألعابه البهلوانية الخطيرة، ويرتكب جرائمه المختلفة دون أن يترك وراءه أى دليل يدينه، وقد أوقع فتيات أخريات فى شباكه، واستطاع أن يخرج من كل المآزق بمهارة وذكاء ، وامتدت مغامراته من الأفراد إلى الدول ، فقد عرفت يومًا أنه أقنع المسئولين فى إحدى أفقر الدول العربية بأنه سوف يكتب مرجعًا علميًا مهمًا عن تاريخ هذه الدولة، وسوف يتفرغ لذلك عامًا أو أكثر ، واستطاع أن يحصل من هذه الدولة على مبالغ طائلة من المال، فى مقابل التاريخ المزعوم الذى سوف يكتبه، وبالطبع فإنه لم يكتب شيئًا ، لأنه لم يكن قادرًا على بذل الجهد المطلوب ولا راغبًا فى ذلك، كما أنه لم يقم برد الأموال التى حصل عليها، وتقدمت الدولة الفقيرة بشكاوى رسمية ضده دون جدوى أو فائدة، وقداختفت هذه الشخصية منذ سنوات بعيدة، وانتهت حياتها نهاية غير سعيدة، وكانت هذه الشخصية الشيطانية نموذجًا حيًا لهذا النوع من الشخصيات التى تجمع بين الجمال الخارجى والشر الداخلى، والتي تفرض علينا الحياة أن نرى أمثالها كثيرًا ، وتفرض علينا أيضًا أن نتسلح بالحذر الشديد ضد هذا النوع المريض من الشخصيات والذى لا هدف له إلا تعكير صفو الحياة وإلحاق الأذى بالناس.

وفى مذكرات شاعر «تشيلى» العظيم «بابلو نيرودا» يحدثنا الشاعر عن نموذج عجيب لهذه الشخصية الشيطانية، ومذكرات «نيرودا» هى تحفة بديعة من الأدب العالمى، وهى مذكرات مليئة بالصدق والأمانة والتجارب المدهشة، وكما أشرت فى الفصول السابقة فقد ترجم هذه المذكرات إلى العربية عن الأسبانية ترجمة رائعة الأديب العربى الفلسطينى الدكتور محمود صبح.

كانت الحرب الأهلية الأسبانية مشتعلة سنة ١٩٣٦، وقد مالت كفة النصر فى هذه الحرب إلى جانب الدكتاتور الطاغية «فرانكو» (١٩٨٢ - ١٩٧٥)، وبدأ الجمهوريون الأحرار يتعرضون للهزائم المتتالية، مما ترتب عليه هجرة كثيرين من الأسبان فى ظروف بالغة الصعوبة إلى فرنسا، هربًا من انتقام «فرانكو» الذى كان يفتك بالناس فتكًا شديدًا، ويأمر بقتلهم فى

الشوارع والبيوت وفى كل مكان يوجدون فيه، ما دام هناك أى شبهة فى أنهم من أنصار الجمهورية، وكانت الجمهورية الأسبانية تحظى بتأييد المثقفين والطبقات الشعبية فى أسبانيا كلها، أى أن الأغلبية الأسبانية كانت فى صف الجمهورية بل وكان أحرار العالم كلهم يؤيدون الجمهورية ، ومع ذلك فقد استطاع «فرانكو» أن ينتصر ويهدم الجمهورية ويحكم على الملايين من أبناء أسبانيا بالتشرد والفرار من وجه حكمه الدموى ، وذلك اعتمادًا على المساعدات التى تلقاها فرانكو من النازيين الألمان والفاشيين فى إيطاليا .

وكان على رأس الحكومة فى «تشيلى» فى ذلك الوقت نظام وطنى يسارى، وكانت «تشيلى» فى أمريكا اللاتينية تشعر بالتعاطف الكبير مع المهاجرين الأسبان، الفارين من مذابح فرانكو، فتشيلى تتكلم الأسبانية، وكثير من أبنائها تمتد أصولهم إلى أجداد وآباء هاجروا إليها من أسبانيا، ومن هنا كان تعاطف الحكومة الوطنية فى «تشيلى» مع المهاجرين الأسبان الذين تدفقوا على فرنسا، واختارت الحكومة شاعر «تشيلى» العظيم «بابلو نيرودا» ليكون قنصلاً لها فى باريس، ويكون مسئولاً عن تيسير هجرة الأسبان من فرنسا إلى «تشيلى» ، وأرسلت الحكومة مساعدًا للشاعر نيرودا كان اسمه «أربيانو مارين»، وكان «مارين» هذا يظهر اللطف والرقة والنعومة والاستعداد الكامل لمعاونة «نيرودا» ولكن «نيرودا» سرعان ما اكتشف أن هذا المساعد الذى يظهر الوطنية واليسارية والإنسانية ليس على شىء من الإخلاص للقضية التى جاء إلى باريس لخدمتها، ففى الوقت الذى كان فيه «نيرودا» العظيم مشغولاً بهموم المهاجرين الأسبان وظروفهم القاسية التعسة، كان «مارين» هذا يحدثه عن مشروعاته المالية، ورحلاته من أجل الراحة والاستجمام، يقول «نيرودا» فى مذكراته :

«كان مارين يحكى لى عن مجوهراته والتحف التى يملكها، وكنت كأنى استمع إلى غنى حرب جديد ، ولكن مع بعض اضطرابات عصبية تشبه الجنون، وكان فى حدة نظراته وفى تأكيداته الحازمة الجازمة يسبب لى نوعًا من الدوار، فقررت أن أكلمه بصراحة عن مشاغلى وضيق وقتى، وطلبت

منه أن نتناول القهوة فى غرفته بالفندق الذى ينزل فيه، لأن عندى ما أريد أن أحدثه عنه، وبينما كنا نصعد إلى الغرفة لنتحادث على انفراد، اقترب منى رجلان لم أكن أعرفهما من قبل، فقال لهما «مارين» بالأسبانية أن ينتظراه حتى ينزل بعد دقائق قليلة، وعندما دخلنا الغرفة وحدنا، تركت فنجان القهوة، وقلت لمارين فى عنف وصراحة : يبدو لى أنك تسير فى طريق شديد القذارة، وأنك تحولت فى حبك للمال إلى مجنون ومعتوه، وقد تكون صغيراً حتى يصعب عليك أن تفهم ما أقوله لك. إن واجباتنا السياسية هى واجبات جادة جداً ، فمصير آلاف المهاجرين الأسبان فى أيدينا ، ولا يمكننا أن نلعب بهذا المصير، وأنا لا أريد أن أعرف شيئاً عن شئونك الشخصية وقضاياك الخاصة، ولكننى أريد أن أحذرك.. فهناك أشخاص يقولون بعد أن يقضوا حياة تعسة بائسة أنه لم يقدم إليهم أحد نصيحة جميلة ، ولم يحذرهم أحد من النتائج السيئة لأفعالهم، ولكن هذا لا ينطبق عليك، فأنا أحذرك الآن مما تفعله، ومن العاقبة السيئة لتصرفاتك، ولن أقول لك شيئاً أكثر من ذلك ، وسوف أنصرف الآن، ونظرت إليه حين مددت يدى لأودعه فرأيت الدموع تنحدر بغزارة من عينيه إلى شفتيه، فشعرت بشىء من الندم، ووضعت يدى على كتفه وقلت له: .. لا تبك .. وحين نزل من غرفته رأيت الرجلين المجهولين ينتظران ، ثم صعدا بسرعة إلى غرفته» .

كيف انتهت هذه الحكاية العجيبة ؟.. يقول لنا «نيرودا» :

«إن خاتمة هذه الحكاية جرت بعد ذلك بزمن طويل فى المكسيك ، حيث كنت هناك قنصلاً لتشيلى وذات يوم كنت مدعواً للغداء فى بيت لاجئين من الأسبان يقيمون فى المكسيك وكان من بينهم اثنان عرفانى منذ أول لحظة . سألتهما : كيف عرفانى ؟ فقالا : نحن اللذان كنا فى انتظار زميلك «مارين» حين رأيناك تهبط من غرفته.وقصا على قصة غريبة للغاية . كانا قد وجدا «مارين» فى غرفته غارقا فى الدموع، متأثرا ، وفى حالة عصبية شديدة الاضطراب، وقال لهما وهو يبكى ويرتعش : لقدعانيت منذ قليل أمراً لم يحدث أن عانيته فى حياتى كلها ، فقد خرج «نيرودا» من هنا وهو مصمم

على أن يخبر عنكما «الجستابو» وهو جهاز المخابرات النازية الرهيب، وسوف يقول عنكما أنكما شيوعيان خطيران من أسبانيا، ولم أستطع إقناعه بالعدول عن هذا الأمر الذى أصر عليه، ولا استطعت أن اجعله ينتظر بضع ساعات حتى تتمكنا من الهروب. فليس أمامكما الآن إلا دقائق معدودات كى تفرا من المصير الذى ينتظركما على أيدى المخابرات السرية النازية ، والتى كانت منتشرة فى كل أوروبا فى ذلك الوقت سنة ١٩٣٦ ، واتركا عندى حقائبكما ، فسأحفظها وأوصلها لكما حيث تكونان أو تقيمان وقدصدقه الرجلان وتركا «الحقائب» عند «مارين» وكانت هذه الحقائب تحتوى على تسعين ألف دولار هى ملك للنقابات الأسبانية، ولم يستطع الرجلان أن يستعيدا هذا المبلغ لإعادته إلى العمال ، ولم ير الرجلان بعد ذلك الحقائب ولا المال ولا .. مارين».

ثم يقول «نيرودا» :

«بعد ذلك عرفت أن «مارين» هذه الشخصية الشيطانية، قد قامت بجولة سياحية ممتعة وطويلة فى بلدان الشرق بصحبة حبيبته الباريسية، وتبين بعد ذلك أن تلك الشقراء الباريسية المتدللة لم تكن إلا طالبًا أشقر من جامعة السربون!! ثم بعد قليل نشر «مارين» فى الصحف استقالته من الحزب اليسارى الذى كان ينتمى إليه قائلاً : «إن اختلافات عقائدية عميقة تجبرنى على اتخاذ هذا القرر»!.

هذا النموذج الذى يقدمه إلينا الشاعر العظيم «نيرودا» هو نموذج حى للشخصيات الشيطانية التى تظهر بمظهر رقيق جذاب، وتستطيع أن تذرف الدموع فى أى لحظة لتوهم الناس بأنها صادقة، ثم ترتكب أفظع الجرائم بعد ذلك دون ندم .. لأنها بلا ضمير.

والشخصية الشيطانية تقابلنا كثيرًا فى الحياة ، وليس أمامنا إلا أن نكون حذرين من مثل هذه الشخصية الخطيرة ،وعلينا ألا نصدق فى سهولة ما تظهره من نعومة ولطف ولين وعذوبة ودموع ساخنة . فذلك كله تزوير يخفى وراءه كثيرًا من الشرور.

بين «نيرودا» و«ستالين»

لا أظن أننى قرأت فى حياتى كتابًا أشد قسوة وعنفًا فيما يتضمنه من النقد والتجريح أكثر من كتاب «ستالين» للمؤرخ الانجليزى «إسحق دويتشر»، «ودويتشر» معروف باهتمامه وتخصصه فى تاريخ الثورة الروسية ورجالها، حتى يكاد - فيما أعلم - يكون أكبر مؤرخ عالمى لهذه الثورة فى العصر الحديث، وهو يهودى ولكنه ليس معروفًا بمناصرته للصهيونية، وأهم مؤلفاته هو كتابه الشهير عن «تروتسكى» أحد كبار زعماء ثورة روسيا سنة ١٩١٧، وهو مؤسس الجيش الأحمر، وكان يحتل مكانة الرجل الثانى بعد لينين» فى الثورة الروسية، وبعد وفاة «لينين» سنة ١٩٢٤، استطاع «ستالين» أن يصل إلى موقع القيادة، متخطيًا «تروتسكى» ، ثم نشأ صراع عنيف بين «تروتسكى» القوى المثقف الواثق من نفسه، وبين «ستالين» الذى كان محدود الثقافة، ولكنه كان أقدر من خصمه على التغلغل فى التنظيم الحزبى ، والتآمر ، والإمساك بالخيوط القوية للسلطة ، والعمل السرى، فانتهى الأمر بطرد «تروتسكى» من روسيا ونفيه منها سنة ١٩٢٩، حيث عاش فى تركيا وفرنسا والنرويج ثم استقر فى المكسيك سنة ١٩٣٧، وفى سنة ١٩٤٠ تم اغتياله على يد رجل اقترب منه، وتظاهر بالولاء الكامل له حتى وثق فيه «تروتسكى» ، وكانت نهايته على يد هذا الصديق الغادر الذى وثق فيه كل الوثوق، وكان يدخل عليه بيته ومكتبه فى أى وقت يشاء، ورغم غموض شخصية القاتل، فإن هناك شبه إجماع بأن هذا القاتل كان مدسوسًا على «تروتسكى» من جانب أجهزة مخابرات «ستالين» القوية، والتى أصرت على ملاحقة «تروتسكى» حتى المكسيك للقضاء عليه والتخلص منه.

وقد كتب «إسحق دويتشر» كتابًا عن «تروتسكى» أصبح من أشهر الكتب فى الأدب السياسى فى القرن العشرين ، وهو كتاب من ثلاثة أجزاء، كان الجزء الأول هو «النبى المسلح» والجزء الثانى هو «النبى الأعزل» والجزء الثالث هو «النبى المهجور» وبقدر ما كان المؤرخ «دويتشر» فى هذا الكتاب معجبًا بتروتسكى ومتعاطفًا معه ، بل ومفتونًا به ، بقدر ما كان فى كتابه عن «ستالين» غاضبًا عليه، مدققًا أشد التدقيق فى جمع كل الوثائق التفصيلية التى تثبت أن «ستالين» كان طاغية دمويًا من أسوأ طغاة التاريخ، ولذلك جاء كتابه عن «ستالين» - كما أشرت - من أكثر الكتب قسوة ، حيث لا يكاد الإنسان يتصور وهو يقرأ هذا الكتاب أن الشر وكراهية البشر وعدم التورع عن ارتكاب أية جريمة شخصية أو عامة يمكن أن تجتمع كلها فى إنسان واحد كما اجتمع هذا كله فى شخصية «ستالين» . وقد أثبتت الأيام صحة الكثير مما جاء فى كتاب «دويتشر» عن «ستالين» . وظهرت الأدلة على صحة ذلك من داخل روسيا نفسها بعد وفاة «ستالين» . سنة ١٩٥٣ . وصدر عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى تقرير خطير أصبح معروفًا الآن للعالم كله، وتضمن هذا التقرير إدانة «ستالين» بصورة كاملة، وكشف التقرير عن ممارساته الدموية العنيفة وكان الذين أدانوه هم زملاء «ستالين» وتلاميذه من زعماء روسيا السوفييتيه ، ورغم أن تاريخ «ستالين» من البداية إلى النهاية ملئ بالمؤامرات والممارسات الدموية المريرة التى أدت إلى إعدام الكثيرين من زملائه ورفاقه وأصدقائه بلا رحمة، وبعد أن كان يرغمهم على الاعتراف بأنهم «مجرمون وخونة» ، فإن مظهر «ستالين» العام كان يبدو هادئًا باردًا شديد الانضباط قليل الكلام. فقد كان طغيان «ستالين» من طراز يختلف عن طغيان شخصية أخرى معاصرة له هى «هتلر» الذى كان مولعًا بالكلام البراق، والخطابة الجذابة، وإلقاء الكلام الذى لا يتصور العقل الطبيعى إمكان صدوره عن إنسان عادى، فضلاً عن زعيم وقائد شعب، فقد كان «هتلر» يقول علنًا لزواره وضيوفه :

«.. فليصفنا المعارضون لنا بشراسة الطبع والهمجية كما يريدون، فإننا متوحشون، ونريدأن نكون متوحشين. وهذا اللقب شرف لنا. فإننا نحن الذين سيجددون شباب العالم، فإن العالم الحالى وشيك على الزوال، ومهمتنا الوحيدة أن نغزوه ونتغلب عليه. ويجب أن نكون قساة فى أعمالنا ،

فإذا اضطررت يومًا لإعلان الحرب فهل يعوقنى عن ذلك مصير عشرة ملايين من الشباب الألمان الذين أرسلهم إلى الموت؟! .. أنا لا أفهم أن هناك حقاً غير حق واحد هو الحق الحيوى للأمة، وليس أمامى أن أختار غير هذا الحق، إن العالم لا يمكن حكمه إلا بإثارة الرعب والإرهاب» .

وهذا الكلام هو نص كلام «هتلر» كما جاء فى كتاب «هتلر قال لى» لأحد أنصار هتلر الأوائل الذين هربوا منه بعد ذلك واختلفوا معه وهو «هرمان روشننج» والكتاب مترجم إلى العربية سنة ١٩٤٠ بقلم (توفيق طنوس) وقد جاء فئ هذا الكتاب العجيب على لسان هتلر، وكان ذلك قبل اشتعال الحرب العالمية سنة ١٩٣٩، قول هتلر:

«إننى مستعد أن أحلف ست مرات كل يوم ثم أحنث فى ذلك كله فماذا يضر ؟ لا تقف عند التفاصيل ، تجاوزها . وخذ منى مثلاً لك . وإذا تمسكت بوخز الضمير فأرجو أن يزول هذا الوخز إذا رأيت ألمانيا تستعيد نجاحها وعظمتها . نحن لا حق لنا فى التفكير فى نفوسنا وفى سلامة ضميرنا أمام مصلحة ألمانيا.. إننى تعهدت بالعمل ولن أبالى بالوثائق والتوقيعات».

هذا بعض ما كان يقوله «هتلر» ليس فى خطب عامة بالطبع، ولكن مع زملائه فى الحزب النازى ، ومع أصدقائه وضيوفه وزواره المقربين، وقد انقلب بعضهم عليه مثل مؤلف كتاب «هتلر قال لى» وسجلوا آراءه ونشروها على لسانه. ولم يكن «ستالين» من هذا الطراز المتهور المندفع المحب للإعلان عن نفسه . بل كان طاغية من نوع آخر، يجيد الكتمان ويتحكم فى لسانه وأعصابه، ويخطط لأهدافه فى هدوء وبرود. ولعل هذا ما يفسر سرعة انكسار هتلر ونهايته المأساوية ، وما جره على بلده من خراب وكوارث، بينما «ستالين» ظل فى قمة السلطة حتى وفاته، وحقق انتصارات لشعبه لا شك فيها، وعندما مات كانت روسيا السوفياتية فى قمة قوتها ، فى الظاهر على الأقل ، وكانت تمد نفوذها إلى أوروبا الشرقية كلها على وجه التقريب، لم يستطع أحد أن يقترب من «ستالين» بالنقد والكشف عن جرائمه الدموية إلا بعد وفاته بحوالى ثلاث سنوت. ولكن من يرى أحوال روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٩١، وما تعانيه الآن

من أزمات ساحقة، لا يمكنه إلا أن يرد ذلك إلى «جذوره» الأولى وهو عصر «ستالين» ، وما كان يحدث فيه من تجاوزات غير عادية، ظلت تعمل عملها، حتى انهار البنيان كله، بعد وفاة ستالين بحوالى أربعين سنة، أى فى التسعينات من القرن العشرين.

ولقد أثبت تاريخ القرن العشرين أن كل ما يبنيه الطغاة، تذروه الرياح، ويتضح ذلك بصورة كاملة إذا نظرنا إلى التاريخ نظرة عامة، فنهاية حكم الطغاة واحدة، حتى لو طالت بعض فترات هذا الحكم، كما طال حكم «ستالين» من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٣ ، أى حوالى ثلاثين سنة متصلة، فالأخطاء الكبرى كامنة فى عصور الطغاة أنفسهم، وقد كان ما كشفه المؤرخ الإنجليزى «إسحق دويتشر» فى عصر «ستالين» فى كتابه «المرير» عنه مؤشرًا على أن الاتحاد السوفييتى لابد أن ينهار رغم أن كتاب «دويتشر» عن «ستالين» قد صدر قبل انهيار الاتحاد السوفياتي بأكثر من أربعين سنة . ولكن ما كشفه هذا الكتاب «الرهيب» عن عصر «ستالين» يثبت أن كل ما كان من تقدم فى هذا العصر قدقام على العنف والدم، والقسوة غير المحدودة، واحتقار الإنسان الفرد إلى أبعد الحدود، وتحويل البشر إلى «عرائس خشبية» تتحرك بالأوامر والقرارت ، تعيش مثلما تعيش الحيوانات بلا رأى، ولا قدرة على التنفس الطبيعى فى أجواء - ولو محدودة - من الحرية والإحساس بالكرامة . على أننا لا نقصد هنا تقديم دراسة عن الطغيان وألوانه ، والطغاة ونماذجهم المختلفة، فالطغيان فن، وإن كان فنًا مليئًا بالشر، وكل طاغية له أسلوبه الخاص فى التعبير والأداء وهى دراسة طريفة ومفيدة، ولكنها ليست هدفنا فى هذا الفصل، وإنما الهدف من هذه المقدمة الاستطرادية أن نتوقف عند نقطة محددة ، هى موقف الطغاة من الفنانين. فالحقيقة أن أهل الفن والثقافة هم دائمًا على رأس قائمة الضحايا أمام «بلدوزر»الطغاة من أمثال ستالين وهتلر.

وبالنسبة لهتلر فالمسألة واضحة تمامًا، فقد هرب كل من استطاع الهروب من الموهوبين والنابغين الألمان من بلادهم فى فترة سيطرة هتلر وحزبه النازى على ألمانيا من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥ . ولم ينجب العصر النازى

الهتلرى أديبًا واحدًا له وزن أو قيمة . ولم يظهر فى هذا العصر شاعر أو روائى أو كاتب قصة قصيرة من النابغين . وكيف يظهر نابغ فى مثل هذا العصر الذى كان يفخر بإقامة حرائق عامة للكتب الأدبية والفكرية المحترمة، وكان يفرض على أبناء الشعب الألمانى أن يقرأوا كتابًا واحدًا هو «كفاحى» من تأليف هتلر، وأن يقرأوا الشروح المستفيضة لهذا الكتاب الملئ بالمرارة والضغينة والحقد على الإنسانية كلها. فأمر هتلر واضح. وتجربته قصيرة، وأن كان ثمنها غاليًا حيث ذهب ضحيتها ما لا يقل عن خمسين مليونًا من البشر خلال خمس سنوات من الحرب العالمية الثانية التى أشعلها هتلر ، بمعدل عشرة ملايين من البشر فى كل عام من أعوام هذه الحرب الآثمة الملعونة.

ولكن المشكلة تبدو أكثر تعقيدًا مع شخصية الطاغية «ستالين» الذى حكم الاتحاد السوفياتى تسعة وعشرين عامًا متوصلة ، وظل شبحه يحكم بلاده بعدرحيله حوالى ثلاث سنوات أخرى ، لشدة خوف خلفائه من شبحه، ولعلهم كانوا يعيشون فى «كابوس» يقول لهم إن «ستالين» يمكن أن يعود فجأة وعلى غير انتظار، فيقبض على رقابهم جميعًا ، و«يكسرها» بيديه دون رحمة كماتعود فى حياته. ولذلك فإن قادة الاتحاد السوفياتى لم يتجرأوا على نقد ستالين، إلا بعد مرور ثلاث سنوات على موته، وبعدأن تأكد لهم، أنه بالفعل قد مات .. وأنه لن يعود إلى الحياة !

ماذا كان موقف ستالين خلال حكمه الطويل من الفنانين وأهل الفكر والعقل والوجدان ؟ لقد استعان ستالين برجلين من أشد الرجال ولاء له.. وذوبانًا فى شخصيته الطاغية ، وهما من أسوأ شخصيات التاريخ المعاصر والقديم على السواء ، أما الأول فهو وزير داخليته ورئيس مخابراته «بيريا» الذى كان قادرًا بغمزة عين من «ستالين» على قتل العشرات والآلاف دون رحمة أو تردد. أما الشخص الثانى الذى اعتمد عليه ستالين فكان اسمه «زدانوف» ، فقد كان «زدانوف» هو المسئول عن الثقافة والفنون فى عصر ستالين. وكان رجلاً جامدًا ضيق العقل«مهووسًا»بعبادة «ستالين» . لا يفكر إلا فى التعبير عن آراء زعيمه ومعبوده، وكان هذا الرجل - لسوء الحظ -

يكتب، ويضع النظريات الأدبية والفنية، وقد قيل عنه إنه قرأ يومًا ديوان شعر كتبه شاعر عاشق عن حبه وهواه، فأمر بمصادرته وكتب يقول :

«يطبع من الديوان نسختان ، .. واحدة للشاعر والأخرى لحبيبته. أما الجمهور السوفيتى فلا ذنب له ، وليس هناك ما يبرر قراءته لمثل هذا الديوان».

وكان هذا التفكير الأحمق وغير الإنسانى تعبيرًا عن رأى «ستالين» نفسه. ولعل الكلمات السابقة عن ديوان الحب للشاعر العاشق المسكين كانت كلمات «ستالين» ولم يكن زدانوف» غير صوت سيده» يردد ما يقوله هذا السيد، ويعمل فى حماس على تنفيذه.

وكانت النتائج سيئة فى ميدان الفن والفكر والأدب . فحتى كبار أنصار النظام السوفياتى من الروس لم يطيقوا احتمال هذا الحصار على العقل والوجدان، ولم يتحملوا هذه القيود الثقيلة على الأفكار والمشاعر . فكان «جوركى» وهو أحد الذين صنعوا الثورة الروسية، وأحد أبطالها العظماء، لا يطيق الحياة فى روسيا فى عصر «ستالين»، فكان يعيش مهاجرًا باختياره فى إيطاليا وغيرها من بلدان أوروبا ، وقد توفى سنة ١٩٣٦، ويقول البعض إنه مات مسمومًا بأيدى أجهزة «ستالين» السرية المخيفة، كل ذلك رغم أن «جوركى» لم يهاجم «ستالين»، ولم يدخل فى معركة مكشوفة ضده، ولكن لأنه كان أديبًا إنسانيًا من الدرجة الأولى، فإنه لم يطق ذلك الجو الخانق الذى خلقه «ستالين» فى روسيا السوفياتية، وآثر أن يعيش فى خارج روسيا، حتى يستنشق أنسام الحرية، ويستطيع أن يكتب ما يفيض به قلبه العامر بحب الإنسان والحنان على البشر، وهذا الموقف من جانب جوركى لم يكن مريحًا لشخصية «ستالين» ومن هنا نشأت شائعة قتله لجوركى بالسم.

وهناك نموذج آخر هو الشاعر الروسى «مايكوفسكى»، فقد كان هذا الشاعر العبقرى مؤمنًا بالاشتركية متعاطفًا مع النظام السوفياتى، ولكنه لم يكن يحب أن يكون «آلة» فى يد هذا النظام، ويبدو أنه لم يكن هو أيضًا راضيًا عن الطابع الإرهابى الدموى لشخصية ستالين وعصره المخيف. ومن هنا تعرض «مايكوفسكى» للحصار، وللنقد المرير، فانتهى به الأمر إلى

الاكتئاب الشديد، ثم الانتحار سنة ١٩٣٠ ، وكان فى السابعة والثلاثين من عمره إذ أنه من مواليد ١٨٩٣ ولم يعرف عصر «ستالين» أديبًا نابغًا، ولا شاعرًا متميزًا، رغم أن روسيا كانت قبل ثورة ١٩١٧ مليئة بالعباقرة والنابغين، ولا توجد صفحة أكثر إشراقًا وروعة من صفحة الأدب الروسى الذى هز الدنيا كلها فى الأعوام المائة السابقة على ثورة روسيا . ففى هذه الفترة السابقة على الثورة ظهرت عبقريات كبرى مثل: جوجول وبوشكين وتولستوى وتورجنيف ودستويفسكى وتشيكوف. بل إن جوركى نفسه ظهر ولمع وترك تأثيره على مجتمعه وعلى الأدب العالمى كله قبل الثورة الروسية. وعندما ظهر «ستالين» ، وبدأ تلميذه ومساعده الثقافى والأدبى «زدانوف» فى نشر آرائه الجامدة، وأفكاره الخاملة، انطفأت العبقرية الروسية فى الأدب والفن، وأصبحت مجرد ذكرى وتاريخ . فلا حياة للعبقرية الفنية والأدبية مع الطغيان أو فى ظل الطغاة [1] . ففى مثل هذه الظروف التى تمر بها الشعوب يسيطر الخوف على القلوب والعقول . والخوف عدو مبين للعباقرة والمبدعين فى كل المجالات. والخائف المرعوب لا يمكن أن يكون فنانًا حقيقيًا له بريق وتأثير، مهما كانت موهبة هذا الفنان ، ومهما كان نبوغه، فالموهبة والنبوغ يحتاجان إلى مناخ فيه قدر من الحرية والإنسانية وانعدام الضغوط القاسية الشرسة، مثلما كان يحدث فى عصر ستالين. وعندما يخفت صوت الفن والآداب فى مجتمع من المجتمعات، فإن ذلك يكون «إنذارًا» قويًا ، وإن كان خفيًا ، بأن هذا المجتمع سوف يتعرض إلى

---

(١) كان ستالين «١٨٧٩ - ١٩٥٣» لا يتردد فى استخدام العنف ضد من يخالفونه فى آرائه، ولم يكن أيضًا يتردد في استخدام العنف ضد الذين يشك فيهم، حتى لو لم يكن لديه دليل ثابت ضدهم، ويكفى أن نقرأ هذه الفقرة الواردة فى كتاب «الثائرون» تأليف الكاتب الإنجليزى «بريان كروزيير» ترجمة الأستاذ خيري حماد، حيث يقول المؤلف : عندما عارض الفلاحون الروس نظرية المزارع الجماعية فرض ستالين على خمسة ملايين منهم أن يموتوا جوعًا، وعندما كان فى طريق تثبيت دعائم سلطانه، وتحويل الاتحاد السوفييتى إلى بلد صناعى، كان يستخدم الملايين فى أعمال السخرة فى الصناعة، وعندما قام النازيون بغزو روسيا ، أرغم ستالين شعبًا من شعوب القوقاز على الرحيل إلى سيبيريا، لأن هذا الشعب كان على استعداد للتعاون مع النازيين، وفى عمليات التطهير الكبرى أعدم ستالين سبعة من رؤساء الجمهوريات المنضمة إلى الاتحاد السوفييتى وستة من رؤساء الوزراء.

كارثة كبيرة. لأن الأدب والفن هما تعبير عن أحلام الناس وعن نقدهم للواقع الذى يعيشون فيه ، والأحلام والنقد معًاوسيلتان أساسيتان لمعالجة مشاكل المجتمع فى الوقت المناسب ، وليس بعد فوات الأوان، والذين يغلقون أفواه الأدباء والفنانين، ويفرضون على أرواحهم ومشاعرهم وأفكارهم، نوعًا من الإرهاب يمنعهم من التعبير عما يحسون به فى صدق وأمانة ، إنما يقودون سفينة المجتمع إلى السير فى بحر الظلمات، دون «بوصلة» دقيقة توجه مسيرة هذه السفينة، وتنجو بها من الاصطدام بجبال الثلج، أو الضياع فى التيه الكبير، بحيث لا تعود قادرة على معرفة الهدف، أو اكتشاف طريق السلامة والأمان . فليس الأدب والفن ترفًا وزينة كم تصور «ستالين» ووزير ثقافته «زدانوف» ، بل هما تعبير عما يدور فى أعماق المجتمع من هواجس وهموم، ومن أنين وحنين، ومن رغبات كامنة لا يجوز «خنقها» ، لأن ذلك لابد أن يؤدى وإن طال الزمن إلى الانفجار.

وهذا ما فعله «ستالين» وتابعه «زدانوف» ، فقد ظنا أنهما يستطيعان أن يسحقا الأدباء والفنانين، بأقدامهما الغليظة الثقيلة، وأن إسكات أصوات الأدباء والفنانين لن يؤدى إلى أخطار كبيرة، لابد أن تظهر ، وإن تأخر هذا الظهور. وهذا هو ما حدث فى الاتحاد السوفياتى، الذى عندما انهار فى أوائل التسعينات من القرن العشرين لم يجد من يبكى عليه، لأن مشاعر الناس وأفكارهم الحقيقية كانت موضوعة تحت المراقبة والحصار القاسى الشديد، فظلت هذه المشاعر والأفكار تعمل فى جوف الأرض لجيلين أو ثلاثة أجيال ثم حدث الإنفجار الكبير الذى لم يستطع أحد أن يمنعه.

وتلك هى الحكمة الكبرى التى يمكن أن تخرج بها الإنسانية كلها من موقف الطغيان ضد الفن والأدب .

وهنا نصل إلى صفحة طريفة من تاريخ «ستالين» يسجلها شاعر «تشيلى» العالمى الكبير «بابلو نيرودا» فى مذكراته التى ترجمها من الإسبانية إلى العربية الأديب الفلسطينى الدكتور محمودصبح، وقد كان «نيرودا» متعاطفًا إلى أبعد الحدود مع الاتحاد السوفياتى، وكان من المخدوعين فى شخصية ستالين. ولكنه شعر بالألم الشديد عندما اكتشف

بعد رحيل «ستالين» أنه كان من أكثر طغاة التاريخ قسوة ودموية وعدوانًا على كرامة الإنسان، وحاول «نيرودا» ، وهو الشاعر العبقرى صاحب القلب الطيب الرحيم، أن يبحث عن شىء مشرق فى حياة ستالين، فوجد له هذه المواقف الصغيرة الثلاثة ، وفى مقدمة إشارته إلى هذه المواقف الثلاثة يقول «نيرودا» عن نفسه :

«إن كثيرًا من الناس قد اعتقدوا أنى سياسى مهم. ولست أدرى من أين خرجت هذه الأسطورة الشهيرة جداً . وذات مرة رأيت ، صدفة ، صورة صغيرة لى مثل صور طوابع البريد، فى مجلة «لايف» الأمريكية، فى تحقيق كتبته هذه المجلة عن قادة اليسار العالمى ، لقد بدت صورتى المحشورة بين صورة «ماوتسى تونج» وغيره من الزعماء اليساريين نوعًا من الفكاهة المسلية، ولم أحاول أن أوضح لقراء هذه المجلة شيئًا ، لأنى دائمًا كنت أكره رسائل الاستدراك التى يتم إرسالها إلى الصحف لتوضيح أمر أو آخر. كذلك كان شيئًا لطيفًا أن أترك وكالة المخابرات الأمريكية «سى . أى . إيه». على خطئها مع أن لها فى العالم خمسة ملايين من العملاء والمخبرين!

وبعد هذه المقدمة الطريفة يقول «نيرودا» إنه لم يتصل بأحد من كبار الزعماء اليساريين المعاصرين له وعلى رأسهم «ستالين»بالطبع، اتصالاً مباشرًا على الإطلاق . وفى سنة ١٩٥٢ وبمناسبة إعلان جوائز «ستالين» السنوية، قال أحد المندوبين السوفيات «لنيرودا» : «مبروك أيها السيد نيرودا، إن الرفيق ستالين عندما تم تقديم قائمة المرشحين للفوز بالجائزة إليه سرح متسائلاً : ولماذا اسم «نيرودا» ليس بين هذه الأسماء؟». وفى العام التالى ، أى سنة ١٩٥٣ ، وقبل وفاة «ستالين» بقليل يحصل نيرودا علي جائزة «ستالين» للسلام والصداقة بين الشعوب بأمر من طاغية موسكو.

هذا هو الموقف الأول الذى يذكره نيرودا لستالين . أما الموقف الثانى فيقول عنه:

«عرفت فى ذلك الوقت بتدخلات مشابهة لستالين، فحين اشتدت الحملة على «إيليا إهرنبورج» ، وكان أعداء هذا الأديب الكبير يطالبون برأسه، رن جرس «التليفون» ذات صباح فى منزل«إهرنبورج» وردت «لوبا» زوجة

«إهرنبورج» على التليفون، وسألها المتحدث : هل إهرنبورج موجود؟ فسألت الزوجة: من حضرتك ؟ فأجاب صاحب الصوت : أنا ستالين. فحملت الزوجة السماعة إلى زوجها وقالت له : هذا رجل يمزح. يريد التكلم معك. لكن حين أخذ «إهرنبورج» السماعة عرف على الفور أن «ستالين» هو الذى يتحدث، فقدكان صوت ستالين معروفاً للجميع ، وقال ستالين للكاتب : يا «إيليا» لقد قضيت الليلة وأنا أقرأ روايتك «سقوط باريس»، فأحببت أن أتصل بك كي أقول لك أن تظل مستمراً على كتابة مثل هذه الكتب المهمة جداً أيها العزيز إيليا إهرنبورج».

ثم يقول نيرودا :

«قد تكون هذه المكالمة التليفونية غير المتوقعة قد جعلت حياة الكاتب الأديب العظيم «إهرنبورج» تنجو وتطول».

هذا هو الموقف الثانى . أما الموقف الثالث فيقول عنه نيرودا :

«مثال آخر. كان الشاعر «مايكوفسكى» قد مات منتحراً ، لكن أعداءه الرجعيين العنيدين ظلوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنياب وسكاكين مصممين كل التصميم على محو اسم «مايكو فسكى» من خريطة الأدب السوفياتى. حينذاك حدث أمر أدى إلى تغيير كل ما دعا إليه وخطط له أعداء الشاعر الكبير المنتحر . لقد كتبت حبيبة الشاعر واسمها «ليلى بريك» رسالة إلى «ستالين» تشير فيها إلى أن هذه الهجمات على الشاعر مخجلة ونوع من أنواع العار الأخلاقى والأدبى ، ودافعت فى رسالتها بشكل مؤثر عن شعر «مايكوفسكى» . وكان المهاجمون للشاعر يظنون أنهم قد انتصروا بعد أن دفعوه إلى الانتحار، وأنهم قادرون على إطفاء سمعته وذكراه. فأصيبوا بخيبة أمل . لقد كتب ستالين على هامش رسالة «بريك» : «إن مايكوفسكى لهو أحسن شاعر فى العهد السوفياتى»

ثم يقول نيرودا :

«منذ تلك اللحظة تم بناء المتاحف وإقامة النصب التذكارية تكريماً للشاعر مايكوفسكى، وتكاثرت الطبعات الفاخرة لدواوين شعره المختلفة،وصمت المتربصون بالشاعر وذكراه أمام «نفخة» ستالين التى أفزعتهم».

لو تصورنا أن حياة «ستالين» مليئة بالمواقف والصفحات التى تدينه فإن هناك صفحات ومواقف قليلة محددة فيها شىء من الضوء ومنها الصفحات الثلاث التى أشار إليها نيرودا : وهى منح أكبر جائزة سوفياتية لشاعر مبدع مثل «نيرودا» ، وإنقاذ روائى مثل «إهرنبورج» من الدمار الذى كان ينتظره على أيدى نقاد الأدب الجامدين القساة فى عصر «ستالين»، والثالثة هى إنقاذ سمعة شاعر عبقرى هو «مايكوفسكي» بعد انتحاره، رغم أن «ستالين» لم يحاول أن ينقذ الشاعر نفسه عندما كان يتعرض للحقد والحسد فى حياته ، حتى انتهى به الأمر إلى التخلص من الحياة.

ولكن هذه المواقف الثلاثة الطيبة لا تنقذ سمعة «ستالين» بصورة كاملة ولا تعفيه من المسئولية، وتظل القاعدة الثابتة فى وجدان الإنسانية هى أن الطغيان يقتل الفنان . وأن قتل الفنان هو إنذار مبكر بانهيار المجتمع كله. وهذا هو ما حدث فى عصر «ستالين» ، وهو ما يحدث فى عصر أى طاغية.. فالأدب والفن يموتان.. ثم يسقط المجتمع كله بعد ذلك وينهار. وحتى هذه المواقف الطيبة التى أشار إليها «نيرودا» يمكن أن تكون إدانة لعصر «ستالين» وطغيانه، إذ أن تدخله فيها جاء بالصدفة ، وكان من الممكن ألا يحدث. ولو سلمنا بأن هذه المواقف كانت إيجابية فإنها لم تكن القاعدة ، إذ كانت القاعدة هى كتم الأصوات الموهوبة، وتكميم أفواه النابغين ، وتحويل الأدب والفن إلى شعارات تصدر بها تعليمات يرددها الجميع، وتكون صدى لصوت الطاغية [1] .

●●●

(١) عالجت هذا الموضوع نفسه بشىء من التفصيل فى كتاب سابق هو «قصة روايتين» منشورات دار الهلال سنة ٢٠٠١ واستعنت فى كتابى السابق أيضًا بما رواه نيرودا عن «ستالين وإهرنبرج» و«ستالين ومايكوفسكى».

بين الشاعر والسياسى

فى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٩٨ حلت الذكري الخامسة والعشرون لرحيل شاعر «تشيلى» العالمى بابلو نيرودا «١٩٠٤ - ١٩٧٣» .. ولا أدرى هل احتفلت بلاده بهذه الذكرى أم مرت عليها فى إهمال ونسيان؟. ولكن هذا الشاعر الكبير يستحق من الأوساط الأدبية فى العالم كله أن تذكره ولا تنساه، فقد كان فى حياته الحافلة بالأحداث موضع التقدير والتكريم، وكان داعية مخلصًا للإخاء الإنسانى، ومدافعًا صادقًا عن فقراء العالم فى كل مكان، ورغم أنه كان ينتمى إلى اليسار بصورة صريحة، فإن «جائزة نوبل» التى تكره اليسار واليساريين لم تستطع أن تتجاهل صوته الشعرى الإنسانى المؤثر، فنال هذه الجائزة سنة ١٩٧١، وكانت هذه الجائزة اعترافًا بالموهبة العالية لهذا الشاعر الإنسانى الكبير، وكانت دليلاً على أن «الإنسانية» حين تكون شعورًا أصيلاً فى قلب الفنان، فإنها تتغلب على كل المذاهب السياسية.. يسارية كانت هذه المذاهب أو كانت على اليمين. فنحن نقرأ شكسبير الآن ونرى فيه الإنسان، رغم أن شكسبير كان يكتب عن الملوك والأمراء والنبلاء والسادة، وقليلاً ما كان يكتب عن الفقراء والبسطاء والناس العاديين ولكن فن شكسبير كان يستمد جماله وعظمته من إنسانيته، إذ كان لا يتوقف فى أعماله الرائعة عند كيفية الوصول إلى السلطة أو الثروة والنفوذ، ولا كان يكتفى بالإشارة إلى مظاهر العز والترف التى كان أبطال مسرحياته يغرقون فيها إلى الأذنين، وإلى ما بعد الأذنين . بل كان شكسبير مهتمًا قبل كل شىء بعواطف القلب الإنسانى،وبقيت لنا منه تلك العواطف والعواصف التى تدور فى عقل الإنسان وقلبه وضميره. ورغم مرور ما يقرب من خمسمائة عام على رحيل شكسبير فإن أعماله تتجدد يومًابعد يوم كأنها مكتوبة فى أخر القرن العشرين أو أوائل القرن الواحد والعشرين ، فنحن نذكر من هذه الأعمال حب «أوفيليا» للأمير «هاملت» ، وهو حب يقترب من التصوف، وتصبح كلمة «العشق» أصدق فى وصفه من أية كلمة أخرى فى قواميس اللغة، ويصل هذا الحب- فى تصاعد موسيقى

عجيب- إلى الانفصال بصاحبته عن الواقع، أى أنه يصل بها إلى الجنون، ويقودها ذلك إلى الانتحار والتخلص من الحياة ، إذ لا قيمة للحياة مع عاطفة مشتعلة مضطربة قاتلة للعقل والإرادة والرؤية المعتدلة المتوازنة للأمور، وهى عاطفة لم يتحقق لها نصيبها من النجاح. وإلى جانب هذا النموذج الإنسانى العذب المأساوى فى «أوفيليا» والذى يعلن لكل العصور الماضية والآتية : أن الحياة بدون حب ناجح حقيقى يملأ النفس بالنشوة أفضل منها رفض الحياة بصورة نهائية .. إلى جانب هذه الشخصية العذبة التى تعطى للإنسانية كلها درسًا لا يمكن نسيانه فى ضرورة احترام الحب الصادق المخلص وضرورة تقديم العون له وعدم الوقوف فى طريقه ، نجد عند شكسبير تصويرًا هائلاً للشر فى شخصية «ياجو» ، ذلك الحاقد الحاسد صاحب العزيمة القوية والإرادة الجبارة والرغبة المشتعلة فى تدمير من وهبتهم الحياة نعمة السعادة والتوفيق فى حياتهم وعواطفهم. فشخصية «ياجو» فى مسرحية «عطيل» هى شخصية حاسد عظيم، وحاقد عظيم، ومنحط عظيم . والعظمة هنا ليست فى الأهداف النبيلة، أو المواقف الصادقة الباسلة، ولكنها تعنى الذكاء الشديد وحسن التخطيط للوصول إلى تحقيق الأهداف المدمرة، والصبر الطويل من أجل الوصول إلى «نشوة» التدمير للسعداء الناجحين فى هذه الحياة، ولكل أصحاب النوايا الطيبة والتى تمنع أصحابها من الشك فى الآخرين، حتى تقع الكارثة فيدركون ما فاتهم .. بعدفوات الأوان . ونستطيع أن نواصل تحليل أدب شكسبير «الأرستقرطى»«الملوكى» فى أزيائه وأشكاله الخارجية ، هو فى جوهره أدب إنسانى خالص، وهذاهو سر جماله وسر بقائه متألقًا إلى الآن،وإلى الغد. وموقف شاعر «تشيلى» العالمى المعاصر «بابلو نيرودا» هو موقف يختلف كل الاختلاف عن موقف شكسبير لأن «نيرودا» هو شاعر الفقراء والبسطاء، وهواه دائمًا مع هؤلاء ، ونشوته التى تحرك شاعريته الرائعة لا تتحقق إلا من رؤيته للشقاء ومتاعب الناس من أجل الرزق والعواطف الطيبة تجاه الأبناء والأحباء، فليس عند «نيرودا» فى قصائده الفياضة المتدفقة ملوك ولا أمراء ولا نبلاء ولا أرستقراطيون عظماء ، بل فى شعره ناس يعملون من شروق الشمس إلى الغروب، وفيه محبون يعشقون بعضهم البعض فى الهواء الطلق، ويحرصون على أن يشتركوا فى لقمة خبز واحدة، أو كوبين من

الشاى، أو جلسة تحت ظلال شجرة فى الطريق العام. ولكن هؤلاء الفقراء كانوا عند «نيرودا» هم الأمراء، وهم سادة الدنيا ، وهم منبع البهجة والسعادة، وهم أصل الحياة وأصل الجمال والشعر وسائر الفنون .ومع ذلك فنحن عندما نقرأ قصائد «نيرودا» نشعر أننا نسير فوق طريق مفروش بالحرير، وفيه ورد وريحان، وفيه عظمة الإنسان . لقد وجد «نيرودا» فى نماذجه الفقيرة البسيطة نفس الكنز الإنسانى الذي وجده شكسبير فى أمرائه ونبلائه ، ذلك أن الشاعرين الكبيرين كانا يتحركان على مسرح واحد هو مسرح القلب الإنسانى العامر بالعواطف والعواصف، والذى يقاوم متاعب الدنيا ويعمل - ربما دون جدوى - على حل لغز الحياة.

لا يمين إذن ولا يسار فى الأدب العظيم ، فمثل هذا الأدب هو أعلى من كل الاتجاهات المحدودة الضيقة، وهو يرتفع إلى الأجواء الإنسانية العامة، سواء أكان هذا الارتفاع العالى مستمدًا من شخصيات أرستقراطية أو شخصيات شعبية بسيطة . وهذا هو السبب فى أن قصائد «نيرودا» البسيطة السهلة استطاعت أن تتخطى كل الحواجز القوية ، وتصل إلى جائزة نوبل المتحفظة والأرستقراطية ، والتى تكره كل حرف من حروف كلمة «اليسار» ، وكان «نيرودا» «يتمخطر» ويتباهى بأنه يسارى ، وبأنه شاعر الفقراء ، وبأنه يحمل راية مكتوبًا عليها : المجد كل المجد للأكواخ وبيوت الصفيح، ولكل إنسان يعمل ويتصبب العرق من جبينه، والمجد للعشاق الذين لايعرفون من العشق سوى لمسة يد دافئة فى الطريق ، أو نظرة عين حانية على عين أخرى فوق مقعد فى حديقة عامة، أو على مقعد حجرى فى الشارع ، أو على باب متواضع فى المدينة أو فى القرية أو على شاطئ نهر أو حافة صحراء.

ومثل هذا الشاعر الذى سلم نفسه بالكامل لما يمكن أن نسميه «شعر الحياة» يبدو كل ما يكتبه شعرًا صافيًا ، حتى لو كان نثرًا أو كان مجرد ذكريات وملاحظات على تجارب مر بها، وشخصيات قابلها، وأماكن تنقل بينها كما تتنقل الفراشات من ضوء إلى ضوء ومن مصباح إلى مصباح.

وسوف أتوقف - فى هذا الفصل - أمام مذكرات «نيرودا» التى أتحفنا بترجمتهامن الأسبانية الأديب الفلسطيني المبدع الدكتور محمود صبح، وفى

رأيي أن هذه المذكرات النثرية الفاتنة هى «شعر من الشعر» أو هى «شعر مثل الشعر»، وسوف نتفق حول ما جاء فى هذه المذكرات أحيانًا ونختلف أحيانًا أخرى ، ولكننا سنكون بها - ونحن نقرؤها بقلوبنا قبل عيوننا - من المعجبين المحبين ، فهذه المذكرات التي جعل لها «نيرودا» عنوانًا عجيبًا هو : «أعترف أننى قدعشت» هى فى جوهرها ملاحظات «طفل برئ مندهش» حول الحياة والناس . ذلك أن «نيرودا» كان لا يكف عن الرحلة والتجوال فى أنحاء العالم، وكان مسكونًا بهاجس واحد هو التنقل المستمر من مكان إلى مكان كأنه يبحث عن شىء ضائع منه، كان يثق بأنه سوف يجده، ولكنه رحل عن دنيانا فى سبتمبر ١٩٧٣ دون أن يعثر عليه، وأتصور أنه كان يقول قبل أن يموت فى أحد مستشفيات عاصمة بلاده «سانتياجو»: سوف أجد هذا الشىء الضائع .. سوف أجد هذا الحلم الجميل.. سوف أجد ذلك الفردوس الأرضى الذى يعيش فيه جميع الناس سعداء وأحرارًا وعادلين!

وما أكثر ما يذكرنى «بابلو نيرودا» - مع فارق الزمن والفن والظروف - بشاعرنا أبى الطيب المتنبى .. فقد كان المتنبى أيضًا يتنقل فى قلق بين مكان ومكان، ويهرب من حاكم إلى حاكم أخر، أملاً فى أن يحصل على الاستقرار، ويمسك بذلك «السراب الأبدى» الذى يجرى وراءه - دون هوادة- كل الشعراء العظماء ، وهو سراب الفردوس الأرضى الذى يكون للفن فيه مكان، والذى يكون فيه للإنسان ضمان بالسعادة والراحة والرضا والحنان. ولم يجد المتنبى ما كان يحلم به وهو يتنقل على ظهور الجمال والخيول فى دنيا زمانه، حيث كان يقول عن نفسه إنه يعيش « .. على قلق، كأن الريح تحتى».. وما كان يفعله «المتنبى» منذ حوالى ألف عام هو ما كان يفعله «نيرودا» فى القرن العشرين مع فارق أساسى واحدهو أن المتنبى - بحكم القسوة الشائعة فى عصره - كان كثيرًا ما يركز على ذاته ويتحصن بالدفاع عن نفسه فى شعره، والتباهى بمظاهر نبوغه وعبقريته، ردًا على التحديات الكثيرة له فى العصر الذى كان يعيش فيه ، ولكن «نيرودا» لم يكن يميل إلى التباهى بعبقريته ونبوغه ولم يكن يميل مطلقًا إلى التركيز على نفسه، لأنه كان يعيش فى عصر آخر غير عصر المتنبى، وقد أتاح له

هذا العصر أن يندمج فى حياة الناس ويشعر بمحبتهم الدافئة، فلم يكن بحاجة إلى الدفاع عن نفسه.. إذ أن هذا الدفاع قد تولاه عنه كل المحبين له فى أنحاء الأرض .. وكانوا بالملايين.

ولكن «المتنبى» و«نيرودا» معًا كانا يشتركان فى أمور عديدة : فكانا يتنقلان بكثرة من مكان إلى مكان بحثًا عن الفردوس المفقود، الذى يأمن فيه الجميع ويسعد فيه الناس، وكانا معًا على قرب واتصال بأهل الحكم والسياسة فى عصريهما، لأنهما لم يكونا من المؤمنين بالعزلة والأبراج العاجية، بل كانا معًا من الخائضين لمعترك الحياة والراغبين فى تغيير الدنيا إلى الأجمل والأفضل، وكانا معًا يجذبهما «سراب» المثل الأعلى ، فيجريان وراءه على أمل واحد هو أن يكون السراب حقيقة وليس وهمًا من الأوهام، وقد انتهيا معًا مقتولين، وإن كانت نهاية الشاعرين لا تزال غامضة إلى الآن، فالمتنبى ذبحه أعداؤه الكثيرون فى مكان ما بالعراق، أما نيرودا، فقدمات فى أحد المستشفيات أثناء انقلاب عسكرى فى بلاده «تشيلى» ، وقيل إنه مات مقتولاً على يد الانقلابيين الذين كانوا يعلمون أنه ضدهم، وأنه خطر كبير عليهم ،وهذا القول بأنه مات مقتولاً يبدو أقرب إلى الحقيقة من القول بأنه مات ميتة طبيعية بسبب المرض. فكل الملابسات والظروف ترجح قتل «نيرودا» على يد العسكريين الذين كانوا يكرهونه ويخافون منه، ومن سمعته العالمية الكبيرة، ومن تأثيره غير المحدود على المواطنين فى بلاده.

ونعود إلى «مذكرات نيرودا» ونتوقف فيها أمام بعض صفحاتها، حيث نجد فيها ملاحظات دقيقة لا تصدر إلا عن شاعر حساس، وفيها تأكيد لنا بأن أى فنان كبير مبدع لا يمكن أن يكون موضع الرضا النهائى من السياسيين وأصحاب السلطان والنفوذ، لأن مثل هذا الفنان يثير القلق ويحرض على التفكير ونقد الحياة والواقع، بينمايريد السياسيون، حتى لو كانوا من العادلين الصادقين، أن تستقر الأمور ويهدأ الناس، ويسير المجتمع فى طرق منظمة هادئة دقيقة، ليس فيها قلق ولا مطالبة بتغيير سريع. وفى جزء من مذكرات نيرودا يحدثنا الشاعر الكبير عن صورة العالم كما يتمناه ويحلم به، وهى صورة جميلة صادقة لا تختلف فى شىء عن قصائد «نيرودا» حيث يقول:

«إنى أريد أن أحيا فى عالم بلا محرومين ولا مطرودين. إنى أرغب فى أن أعيش فى عالم يكون فيه البشر بشراً ، دون أية ألقاب ولا نعوت إلا أن يكون المرء إنساناً من غير أن يلتصق برأسه شىء، لا إعلان ولا قاعدة ولا كلمة، أريد أن يكون فى إمكان الإنسان أن يفعل ما يشاء.. أن يدخل إلى المعابدكلها، أن يدخل إلى المطابع جميعها. أريد ألايكون هناك انتظار لأحد عند بوابات المبانى الرسمية كى يعتقلوه أو يطردوه بعد اليوم».

«لا أريد لأحد أن يهرب متخفيًا فوق ظهر سفين. لا أريد لأحد أن يتعرض للمطاردة بدراجات نارية، أريد للناس كلهم أن يستطيعوا الكلام والقراءة والاستماع والإزدهار. لم أفهم أبداً الصراع إلا على أنه الصراع فى سبيل القضاء على الصراع . لم أفهم قط العنف إلا كى ينتهى العنف إلى الأبد. لقد اتخذت لى طريقاً لأننى أعتقد أن هذا الطريق سيؤدى بنا جميعًا إلى هذه المحبة الدائمة. إنى أناضل فى سبيل هذه الطيبة الكلية الشاملة اللامتناهية. من بين حوادث جرت لى وحوادث أخرى ما جرت لى ولكنها جرت لآخرين لم يستطعوا روايتها لنا، خرجت وأنا أؤمن إيماناً مطلقاً بالمصير الإنسانى، وعندى يقين تام بأننا نقترب من عهد الحنان الكبير العظيم . إنى لأكتب وأنا أعلم أن فوق رؤوسنا جميعًا يحوم خطر القنبلة الذرية الساحق، والذى لن يبقى فى الأرض شيئاً ولا أحداً . ولكن هذا كله لن يبدد آمالى وأحلامى. إننى لأعرف فى رعشة الاحتضار التى يعيش فيها عالمنا أنه لابد أن يدخل النور إلى العيون الساهمة. سنتفاهم جميعًا سنتقدم معًا. وهذا الأمل هو يقينى الوحيد».

بمثل هذه الكلمات التى تنبض بالشعر واللطف والعذوبة والإنسانية يتحدث «نيرودا» عن أحلامه، وعما يتمناه ويكافح من أجله فى هذه الدنيا. ولعل هذه الأفكار المليئة بالقوة الروحية هى التى دفعته دفعًا إلى أن يخوض بحار السياسة، فإذا كان الشعراء من أمثاله هم الذين يحلمون بمستقبل طيب للإنسانية ويعبرون عن هموم الناس، فإن السياسيين هم الذين يملكون القرار العملى المؤثر على الواقع. ولم يشأ «نيرودا» أن يبقى على الهامش: منشدًا متفرجًا ينادى من بعيد بالمبادئ الإنسانية العادلة، بل دخل بنواياه الطيبة معترك السياسة، فتعرض للسجن والنفى والتشريدوالصدمات

المختلفة، ولا شك أنه كان فنانًا كبيرًا ولكنه كان سياسيًا لايخلو من السذاجة. فالشاعر الحقيقى لا يعرف المناورة مع مشاعره وأفكاره ونبضات قلبه. أما السياسى فإنه يناور كثيرًا ويعتبر المناورة من الوسائل المشروعة. والشاعر لا يضع قيدًا على عواطفه بل يطلق لها حرية الطيران والتنقل مثل العصافير، أما السياسى فعليه أن يضبط عواطفه ويتحكم فيها ويسيطر على أية نيران تشتعل فى داخله. ولعل هذا التناقض بين الشاعر والسياسى هو الذى يفسر لنا ما جاء فى مذكرات «نيرودا» ، إذ أن «نيرودا» المشتعل الصريح فى عواطفه فوجئ ببرود الزعيم الهندى الكبير «نهرو» وهدوئه وعدم ميله إلى أى حديث مفتوح عندما قام «نيرودا» بزيارته فى مكتبه، وهو رئيس لوزراء الهند ، والواقع أن هذا اللقاءبين «نيرودا» و«نهرو» هو نموذج حى لأى لقاء بين الشعر والسياسة، فالشاعر منطلق والسياسة مقيدة، والشعر حر، والسياسة محاطة بالأسوار والأشواك، وهو ما لم يتقبله «نيرودا» ، فهو يريد من السياسيين أن يكونوا شعراء. وهذا أمر لا يمكن تحقيقه ولا تصوره. وحتى لو كان السياسيون شعراء فى أعماقهم فإن عليهم أن يقيدوا شاعريتهم ولايطلقوها، وإلا فسدت الأمور بين أيديهم. وذلك أمر لم يفهمه نيرودا، ولم يتقبله عندما التقى بالزعيم «نهرو» وهو يحكى قصة هذا اللقاء فيقول فى مذكراته :

«كان «نهرو»قد حدد لى موعداً لأقابله فى مقر الحكومة فى مكتبه . وقف ومد لى يده دون أية ابتسامة من ترحيب وتكريم . كانت عيناه داكنتين باردتين من غير عاطفة ولا شعور . قبل ثلاثين سنة قدمونى إليه وإلى أبيه فى اجتماع حاشد من أجل استقلال الهند، وعندما أشرت إلى هذا اللقاء القديم لم تتغير ملامحه أبداً ، وكن يجيب عن كل ما كنت أقوله فى مقاطع قصيرة من الكلام ذات حرف أو حرفين ، وهو يرقبنى بنظرته الباردة الجامدة الثابتة . ناولته رسالة صديقه وصديقى العالم الفرنسى «جوليو كورى» (١) ، فقال لى بأنه يشعر تجاه هذا العالم بالاحترام والتقدير، ثم قرأ الرسالة التى كانت توصى «نهرو» بى ، إذ أننى قادم إلى الهند للاتصال بأنصار السلام، وهى حركة كان يرأسها العالم الفرنسى نفسه فى ذلك

(١) جوليو كورى ١٩٠٠–١٩٥٨» عالم فرنسى كبير فى حقل «النشاط الإشعاعى» نال مع زوجته «إيرين كورى» جائزة نوبل فى الكيمياء سنة ١٩٣٥ .

الوقت. قرأ نهرو الرسالة فى رصانة . انتهى من قراءتها وأدخلها من جديد فى مظروفها، ونظر إلى دون أن يقول لى شيئًا ، أحسست أن حضورى يسبب لنهرو إشمئزازاً لا يستطيع مقاومته. مر فى ذهنى خاطر سريع يقول لى إن هذا الرجل ذا اللون الأصفر الشاحب لابد أنه يمر بحالة صحية سيئة أو حالة سياسية مزعجة أو وضع نفسى يعانى من الضيق والأزمة. كان فى سلوكه بعض التشامخ وشىء من التكبر والعجرفة، وهو شخص معتاد على أن يكون آمرًا ناهيًا دون أن يكون له شىء من هيبة القائد. كان «نهرو» سليل جنس قديم من السادة، وكان يرمقنى فى أحتقار ولامبالاة كما لو كان ينظر إلى فلاح يمشى عاريًا وحافى القدمين.

«سألت نهرو: ماذا أقول للأستاذ «جوليو كورى» ردًا على رسالته إليكم عندما أعود إلى باريس؟ ورد «نهرو» على سؤالى فى جفاف: سأجيب على رسالته ، أحتفظت بالسكوت والصمت خلال بعض دقائق بدت لى دهرًا ، كان يبدو لى أن نهرو ليست عنده أية رغبة فى أن يقول لى شيئًا ، ولكننى لم أظهر أى تململ أو عدم صبر، كما لو أنى كنت أستطيع البقاء هناك جالسًا إلى الأبد بدون أى غرض ولا هدف، يملؤنى شعور بأننى أضيع وقت رجل عظيم جداً ومهم إلى أقصى حد».

أعتبرت أنه لابد لى أن أقول له بضع كلمات عن مهمتى، فتحدثت عن الحرب الباردة وتهديدها بأن تصبح حربًا ساخنة فى أية لحظة، وأن هاوية جديدة قد تبتلع الإنسانية . وتكلمت عن خطر الأسلحة الذرية الرهيبة، وعن أهمية أن يتكتل جميع الذى يريدون تجنب الحرب الذرية أو أكثريتهم على الأقل. واستمر «نهرو» فى تأمله وإطراقه الفكرى كأنه لم يسمع منى شيئًا . بعد انتهاء دقائق من الصمت قال: إن الذى يحدث هو أن كتلتين سياسيتين تتصارعان بحجة الدفاع عن السلام. وعلقت أنا على ذلك بكلمات قلت فيها : «إننا نحن دعاة السلام لا نريد إقصاء أحد ما عدا أنصار الحرب ودعاة الانتقام». وساد الصمت بيننا من جديد ، فأدركت أن الحديث قد انتهى فوقفت ومددت له يدى مودعًا فصافحنى فى سكون. حيث كنت أتوجه نحو الباب سألنى فى شىء من الود : ماذا أستطيع أن أعمل فى

سبيل حضرتك؟ ألا أستطيع أن أقدم لحضرتك شيئًا ؟.. أنا عادة بليد فى الإجابة، غير سريع الخاطر ، وغير مستعد بأى خبث أو مكر، ولكننى للمرة الوحيدة فى حياتى استفدت من تلك الفرصة السانحة فقلت : طبعًا .. لقد نسيت .. فعلى الرغم من أننى جئت سابقًا إلى الهند فإنى لم تسنح لى فرصة زيارة «تاج محل» القريب جداً من «نيودلهى». كان من الممكن أن تكون هذه هى الفرصة المناسبة لزيارة هذا الأثر التاريخى الرائع لولا أن الشرطة الهندية أخبرتنى إنى لا أستطيع مغادرة العاصمة، وأن على أن أعود إلى أوروبا فى أسرع وقت ممكن، ولهذا فإنى سأرحل غداً».

«كنت أشعر بالفرح لأنى رشقت نهرو بسهم، وأشرت إلى سوء معاملة الشرطة الهندية لى . ثم حييت نهرو فى خفة وغادرت مكتبة وفى قاعة الاستقبال بالفندق كان مدير الفندق ينتظرنى وقال لى : عندى رسالة لحضرتك .. رسالة شفهية . لقد اتصلت بى الحكومة هاتفيًا وأخبرتنى أن حضرتك تستطيع زيارة «تاج محل» حين يطيب لحضرتك. فقلت له : إني أسف لعدم قدرتى على القيام بهذه الزيارة . فإنى سأتوجه الآن إلى المطار كى آخذ أول طائرة تقلنى إلى باريس».

تلك هى قصة اللقاء بين الشاعر «نيرودا» والزعيم «نهرو» كما رواها الشاعر فى مذكراته. وهي قصة فيها طرافة ومرارة . وفيها يرسم لنا الشاعر العالمى صورة سلبية للزعيم «نهرو». ولعلنا ندرك من هذه الصورة شيئًا من جوهر التناقض بين الشعر والسياسة، وهو الأمر الذى لم يعترف به «نيرودا» أبدًا، مما دفعه إلى الخوض فى عالم السياسة الصعب بنفسية شاعر مفتوح القلب، يريد أن يحتضن الحياة والناس . وهذاخطأ يقع فيه الشعراء الذين يقتربون من السياسيين ويعملون بالسياسة ، ولذلك فإن نيرودا نفسه يقول فى مذكراته :

«هكذا كان حظى وهكذا كانت حياتى كلها على الدوام: يد تلطمنى على خدى وضلوعى ، ويد تقدم لى باقة ورد كى أغفر ما أتعرض له من ظلم وإساءة».

ولا شك أن الصورة السلبية التى رسمها«نيرودا» للزعيم «نهرو» ليست عادلة، وأن «نهرو» كان فى تاريخه ومواقفه وصورته الإنسانية التى كتب

عنهـا الكثيـرون أفضل من تلك الصورة السلبيـة التي رسـمهـا «نيـرودا» .

والخطأ هنا يكمن فيما ينبغى أن يتعلمه كل الشعراء.. وهو ضرورة الابتعاد بمسافة كافية عن السياسة، فالشعر والسياسة لا يلتقيان فى الوسائل والأساليب، وإن كان من الممكن أن يلتقيا فى الأهداف والمبادئ. ولكننا لو حاولنا إقناع شاعر مثل «نيرودا» بالابتعاد عن السياسة لما نجحنا فى ذلك. لأن «نيرودا» كان يريد أن يكون مؤثرًا فى مجرى الأحداث، قادرًا على تغيير الأمور لصالح ما يؤمن به من محبة الإنسان، والرغبة فى سعادته ، ولم يكن «نيرودا» يرضى لنفسه أن يكون مجردمطرب يغنى لأحلامه وأمانيه ويرجو لها أن تتحقق.. لقد اندفع بموهبته وشعره القوى الصافى إلى المعارك السياسية فى بلاده بل وفى العالم كله.. وقد جنى من ذلك - كم يقول- كثيرًا من اللطمات على خده وكثيرًا من باقات الورود أيضًا .. أى أنه تلقى جزاءه من أصحاب السلطان على تهوره وجرأته، ونال من جماهير الناس مكافأة هى المحبة والإعجاب.. وبقى لنا منه أشعاره السهلة العظيمة .. ثم بقى لنا ذلك الدرس الذى أشرنا إليه والذى يستحق منا ألا ننساه ، وهو ضرورة إيجاد مسافة كافية بين الشعراء والسياسيين حتى لا يحدث الصدام، ويتعرض الشعراء لكثير من الأذى وكثير من الجراح، كما حدث للمتنبى فى الماضى، وكماحدث مع «نيرودا» فى العصر الحاضر .. بسبب إصرار الشاعرين العظيمين على أن يقفا جنبًا إلى جنب مع السياسيين وأصحب السلطان.. أو كما يقول المتنبى :

وفـؤادى مـن الـمـلـوك وإن

كان لسانى يرى من الشعـراء

وهو موقف لابد أن يؤدى إلى الآلام والمتاعب .. إذ يجب على الشعراء - بل وكل الأدباء والفنانين - أن يبتعدوا بمسافة كافية عن السياسة والسياسيين.

●●●

قسطنطين كفافى

(١٨٦٣ - ١٩٣٣)

الإسكندرانى الجميل

هو واحد من أجمل شعراء الدنيا وأكثرهم بساطة وإنسانية ، تشعر وأنت معه كأنك فى صحبة صديق حميم يتحدث إليك من قلبه، وهو حين يتحدث إليك فكأنه يعتذر لك، لأنه من شدة لطفه وعذوبته لا يحب أبدًا أن يجرح مشاعر الآخرين. عندما تقرأ قصائده تحس أنك جالس فى غرفة جميلة، فى ليلة من ليالى الشتاء،وفى هذه الغرفة مدفأة، وفى أرجائهاتنساب موسيقى هادئة، كلماته هامسة كأنها أحاديث حبيبين يتبادلان أسرار الهوى فى حنان. عاش سبعين سنة ولم يكتب أكثر من مائتى قصيدة، وقد رفض الاعتراف بثلث هذه القصائدوأوصى بعدم نشرها بعد رحيله ، وقصائده كلها قصيرة،شديدة التركيز، عاش مع أمه حتى ماتت وكان فى السادسة والثلاثين، ثم استقل بنفسه وعاش فى سكن خاص به، وحرص على أن يكون غاية فى البساطة والجمال . كانت علاقته بأمه قوية حميمة، وكان يدللها وتدلله، فيناديها باسم «الست السمينة» وتناديه باسم «الولد النحيل».

عشق الإسكندرية وشوارعها ومقاهيها وأحياءهاالشعبية، وكان متيمًا بسحر لياليها، فقضى أحلى أيامه فيها، وولد فيها ودفن فى ترابها، وكانت ثقافته «إسكندرانية»، فقدعكف على دراسة تاريخ الإسكندرية منذ أنشأها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد وحتى القرن العشرين. وامتلأت قصائده بمواقف مختارة من تاريخ الإسكندرية، فالأسكندرية بأهلها وأحداثهاهى منبع شعره ، وهى القوة الروحية التى تتدفق فيه. ولذلك فعندما قام الفنان الكبير محمد ناجى برسم لوحته الخالدة للإسكندرية جعل وجه هذا الشاعر جزءًا من معالم المدينة، مثله مثل المنارة وغيرها من ملامح الإسكندرية الأساسية .

كان ساخرًا يأخذ أمور الحياة اليومية بالحيلة الطريفة والفكاهة

السريعة، ولكنه يأخذ أمور الفن بمنتهى الجدية ، فإن لجأ فى فنه إلى السخرية فهى السخرية العميقة العالية التى تنفذ إلى أعماق العقل والروح.

كان يكره الكهرباء ويحب الشموع . يضىء لنفسه شمعة، فإذا زاره زائر أضاء شمعة أخرى وقضى مع صاحبه ليلته على ضوء شمعتين. وذلك لأنه كان من أكبر الدعاة فى العصر الحديث للعودة إلى البساطة، ففى البساطة وحدها تكمن سعادة الإنسان وتزداد عنايته بنفسه والآخرين، أما التعقيد الهائل السائد فى الحضارة الحديثة فهو إجهاد للروح وتعذيب للناس وتكليف للنفوس بغير ما يعود عليها بالرضا وراحة البال.

هو الشاعر اليونانى الإسكندرانى الجميل «قسطنطين كفافى» ولد فى أبريل ومات فى أبريل، فكأنه كان «وهمًا» أو «أكذوبة» من الأكاذيب التى يخترعها الناس للترفيه عن نفوسهم فى شهر الأكاذيب البيضاء . والحق أن كلمة «الأكذوبة» لا تليق به، فهو طيف أوحلم، وهو نسمة من نسمات البحر الإسكندارنى ، نحس بها ولا نستطيع أن نمسكها بأيدينا، فهى وهم وحقيقة فى وقت واحد، ولم يكن «كفافى» أبدًا من الأكاذيب حتى لو كانت هذه الأكاذيب بريئة وبيضاء.

ولد «كفافى» فى أبريل سنة ١٨٦٣ ومات فى أبريل سنة ١٩٣٣ ، وكان ميلاده فى بيت اشتراه أبوه من أسرة «زيزينيا» المشهورة فى الأسكندرية والتى لها حى يحمل اسمها حتى اليوم ومات ودفن فى مقابر اليونانيين بالشاطبى ، وله الآن متحف خاص به فى الإسكندرية .

زاره وتعرف عليه كثيرون من أدباء العالم، وكان منهم الروائى الإنجليزى «إدوارد فورستر ٢٨٧٩ - ١٩٧٠» صاحب الرواية المشهورة «طريق إلى الهند»، وكان «فورستر» أول من تحدث عنه إلى الأوروبيين، وترجم بعض أشعاره إلى الإنجليزية . كما كتب عنه الروائى المعروف «لورانس داريل» فى روايته الشهيرة «رباعية الإسكندرية» وجعله بطلاً من أبطال الرواية وكان يسميه باسم «شاعر المدينة الشيخ».

ونتوقف هنا أمام سيرة هذا الشاعر وبعض ملامح حياته ومصادرنا الأساسية فى ذلك كتاب بديع للناقد والروائى الإنجليزى «روبرت ليدل» صدر فى لندن سنة ١٩٧٤، وله ترجمة عربية شديدة الإيجاز والاختصار

قام بها الأديب والمثقف المصرى الراحل «محمد عبد الله الشفقى» وقد استفدت منها أيضًا .

كلمة «كفافى» تعود إلى أصل تركى ومعناها «الإسكافى»، ولم أجد فيما قرأت ما يدلنى على سبب إطلاق هذا الاسم على أسرة الشاعر، رغم أنها كانت أسرة من التجار، وكان والد الشاعر واسمه «بطرس كفافى» قد ورث مهنة التجارة من آبائه وأجداده، أما أمه فأسمها «هاركليا» وكانت ابنة لتاجر من تجار «الماس» وقد تزوجت فى سن الرابعة عشرة واستقرت هذه الأسرة اليونانية فى مدينة الإسكندرية حوالى ١٨٥٥ ، وأصبح الأب من كبار تجار مصر، «فقد جعل من الطابق الأرضى للقصر الذى اشتراه فى حى «زيزينيا »مقرًا لشركته، وفتح فرعًا لتجارة الغلال فى المنيا، وأنشأ مصنعًا لحلج القطن فى كفر الزيات،وكان له مصنع آخر عند بورصة مينا البصل فى الإسكندرية، كما فتح مكتبًا لشركته فى حى الموسكى بالقاهرة».

وفى الأسكندرية ولد شاعرنا قسطنطين كفافي وكان التاسع والأخير بين إخوته ، وكانوا جميعًا من الأولاد باستثناء بنت واحدة اسمها «هيلين» ماتت فى عامها الأول، وكانت الأم تتمنى - إلى حد الهوس والجنون - أن تكون لها ابنة، وعندما فقدت ابنتها الوحيدة حزنت عليها أشد الحزن ، وركزت اهتمامها على ابنها الأصغر وهو الشاعر «كفافى» ، وبسبب حزنها على ابنتها الوحيدة الراحلة، تصرفت مع ابنها الأخير تصرفًا شاذًا وعجيبًا ، فكانت تلبسه ملابس الفتيات وتترك شعره طويلاً حتى يصبح مثل شعر البنت،ولو استطاعت هذه الأم أن تجعل من ابنها بنتًا كاملة لفعلت، فقد كان حنينها لأن يكون لها بنت حنينًا جارفًا أفقدها حسن التدبير والتصرف، وكان لهذه التربية الأولى أثر سيئ على حياة الشاعر ونفسيته عانى منها طول حياته، فلم يتزوج، وظل متعلقًا بصورة أمه حتى بعد رحيلها .

ويحدثنا «روبرت ليدل» مؤرخ حياة الشاعر فيقول فى كتابه «سيرة نقدية لحياة كفافي» صفحة ٢٤ ما خلاصته أن أم الشاعر كانت مشهورة بأنها من أجمل نساء الأسكندرية فى عصرها، وإن كان من الصعب تصديق ذلك، لأن صورها تدل على أنها كانت «بدينة» ، وكانت ملامحها - فى الصورة- تدل على جمال عادى غير فاتن ولا أخاذ، وإن كان ذلك كله لا يمنع أن تكون

فى عصرها وفى مجتمع شرقى مثل مجتمع الإسكندرية امرأة جذابة لافتة للنظر، فلم تكن «البدانة» فى عيون الشرقيين فى تلك الأيام عيبًا من عيوب الجمال،ولذلك كان الناس يتجمعون ليتطلعواإلى هذه السيدة فى إعجاب شديد عندما تخرج من منزلها لتركب عربتها «الحنطور» مع سائقها الإيطالى ووصيفتها المصرية ، وكان «كفافى» يقول أنه نادرًا ما رأى أمه تمشى على قدميها خارج المنزل وكان سعيد باشا حاكم مصر فى ذلك الوقت صديقًا لهذه الأسرة اليونانية، وكان يحرص على دعوتها للمشاركة فى كل حفلاته الرسمية وكثيرًاما كان «يقدم ذراعه» للأم فى هذه الحفلات لتستند عليها، وهو نوع من الشرف الرفيع فى مجتمع ذلك الزمان، ثم جاء الخديوى إسماعيل بعدسعيد باشا،وكان إسماعيل صديقًا لوالد الشاعر، وقد منحه «الوسام المجيدى» بمناسبة افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩.

وفى سنة ١٨٧٠ يموت الأب وكان الشاعر طفلاً فى السابعة، وتكتشف الأسرة اكتشافًا مؤلمًا ، فقد بدد الأب ثروته ، ولم يترك لأسرته شيئًا له قيمة، فقد كان رجلاً مسرفًا محبًا للحياة والمظاهر،ولم يحسب للمستقبل أى حساب، وظن أن الرخاء سوف يدوم، ويقال أنه كان ينفق فى العام الواحد أربعة آلاف جنيه،وهو مبلغ ضخم جدًا فى ذلك العصر، أى منذ أكثر من مائة وثلاثين سنة،وتضطرب أحوال الأسرة اضطرابًا شديدًا بعد موت الأب، وتنحدر أحوالهاإلى الفقر بعدالثراء والرخاء، ولا تعود أبدًا إلى أيام الهناء القديمة،وتنتقل بين إنجلترا وتركيا، وتبتعد عن الأسكندرية بعدقيام الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ ، فقد اختار كثير من الأجانب ، ومنهم أسرة الشاعر، مغادرة الأسكندرية التى كانت مسرحًا للأحداث العنيفة الأولى فى الثورة العرابية، ولكن الأسرة تعود إلى الإسكندرية مرة أخرى سنة ١٨٨٥، حيث يبقى فيها الشاعر حتى وفاته سنة ١٩٣٣، فلم يخرج منها إلا فى فترات قليلة متفرقة.

تغيرت الدنيا، وتغيرت الإسكندرية بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر، وتغيرت أحوال أسرة الشاعر. واضطر «كفافى»إلى الكدح من أجل البقاء فى الإسكندرية، مدينته المحبوبة التى كان لا يقوى على فراقها أبدآ، واتجه

«كفافى» إلى البحث عن عمل حكومى يساعده على الحياة ، بعدأن خسرت الأسرة ثروتهاوأصبحت مواردها الاقتصادية قليلة ومحدودة،وضعفت منزلتها الاجتماعية بعد رحيل الأب وضياع الثروة.

وفى سنة ١٨٨٩ استطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة فى وزارة الرى المصرية بفرعها فى الإسكندرية، وكتب مدير الرى بالأسكندرية رسالة إلى رئيسه يطلب تعيين «كفافى موظفًا بالمكتب بدلاً من «سليم أفندى إبراهيم» الذى أحيل إلى المعاش، وفى طلب التعيين يقول مدير المكتب وهو إنجليزى:

«إن كفافى يونانى المولد إنجليزى الجنسية، وهو من أسرة إسكندرانية محترمة جدًا، كما أنه شديد الذكاء، وخطه جميل، ويعرف اليونانية والفرنسية والإيطالية بالإضافة إلى الإنجليزية، كما أنه يتكلم العربية وإن كان لا يكتبها ولا يقرأ بها، وهو مفيد جدً فى هذا العمل».

ومن الطريف أن «ليدل» مؤرخ حياة الشاعر «كفافى يسجل لنا فى كتبه شهادة عن «الشاعر فى الوظيفة» وهذه الشهادة أدلى بها موظف مصرى كان يعمل تحت رئاسة «كفافى» اسمه إبراهيم النجار وكان هذا الموظف لا يعرف شيئًا عن «كفافى سوى أنه موظف - مثله - فى وزارة الرى ، ولم يكن يعرف أنه شاعر وفنان ، ولذلك جاءت ملاحظاته كلها ملاحظات وظيفية، وتدلنا هذه الملاحظات من جانب الموظف المصرى، على أن هذا الموظف لم يفهم أبدًا روح السخرية والفكاهة عند كفافى، وكان يأخذ تصرفاته المرحة الضاحكة على أنها تصرفات جدية. ومن ناحية أخرى تدلنا هذه الملاحظات على بساطة الشاعر وحرصه فى المسائل المادية بعد ما تعرض له من اضطراب وخسارة.

يقول «إبراهيم النجار» زميل «كفافى» فى وزارة الرى:

«إن كفافى كان متكبرًا على مرؤوسيه، ولكنه كان يخشى رؤساءه الإنجليز، وكان دقيقًا فى عمله إلى حد الوسوسة، ولما كان مسئولاً عن التقارير التى يتم كتابتها بالإنجليزية، فإنه من شدة حرصه على الإتقان والدقة كان يراجع تقاريره بعناية، وكان يعيد كتابتها أحيانًا أكثر من ثلاث مرات. وكان «كفافى» - بحكم أنه رئيس لاثنين من الموظفين- يجلس وحده فى مكتب خاص به، ويحب أن يغلق مكتبه على نفسه».

ثم يقول «إبراهيم النجار»:

كنت أنا وزميلى نختلس النظر من ثقب باب مكتب «كفافى» لنرى ماذا يفعل عندما يغلق المكتب على نفسه، وكنا نندهش كثيرًا عندما نجد «كفافى» يرفع ذراعيه إلى أعلى وكأنه يقوم بالتمثيل وكنا نلاحظ أن وجهه يكتسى بتعبيرات مثيرة، وكان يبدو لنا فى هذه الحالة وكأنه مجنون يكلم نفسه، ثم بعد ذلك نلاحظ أنه يكتب شيئًا على الورق» ولم نكن نعرف مطلقًا أنه شاعر، وأنه سوف يصبح مشهورًا جدًا،ولذلك بدت لنا تصرفاته عجيبة ومثيرة للدهشة».

ويواصل موظف الرى «إبراهيم النجار» وصف الحياة الوظيفية للشاعر «كفافى» فيقول إنه بقدر ما كان دقيقًا فى كتابة تقاريره لم يكن دقيقًا فى التزامه بالمواعيد، وكثيرًا ما كان يخرج أثناء العمل، ولشدة خوفه من رؤسائه الإنجليز كان يوصينا بأن نقول - إذا سأل أحد عنه- أنه سوف يعود بعد نصف ساعة.

ثم يقول إبراهيم النجار:

إن كفافى كان من الناحية المادية حريصا بل كان بخيلاً. وكان يقوم بتقسيم السيجارة الواحدة إلى نصفين ربما لأسباب صحية، وربما كان يفعل ذلك من باب البخل، ثم يرسم «النجار» صورة طريفة أخرى لكفافى فى تصرفاته اليومية فيقول: إن الميرغنى خادم كفافى كان يأتى له فى مكتبه بالدجاجة التى سوف يشتريها، ليفحصها بنفسه قبل شرائها ،فيتناولها كفافى ويقلبها بعناية، وحين يقع اختيار كفافى على الدجاجة فإنه ينتزع منها بعض ريشها حتى يضمن أن خادمه لن يذهب إلى السوق ويغيرها بواحدة أخرى أرخص منها وأقل ثمنًا !!

هذه هى الصورة الطريفة للشاعر فى الوظيفة، نستطيع أن نضحك منه كما نحب، ولكنها فى الحقيقة لا تدل على شىء من شخصيته الإنسانية الصحيحة، والتى لم يستطع «إبراهيم النجار» زميل الشاعر فى الوظيفة أن يري منها شيئًا على الإطلاق ، وهذه الصورة تدل على روح الفكاهة والسخرية عند الشاعر، وتدل من جانب آخر على حرصه المادى بسبب ضعف موارده،ولا تدل على البخل كما يقول النجار، وقد كانت الوظيفة التى

يشغلها الشاعر متواضعة وبسيطة، وكان يعيش على دخله من هذه الوظيفة والذى أرتفع من سبعة جنيهات إلى ثلاثين جنيهًا ، بالإضافة إلى دخل آخر كان يأتيه من عمله المتقطع مع أخيه كسمسار فى بورصة الإسكندرية، وقد كان زملاء كفافى فى المكتب لا يرون فيه إلا أنه موظف صغير مثلهم، ولم يكونوا يفهمون ميله إلى العزلة بعيدًا عنهم، فقد كان جانبه الفنى شديد الخفاء على زملائه بصورة كاملة ، ولذلك فإن هذه الصورة الوظيفية – على طرافتها – هى صورة خارجية رسمها أحد الذين يجهلون حقيقة الشاعر.

وكثير من الأدباء الكبار الذين سجنتهم الوظيفة فى سجنها لمدة طويلة، والذين لم يكونوا يحبون الإعلان عن أنفسهم والتباهى بها، كان زملاؤهم الموظفون ينظرون إليهم نفس النظرة المندهشة المتسائلة، وكانوا يتعاملون معهم تعاملاً خارجيًا سطحيًا ولا يدركون شيئًا من حقيقتهم الفنية والإنسانية.

ولكن لماذا رضى «كفافى» بهذه الوظيفة المتواضعة والتى كانت سببًا لسخرية زملائه فى بعض الأحيان؟ إن أى دراسة «لكفافى» تكشف عن أمرين أساسيين، الأمر الأول هو حبه -إلى حد العشق- للإسكندرية وحرصه الشديد على البقاء فيها طيلة الجزء الأكبر من حياته، فقد رفض وهو موظف فى الرى عروضًا متعددة من بعض إخوته المقيمين فى إنجلترا ليترك الإسكندرية ويعمل معهم ، كذلك رفض عروضًا من بعض إخوته لمساعدته ماديًا وذلك لعدم رغبته فى الإثقال عليهم، ومن هنا اختار الاعتماد على نفسه والاكتفاء بهذه الوظيفة الصغيرة التى تضمن له دخلاً محدودًا ولكنه يكفيه.

والأمر الثانى الذى نكشفه من دراسة شخصية «كفافى» بالإضافة إلى حبه للإسكندرية وتعلقه بها، هو رفضه لكل الإغراءات لكى ينشر قصائده فى الصحف أو يطبعها فى كتب ويستفيد من ذلك فائدة مادية . وهذا موقف لا يصدقه أحد أو يتصور وجوده فى هذه الدنيا، ولكن كل الذين عرفوا «كفافى» وعاصروه أو درسوا حياته وفنه بدقة وعناية يؤكدون هذه الصورة فقد كان «كفافى» يحب الشعر ويرتفع به عن أى نوع من أنواع الاحتراف، كانت متعته الكبرى أن يكتب أشعاره دون أى هدف آخر إلا

التعبير عن نفسه وأفكاره وعواطفه، وكان يبذل جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً فى كتابة قصائده ومراجعتها بمنتهى الدقة، حتى أنه يذكرنا فى هذا المجال بالشعراء الذين كان العرب يسمونهم باسم عبيد الشعر» ، وهم الذين كانوا يكتبون القصيدة الواحدة فى شهور، ثم يقضون شهورًا طويلة أخرى فى مراجعتها وضبطها وإعادة النظر فيها. وكان كفافى بعد أن ينتهى من كتابة قصائده يكتفى بطبع عددمحدود منها لا يزيد على مائتين فى كراسات صغيرة، ويقدمها إلى أصدقائه وحدهم مجانًا، ولم يكن «كفافى» ملتفتًا إلى الشهرة أو محبًا للضجيج والضوضاء وجذب الأنظار إليه وإلى فنه، وهذه صفة عجيبة أخرى من صفاته، وأصدقاؤه هم الذين تحمسوا لشعره وقاموا بنشره فى جميع أنحاء العالم، ولم ينشر ديوانه الوحيد إلا سنة ١٩٣٥ أى بعد وفاته بعامين، ولم يكن كفافى راضيًا كل الرضا عن وظيفته التى كنت تفرض عليه قيودًا عديدة وتحرمه من تحقيق حلمه فى التفرغ الكامل للفن،وقد عبر عن هذا التناقض بين الوظيفة والفن تعبيرًا جميلاً فقال:

«ما أكثر ما يهبط على خاطر جميل أو صورة نادرة أو أبيات من الشعر جاهزة ومفاجئة، ولكننى أضطر إلى ترك هذا كله لأن عملى فى وظيفتى لا يحتمل التأجيل، ثم أعود إلى البيت وأستريح قليلاً وأحاول أن أتذكر هذه الخواطر الجميلة فإذا بها قد ضاعت وتبددت، ومن حقها أن تفعل ذلك، فإن الفن ليس خادمًا لك تطرده عندما يأتيك وتكون مشغولاً عنه، ثم يستجيب لدعوتك ويعود إليك عندما تريدذلك وتطلبه من جديد. إن الفن هو أجمل نساء العالم، فإذا أنكرت الفن فى أى لحظة من أجل بيت جميل تسكنه وملابس أنيقة تظهر بها ووضع اجتماعى ترتاح إليه، فأنت خائن لهذا الفن وملعون منه، ولتسعد بما تريد ولأن الفن أجمل نساء العالم فعليك عندما يأتيك بحبه وإلهامه أن تكون مستعداً للقائه، وأن تخرج إلى عتبة دارك وتقف فى انتظاره، وعليك أن تفعل ذلك كل يوم».

وهكذا فإن كفافى لم يكن فى أعماقه مستريحًا للتناقض بين وظيفته المتواضعة وبين فنه، ولكنه مع ذلك لم يجد«أكرم» من هذا الحل لكي لا يضطر إلى «الاحتراف الفنى» أى أن يكتب قصائده من أجل أن يبيعها مقابل ما يحتاج إليه من مال يعيش منه، وهو لو فعل ذلك فسوف يضطر

إلى كتابة ما يرضى «الناشر» أو «الجمهور» لا ما يرضى نفسه وفنه وحرصه على عدم كتابة كلمة واحدة دون أن تكون هذه الكلمة جزءًا أساسيًا صادقًا من قصائده . أى أن «كفافى» قد اختار أن يحرر فنه تمامًا من أى قيد، ويرضى أن يعيش من وظيفة متواضعة حتى لا يتعرض فنه للاحتراف أو للهوان إنه شاعر متصوف، يهيم بالشعر ويقدسه، ويعتبر أن جزاءه الأسمى هو فى المتعة الروحية الكبرى النابعة من كتابة القصائد الجميلة والتفكير فيها، وهذا الموقف يذكرنا ولا شك بموقف نجيب محفوظ الذى قضى أكثر من عشرين عامًا يكتب بانتظام شديد دون أن يكسب شيئًا من كتابته، ورضى بأن يعيش على دخله من وظيفته فى وزارة الأوقاف ثم فى وزارة الثقافة، بدلاً من أن يحترف «الكتابة» للصحف أو غيرها من وسائل النشر والكسب المادى، وقد ظل نجيب محفوظ يكتب أولاً بدوافع فنية وروحية أما النشر والكسب فيأتى بعد أن تتم الولادة الفنية السليمة، هكذا كان «كفافى» متشددًا فى فنه متساهلاً فى حياته، فكان يقبل أن يتعرض لمتاعب الوظيفة وقيودها، على أن يضطر للكتابة من أجل أن يبيع فنه لأحد.

كان يعيش فى شقة حرص على أن تكون بسيطة وجميلة وأنيقة، فهى مهبط وحيه، وكانت هذه الشقة تقع فى الدور الثانى فى العمارة رقم ١٠ بشارع «ليبسيوس» بالإسكندرية.

مرض كفافى سنة ١٩٢٣، واكتشف الأطباء أنه مريض بسرطان فى الحنجرة ونصحوه بإجراء عملية جراحية وسافر إلى اليونان وأجريت له العملية هناك، وأصر على أن يعود إلى الإسكندرية بعد ذلك، وعاد ، ولكنه كان قد فقد قدرته على الكلام، وأصبح أبكم، وفى الشهور الأخيرة من حياته كان يتكلم مع غيره عن طريق القلم والورق، أى أنه كان يكتب ما يريد أن يقوله لأنه لم يكن يستطيع أن يتكلم ، وقد شعر الذين يعرفونه ويحبونه بخسارة كبيرة، لأن صوته كان رائعًا، وكان محدثًا جذابًا لطيف المعاشرة يأخذ كلامه بمجامع السامعين، أما هو فقد كتب معلقًا على فقدان صوته يقول :

كل الشيوخ يعانون من شىء. هناك من يفقد البصر، وهناك من يفقد

سمعه، أما أنا فقد فقدت صوتى ، ويجب أن أعتبر نفسى محظوظاً.

وفى إبريل سنة ١٩٣٣ مات كفافى فى أحد مستشفيات الإسكندرية،وهو فى السبعين من عمره، وكان قد استقال من وظيفته حوالى سنة ١٩٢١، واكتفى بالعمل كسمسار فى بورصة الإسكندرية، وكان هذا العمل بالنسبة له حرًا وسهلاً، وكان يضمن له دخلاً يكفيه بالإضافة إلى معاشه.

هذه هى الحياة العجيبة لهذا الشاعر الكبير ومن يقرأ قصة هذه الحياة لا يكاد يري فيها شعرًا ولا جمالاً، فهى حياة صعبة مضطربة فيها كثير من الضغوط والإحباطات. بل أن فى بعض تفاصيلها ما يثير الدهشة، فكيف نتصور أن موظفًا صغيرًا فى وزارة الرى وسمسارًا فى البورصة، ورجلاً بسيطًا ساخرًا قليل الحيلة فى شئون الحياة اليومية، لم يحصل على شهادة جامعية ولم يعرف أى نوع من أنواع الدراسة المنتظمة.. كيف نتصور أن رجلاً مر بكل هذه الظروف يصبح شاعرًا عالميًا له وزنه وتأثيره وسحره الكبير فى كل أنحاء العالم ؟ لا تفسير لذلك كله إلا أن هذا الشاعر كان يملك موهبة كبرى، وكان يملك من ناحية ثانية إحساسًا بهذه الموهبة وإيمانًا بها وإدراكًا لقيمتها، فقام بتركيز كل قواه العقلية والروحية فى شعره، وعامل كل جوانب الحياة الأخرى بأسلوب تقليدى عادى لم يبذل فيه جهدًا ولا طاقة ، كان يأخذ أمور الحياة كما هى عليه، ولا يفكر فى تغييرها أو التصدى لها والدخول فى معركة معها، فكأنه جاء إلى هذه الدنيا ليعزف ويغنى فقط دون أن يحاول الاستفادة من عزفه وأغانيه، وقد رحل عن الدنيا تاركًا وراءه .. ديوانه الوحيد، دون أن يعبأ كثيرًا بالطريقة التى سوف ينظر الناس بها إلى قصائده. إنها رسالة يؤديها ويسعد بها ولا يرضى بأن يكون لها ثمن يتقاضاه. وهى رسالة التعبير عن الحب والابتهاج بالحياة فى أبسط صورها ومواقفها وشخصياتها الإنسانية ورسالة الشجاعة والتغلب على الألم والكبرياء والتقديس لكل جهد حتى لو كان بسيطًا لا يلفت الأنظار. فالحياة فى أقل مظاهرها شأنًا هى نعمة وبركة .. وتلك هى المعانى الأساسية التي امتلأت بها قصائد «كفافى» وهو ما نرجو أن نتحدث عنه فى الفصول التالية.

طبيب الأرواح

عندنا مثل شهير يقول «أول القصيدة كفر»، ولكن شاعرنا الذى نتحدث عنه يرى رؤية أخرى ، فأول القصيدة عنده إيمان، وآخرها إيمان أقوى وأشد، وكل شاعر عظيم لابد أن يكون مؤمنًا بشىء يملأ قلبه، ويدعو إليه ويثير فيه الحماس له. وليس الشاعر وحده هو الذى ننتظر منه الإيمان، بل كل فنان ومفكر مطالب بأن يكون لديه هذا الإيمان. والأكثر من ذلك أن كل إنسان فى هذه الدنيا مهما كان شأنه لابد أن يكون له إيمان بشىء. وأنا هنا لا أتحدث عن الإيمان الدينى، فالإيمان الدينى هو قاسم مشترك بين معظم الناس، والملحدون أقلية. ولكن الإيمان الذى أتحدث عنه هو الإيمان بالحياة والإنسان، وفى هذا المجال هناك مؤمنون، وهناك «ملحدون» بالحياة والإنسان.

وشاعرنا الذى نتحدث عنه هنا هو من كبار المؤمنين بالحياة والإنسان، وهو رقيق حنون وديع، يصحبنا فى كل قصيدة له إلى معنى واحد كبير يقول لنا فيه«إن الحياة.. نعمة» وهو شاعر يحاول بكل ما أوتى من قوة روحية وعبقرية فنية أن يثبت لنا هذا المعنى ويجعله ساريًا فى قلوبنا مع الدماء، ذائبًا فى صدورنا مع أنفاس الهواء. إنه لا يحرضنا على الأهداف المعروفة فى حياة الناس مثل المال والنجاح والسلطة وغير ذلك، فهذا ليس من شأنه ولا من مشاغله وليس عنده فى هذه الأمور نصيحة يسديها لأحد. إنه ليس طبيبًا للحياة الواقعية العملية، ولكنه طبيب للأرواح،ومع ذلك فهو أكثر واقعية من كل الواقعيين، لأننا نخرج من قراءة قصائده ونحن أقوياء، فهو يدلنا بنعومة غير عادية على مناطق القوة فيناوالتى تعودنا على عدم الالتفات إليها، بل إننا كثيرًا ما نهملها ونتعامل معها وكأنها غير موجودة، قال أحد النقاد مرة عن الكاتب الفرنسى «رينان» : إنه يفكر كرجل ، ويحس

كامرأة، ويتصرف كطفل. وهذا الوصف البديع ينطبق على شاعرنا بوضوح، ففى فنه تكامل تام بين قوة الرجال وحنان المرأة وبراءة الأطفال.

هو الشاعر اليونانى الإسكندرانى الجميل قسطنطين كفافى (١٨٦٣-١٩٣٣) وهو الشاعر الذى يبارك الحياة فى كل قصائده، ويدعو كل إنسان مهما كان شأنه للالتفات إلى نعمة الحياة بين يديه.

فى قصيدة من قصائده أسمها «المرآة فى البهو الأمامي» يصور لنا الشاعر «فرحة الحياة» التى تنبعث أمامنا من خلال شاب يملك جسمًا جميلاً متناسقًا ،وهذه هى معانى القصيدة أترجمها عن النص الإنجليزى (مجموعة أعمال الشاعر ص ١٢٤) كما أضع أمامى أيضًا، وأنا أقدم معانى القصيدة الترجمة الحرفية الدقيقة التى قام بها الدكتور نعيم عطية .تقول معانى القصيدة البديعة :

«فى ذلك البيت الملئ بالترف، كان هناك مرآة فى البهو الأمامى.. مرآة قديمة جداً .. عمرها لا يقل عن ثمانين سنة. جاء إلى المنزل شاب بهى الطلعة، كان يعمل مساعداً لأحد الخياطين، وفى أيام إجازته كان يمارس هوايته الرياضية».

«وقف الفتى الجميل فى البهو الأمامى ومعه «لفة» من الملابس ، سلمها لواحد من أهل البيت، وانتظر حتى يأتوا له بالأجر، وفى لحظات الانتظار القليلة،وقف أمام المرآة، نظر إلى نفسه، وأصلح رابطة عنقه، وبعد خمس دقائق جاءوا له بالأجر المطلوب. أخذ الأجر ومضى خارجًا من البيت. ولكن المرآة القديمة رأت فى تلك الدقائق الخمس ما لم تره من قبل بين آلاف الوجوه التى مرت بها. لقد كانت المرآة مليئة بالنشوة والفرح، وكانت هذه المرآة تحس بالاعتزاز الكبير لأنها احتضنت لمدة دقائق عابرة جمالاً كاملاً كان يتمثل فى ذلك الفتى الذى وقف أمامها خمس دقائق .. ورحل منذ قليل».

تلك هى معانى قصيدة «كفافى» لم أبتعد فى تقديمها عن النص

الحرفى، وهنا نجد أن الشاعر الكبير يتغنى بنعمة الحياة التى يمثلها الشاب الجميل، ولم ينسب الشاعر تلك النشوة بجمال الفتى إلى الشاب نفسه، بل نسب تلك النشوة إلى المرآة فالمرآة فرحانة. وقد تحولت هذه المرآة إلى كائن حى يشعر ويحس وذلك بفضل جمال الفتى وصحة جسده، رغم بساطة ذلك الفتى ومهنته المتواضعة، فهو ليس قائدًا ولا إمبراطورًا ولا صاحب سلطان ولا نجمًا من نجوم الفن ولا واحدًا من الأثرياء، إنه مساعد «ترزى» وهو أيضًا رياضى من الهواة، والمرآة لم تعكس على صفحاتها من قبل جمالاً بهذا الكمال . وكان البيت الكبير الملئ بالترف ، بمن فيه الآن ومن كانوا فيه من قبل، إنما يمثلون جميعًا نوعًا من الحياة الباردة الخالية من العافية والجمال، بينما يمثل الشاب البسيط الذى لا يملك شيئًا كل قوة الحياة وبهجتها ونشوتها الرائعة، تلك التى انعكست على المرآة فأنطقتها بالفرح والسعادة.

هنا تمجيد للحياة، واعتراف بالهدايا الحقيقية التى تقدمها للإنسان، وفى القصيدة دعوة هى غاية فى اللطف إلى أن نفتش حولنا ، وفى داخل نفوسنا، ولو فعلنا ذلك بصدق وأمانة فسوف نجد أن بين أيدينا أشياء كثيرة يمكن أن تمنحنا السعادة، هى كلها فينا وليست خارجنا ، منها الصحة والعافية، ومنها القدرة على الاستمتاع بالشمس الدافئة،ومنها الاستعداد للحب وبناء علاقات إنسانية طيبة مع الآخرين، إذا كانوا معنا صادقين. كل هذا فينا ، ونحن قادرون عليه، ولكننا كثيرًا ما نستهين به ونرفض التفكير فيه،ونعتبره شيئًا عديم النفع والجدوى، وهذا الشاب الذى تتحدث عنه القصيدة لا يملك سوى هذه الأشياء أو بعضها، فهو يملك صحته وعافيته، وبسبب هوايته للرياضة أصبح جسمه قويًا جميلاً ، والصحة من أقوى عناصر الجمال، والشاب فى هذه القصيدة ليس لديه فتنة بنفسه ولا غرور،ولكنه يحس بالسعادة الهادئة .وهو - فى القصيدة - لا ينطق بكلمة واحدة ، وكل ما فعله هو أنه سلم «لفة» الملابس لأصحابها، وتقاضى الثمن الذى سوف يسلمه للترزى الذى يعمل عنده، ولكننا نحس مع ذلك كله أن الشاب يعيش راضيًا عن حياته، سعيدًا بجسمه الجميل القوى، وأنه يؤدى

واجبه فى الحياة بيسر وسهولة، ولا يحس بالنقص أو القلق، ولا يريد من الحياة غير ما أعطته له من نعمة الصحة والجمال والعمل المنتظم.

وقد حاول البعض أن يستخرج من هذه القصيدة دليلاً على وجود انحرافات كامنة فى نفس الشاعر، لأن العادة الشائعة عند الشعراء هى أن يتغزلوافى جسد المرأة لا فى جسد الرجل، ولكننى أرى أن هذا النوع من التفكير هو فى غير موضعه فالقصيدة ليست غزلاً ولكنها غناء للحياة، وهى عزف جميل على وتر حساس يقول لنا : إن الحياة .. نعمة، وعلينا أن نلتفت إلى هذه النعمة، ونسعدبها، والقصيدة لا تمنعنا من أن تمتلئ حياتنا بالطموح والأمل، فهى لا تصادر شيئًا، ولا تقف فى وجه شىء، ولكنها تلقى ضوءًاهادئًا جميلاً فوق ما نملكه بالفعل، لكى نفكر فيه ونسعد به، فهى فى جوهرها دعوة إلى أن نكون سعداء بما نملك، قبل أن نهلك أنفسنا فى الطموح إلى ما لا نملكه، إنها دعوة إلى الاهتمام بما فى أيدينا والالتفات إليه، قبل أن نفكر فى أى شىء آخر، فمن لم يسعد بما فى يديه لا يمكنه أن يكون قادرًا على السعادة بما فى أيدى الاخرين.

ونترك هذه القصيدة إلى قصيدة أخرى تضع أيدينا على معنى كبير من معاني الحياة ، وفى هذا المعنى يقول لنا الشاعر «كفافى» إن أى جهد يبذله الإنسان له قيمة، ما دام هذا الجهد صادقًا وأمينًا، وحتى لو كان ما ينتج عن هذا الجهد فى آخر الأمر هو شىء محدود، المهم أن يبذل الإنسان جهدًا وأن يخلص فى أداء هذا الجهد ويحرص على أن يكون جهدًا كاملاً ومتقنًا، وفى هذه القصيدة تمجيد للجهد الإنساني، ودعوة إلى الرضا به، واحترامه والسعادة الكاملة بأدائه.

وربما كان هذا الجهد هو جهد امرأة ترعى طفلاً أو فلاح يزرع وردة أو سنبلة أو عامل يدق مسمارًا فى آلة، وربما كان هذا الجهد له ناتج بسيط، ولكنه مع ذلك جهد إنسانى يستحق المحبة والتقدير ، ويستحق قبل كل شىء أن يرضى عنه صاحبه ويسعد به.

ليس هناك جهد إنسانى بلا قيمة ، وليس هناك جهد إنسانى يستحق من صاحبه الأسى لبساطته وقلة شأنه . أنت تبذل جهدًا فأنت إنسان

تستحق أن تسعد بنفسك وتبتعد عن القلق والتوتر وتتخلص من أى إحساس بأنك ذو شأن قليل بين الناس.

هذه القصيدة اسمها «الخطوة الأولى» ، والقصيدة تصور شاعرًا شابًا ناشئًا له اسم يوناني صعب هو «افيمنيوس» وكان هذا الشاعر الشاب يحب الفن ويتمنى أن يكون شاعرًا كبيرًا، ويبذل فى سبيل ذلك جهدًا متواصلاً، ومع ذلك فإنه لم يستطع فى النهاية إلا أن يكتب قصيدة واحدة من «الشعر الرعوى» الذى أحبه وتمنى أن يحقق فى مجاله شيئًا، والشعر الرعوى هو شعر نشأ فى اليونان على يد الشاعر «ثيوكريتس» الذى عاش بين سنة ٣١٠ وسنة ٢٥٠ قبل الميلاد، وله ثلاثون قصيدة «رعوية» يقوم مضمونها على تمجيد البساطة والحياة الريفية. وقد أصبح «الشعر الرعوى» بعد «ثيوكريتس» مدرسة فنية يشارك فيها الكثيرون من كبار الشعراء فى الغرب، ومنهم «فرجيل» الرومانى «وميلتون» الإنجليزى وغيرهما من كبار الشعراء العالميين.

يذهب شاعرناالشاب الذى ليس له وجود تاريخى وإنما هو من ابتكار «كفافى» إلى أمير الشعراء «ثيوكريتس» ليشكو له ضعف موهبته الشعرية ومايحس به من إحباط وبأس وتقول القصيدة فى معانيها الأساسية:

«الشاعر الشاب «افيمينوس» ذهب يومًا ما إلى أمير شعراء عصره «ثيوكريتس» وقال الشاعر الشاب: إننى أكتب الشعر منذ عامين متصلين، وحتى الآن وبعد هذا الجهد لم استطع أن أكتب سوى قصيدة، وهذه القصيدة هى عملى الوحيد. إننى أحس بالحزن يملأ نفسى، وأرى سلم الشعر طويلاً بل وطويلاً جداً، وبعد الخطوة الأولى التى قطعتها وبذلت فيها جهداً كبيراً أشعر أننى لا أستطيع أن أتقدم خطوة أخرى بعد قصيدتى الأولى، أو خطوتى الوحيدة.

« .. إن كلماتك هذه يا شاعرى الصغير ليست لائقة بك بل هى نوع من الكفر والجحود . فبمجرد أن تكون قادرًا على صعود أولى درجات السلم، ينبغى عليك أن تكون بذلك فخورًا وراضيًا، فوصولك إلى هذه الدرجة الأولى ليس شيئًا قليلاً أو هينا،وما حققته فى هذه الخطوة الأولى يعتبر

إنجازاً مدهشاً ومثيراً للإعجاب، إن هذه الخطوة التى حققتها بعد جهد، هى خطوة كبيرة ورفيعة وبعيدة عن الحياة اليومية العادية، وأنت بهذه الخطوة الواحدة، تستطيع أن تكون مواطناً فى مدينة الأفكار، وهى نفسها المدينة الفاضلة، وكما ينبغى أن تعلم فإن الحصول على حق «المواطنة» فى هذه المدينة صعب وعسير، فهناك على أبواب هذه المدينة، وفى أسواقها، يوجد الكثيرون من واضعى القوانين وحراسها، وهم لا يسمحون لأى كاذب مراوغ وغير صادق بأن يخدعهم. وأنت وصلت - بقصيدتك الوحيدة- إلى إنجاز يسمحون لك من خلاله بأن تكون مواطناً فى هذه المدينة الفاضلة فإنجازك فى قصيدتك الوحيدة ليس قليل الأهمية، وما فعلته هو شىء مدهش وجميل».

هذه هى قصيدة «كفافى» كما حاولت أن أترجم معانيها عن النص الإنجليزى الذى قام بترجمته من اليونانية «أدموند كيلى وفيليب شيرار» الطبعة الثانية ص ٩.

وشاعرنا «كفافى» فى هذه القصيدة يمجد الجهد الإنسانى من خلال تمجيده لعمل الشاعر الذى قضى سنتين فى كتابه قصيدة واحدة، وأحس بعدها بالهم واليأس والإحباط وعدم القدرة على إنجاز شىء جديد. و«كفافى» يجعل من الإنجاز الصغير عملاً يستحق الاحترام، ولا يميل إلى اليأس والأسى والإشفاق على النفس، ومن خلال حديث «كفافى» عن الشاعر الشاب وإنجازه الصغير فإنه يخاطبنا جميعًا حتى لا نستهين بما نقوم به، ما دمنا قد اجتهدنا وأخلصنا فى هذا الاجتهاد، وكل جهد إنما هو عمل يستحق التكريم، ويستحق أن يبعث فى نفوسنا الراحة والسعادة، حتى لو كان عملاً بسيطًا ومحدودًا .

وليس فى هذه القصيدة ما يدعونا - أبدًا - إلى الإهمال والكسل والتهاون ، بل كل ما فيها على العكس هو دعوة دافئة إلى العمل، وعدم الاستهانة بأى إنجاز يقوم به الإنسان مهما كان بسيطًا ، المهم أن نعمل ونجتهد ، وأن نؤدى ذلك بصدق وأمانة وإخلاص، فالجهد الإنسانى يستحق

التكريم دائمًا ، لأن الجهد هو التعبير الحقيقى عن قيمة الإنسان فى الحياة، ولا قيمة للحياة ولامعنى للإنسان بغير هذا الجهد.

وننتقل بعد ذلك إلى قصيدة ثالثة بديعة من قصائد «كفافى» وعنوان هذه القصيدة هى «ديمتريوس» والقصيدة لا تتجاوز ثلاثة عشر بيتًا، وقد اعتمد الشاعر فى هذه القصيدة على عبارة للمؤرخ «بلوتارك» فقد قال هذا المؤرخ اليونانى الكبير فى كتابه «تاريخ نبلاء اليونان والرومان» ما يلى :

«الملك ديمتريوس» تصرف مثلما يتصرف الممثل الذى انتهى دوره فقد لبس عباءة رمادية متواضعة ،وخلع ملابسه الزاهية المزركشة ثم ذهب فى هدوء وفى الخفاء بعيداً ولم يعد».

من هذه العبارة التى كتبها «بلوتارك» أقام الشاعر «كفافى» بناء قصيدته الصغيرة الرائعة وهذه هى معانى القصيدة أترجمها أيضًا عن مجموعة أعمال الشاعر بالإنجليزية «ص١٩»:

«عندما خذله أهل «مقدونيا» وتخلوا عنه، لم يحاول «ديمتريوس» ذلك الروح النبيل، أن يتصرف تصرف الملك المفتون بنفسه. هكذا تحدثوا عنه. فقد خلع ثيابه الموشاة بالذهب. وألقى عنه خفه المزخرف بالألوان القرمزية الزاهية، وبسرعة لبس ثيابًا متواضعة، وتسلل خارجًا، تمامًا مثلما يفعل ممثل فى مسرحية، بعد أن تنتهى المسرحية وينتهى الدور. فى هذه اللحظة. يغير الممثل ملابسه، ويذهب بعيداً عن المسرح».

هذه هى القصيدة أو معنى القصيدة كما أحب أن أسميها، وهى تقف عند اللحظة البطولية لإنسان مهزوم تخلى عنه الناس، فما كان منه إلا أن يتقبل المحنة فى بساطة وكبرياء، وترك مكانه فى يسر وسهولة، دون بكاء أو عويل أو مقاومة يائسة لا معنى لها ولا قيمة، لقد رضى ذلك «الملك» بأقداره وارتفع على ألمه وجراحه وهوانه على الناس، وفى اللحظة التى واجه فيها الهزيمة بروح عالية، أصبح نموذجًا حيًا لما يريد الشاعر «كفافى» أن يقوله لنا فى صدق وجمال، وهو أن الارتفاع بالنفس فى وقت المحنة يمثل عظمة الإنسان وكبرياءه، ويمثل قوته الحقيقية التى لا يستطيع أحد أن يجرده منها، ومثل هذه القوة، هى التى تعطى الإنسان فى لحظات

الخسارة والهزيمة نورًا يضئ له الطريق أمام عينيه ، وقوة ترتفع به فوق الأحزان والتعاسات، كما ارتفع الملك «ديمتريوس» في قصيدة «كفافى» عندما أحس أن الناس قد تخلوا عنه، وأن المدينة لم تعد تريده أو تتحمس له.

ونصل إلى القصيدة الرابعة وعنوانها «ايتاكا» وفى هذه القصيدة يتحدث شاعرنا «كفافى» عن رحلة إلى جزيرة بهذا الاسم، والرحلة طويلة وصعبة، والجزيرة مقفرة وفقيرة، ومع ذلك فالشاعر يتغنى بجمال الرحلة، ويتحدث عما فى الطريق إلى هذه الجزيرة من عذوبة وجمال وتحصيل للمعرفة واتساع فى الخبرة والتجربة والحكمة، ويتحدث أيضًا عما فى هذا الطريق من فرص متاحة للتعرف على مدن جديدة، واكتشاف أفراح عديدة، وفى هذه القصيدة التى لا تتجاوز خمسة وثلاثين بيتًا نحس أن الشاعر الكبير يحدثنا فى لطف عن رحلة الحياة، ويدعونا إلى أن ندرك النشوة الكامنة فى هذه الرحلة، والنابعة من عنائنا فيها، ثم يوجه أرواحنا إلى جمال الرحلة ذاتها، ويلفت أنظارنا ومشاعرنا إلى أن هذه الرحلة تحمل لنا الإثارة والدهشة والعذوبة والفتنة، وأن من سوء التفكير والإساءة إلى نعمة الحياة أن نقيس جمال الرحلة بنتائجها الأخيرة، وأن ننتظر بعد نهاية الرحلة، وفى آخر المطاف أشياء مثيرة وكنوزًا ثمينة، وأن نفقد الرضا عن رحلتنا فى الحياة عندما نجدأن نهاية هذه الرحلة بسيطة وعادية وخالية من الأشياء المذهلة. إن الشاعر هنا يدعونا إلى الاعتزاز برحلتنا فى الحياة، فالرحلة فى ذاتها ينبغى أن تكون هى الهدف الأساسى ، حتى لو انتهت هذه الرحلة إلى جزيرة «ايتاكا» الفقيرة الخالية من الأحلام والكنوز. أمامى النص الإنجليزى لهذه القصيدة «ص ٢٩ من الترجمة الإنجليزية لديوان الشاعر» وأمامى ترجمة عربية قدمها الدكتور نعيم عطية عن اليونانية، وقد أحببت الترجمة العربية وهذ هو نصها مع تعديلات قليلة فى بعض الألفاظ رأيتها أقرب إلى ما أحسسته من روح الشاعر الكبير تقول القصيدة :

« إذا ما شددت الرحال إلى «ايثاكا» فلتكن أمنيتك أن يكون طريقك إليها طويلاً وأن يكون حافلاً بالمغامرات مليئًا بالتجارب والمعارف . ولا تخف وأنت

فى طريقك من الغيلان وجنيات البحر الغاضبة، فإنك لن تلتقى بشىء من ذلك فى طريقك ما دام فكرك ساميًا ، وما دامت العاطفة الخالصة تقود روحك وجسدك. لن تقابل الغيلان وجنيات البحر الغاضبة ما لم تكن قدحملتها معك فى أعماقك وما لم تكن روحك قد أقامتها أمامك. فلتكن أمنيتك أن يكون الطريق طويلاً، وأن تكون أيام الصيف فى ساعاتها الأولى المبكرة كثيرة، وأن تدخل فى هذه الأيام ممتلئًا بالفرح إلى موانئ تراها لأول مرة».

«توقف عند الأسواق السورية واحصل على الأشياء الجيدة، من أصداف ومرجان وكهرمان وأبنوس وعطور منعشة من كل نوع . خذ - على وجه الخصوص- من العطور المنعشة قدر ما تستطيع واذهب إلى مدائن مصرية كثيرة، لتتعلم ممن فيها من العلماء والعارفين».

«لتكن» «ايثاكا» فى فكرك دائمًا ، وليكن وصولك إليها هو هدفك ومقصدك، لكن .. لا تتعجل فى سيرك، والأفضل أن يدوم سفرك سنين عديدة وأن تصل إلى الجزيرة، بعد المشيب غنيًا بما كسبته فى الطريق، لا تتوقع أن تعطيك «ايثاكا» ثراء، فلقد منحتك «ايثاكا» رحلة جميلة، فما كان بإمكانك أن تخرج إلى الطريق لولاها وليس عليها أن تعطيك أكثر من ذلك الآن».

«لو وجدت «ايثاكا» فقيرة فإنها لم تخدعك، وما دمت قد أصبحت على هذا القدر من الحكمة، ولك كل هذه الخبرة فلابد أنك تفهم ماذا تعنى هذه المدينة.. وأى مدينة أخرى».

فى هذه القصيدة الجميلة يواصل «كفافى» العزف على الوتر الذى يحبه والذى يقول لنا في عذوبة شديدة إن الجهد الإنسانى فى حد ذاته يمنحنا الفرح، فما دمنا قادرين على العمل والحركة والفهم وتذوق الأشياء، التى يمتلئ به العالم فليس هناك ما يبرر الأسى والحسرة على تبديد المجهود وضياع الأيام. رحلة الحياة فى حد ذاتها جميلة فكل ساعة وكل دقيقة فيها تزيدنا خبرة وتجربة، وتضيف إلى مشاعرنا عواطف جديدة لم نكن نعرفها أو نحس بها من قبل ولنراجع معًا القصائد الأربع السابقة فسوف نجد فيها

ينبوعًا صافيًا للسعادة . فى القصيدة الأولى شاب متواضع بسيط منحته الحياة صحة وجمالاً، وهو يمشى على الأرض كأنه طائر حر طليق، وفى القصيدة الثانية شاعر يكتب عملاً شعريًا واحدًا فيقول له أستاذه أمير الشعراء : «برافو» إن إنجازك الذى تراه بسيطًا هو إنجاز يستحق الرضا والسعادة، وفى القصيدة الثالثة ملك يتخلى عن عرشه عندما يحس أن أهل مدينته لم يعودوا راغبين فى الإبقاء عليه، وهو يفعل ذلك فى هدوء وكبرياء، وكأنه يقول للناس جميعًا إن مملكتى هى فى نفسى ومشاعرى وحرصى على ألا أفرض وجودى بالعنف والقوة على أحد وأن كنت قادرًا على ذلك وفى القصيدة الرابعة تمجيد لرحلة الحياة حتى ولو لم تحقق هذه الرحلة سوى المشاعر الكثيرة التى نكتسبها منها، فقد شاهدنا فيها الأزهار والورود، وسمعنا الألحان والأغانى، وتعبت أقدامنا فى الطريق ثم استراحت، وامتلأت عقولنا ونفوسنا بالخبرة والمعرفة والتجربة. فلا شىء يضيع، ولا جهد يتبدد، والأشياء القليلة التى بين أيدينا ثمينة وغالية، وعلينا أن ندرك ذلك كله ونؤمن به ونتحمس له.

الحياة .. نعمة

الحياة .. نعمة

●●●

على ضوء الشموع

على ضـوء الشـمـوع كـان يكتب ، وفى نورها الهـادئ كان يقضى لياليـه، وكانت الشموع تمثل بالنسبه له معنى من المعاني الكبيرة، وكل شمعة هى فى حقيقتها «ملخص» للحياة. فالشمعة تولد ثم تتوهج ، وتبدأ بعد ذلك رحلة الذوبان، وفي النهاية تأتي لحظة الانطفاء، وهذه هي نفسها قصة الإنسان وقصة كل كائن حي في هذا الوجود ، وقصائد كفافى لا تبدأ من الأفكار ، بل تبدآ دائمًا من الناس ،والأحداث، وهي تختار بعناية شديدة لحظات من الحياة والتاريخ ثم يقوم الشاعر «بعزف» هذه اللحظات حتى تصل إلى صميم القلب دون صخب أو ضجيج، ويكفي أن نلقي نظرة على عناوين هذه القصائد حتى نحس أن الشاعر يبحث عن ينابيع فنه فى الحياة ولا يبحث عنها أبدًا فى الأفكار النظرية المجردة، ومن عناوين هذه القصائد : «كلمات شاب فى الرابعة والعشرين من عمره» - «مستوطنة يونانية سنة ٢٠٠ قبل الميلاد» - «صورة شاب في الثالثة والعشرين بريشة صديق هاو في نفس عمره » - «في عام ٢٠٠ قبل الميلاد » - «أيام ١٩٠٨» - «نبيل بيزنطي ينظم شعرًا في المنفى» - «فى طيات كتاب قديم» . ومعظم عناوين القصائد تمضى على هذا الأسلوب.

الحياة عند «كفافى» هي الأصل، والتاريخ جزء أساسي من الحياة، والشعر كله ينبع من هذا «النبع» وليس هناك نبع آخر عند هذا الشاعر الفريد ، ورغم عمق الشاعر وتعدد المعاني في كل قصيدة من قصائده، فهو سهل وميسور ، ويستطيع أى إنسان صاحب إحساس وذوق أن يقرأ هذه القصائد ويلمس ما فيها من فتنة وعذوبة وسحر جميل، فالشاعر هنا هو شاعر للناس جميعًا وليس شاعرًا للمتخصصين وحدهم.

وقد ابتعد «كفافي» تمام الابتعاد عن «إقحام» همومه الشخصية المباشرة

في شعره ، ولذلك فأنت عندما تقرأ قصائده، يختلط عليك الأمر وتسأل نفسك هذا السؤال العجيب : هل الشاعر هو الذى كتب هذه القصائد أم أننى أنا الذي كتبتها دون أن أدرى ؟!

عكف عدد كبير من أدبائنا المعاصرين على ترجمة أشعار «كفافى» ومنهم الشاعر العراقي المبدع سعدي يوسف، وشاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور، والأستاذ بشير السباعي، والأستاذ محمد عبد الله الشفقي. وكان على رأس قائمة المترجمين أديب مصري فيه كثير من الصفات الإنسانية لشخصية «كفافى» نفسه، وهو الدكتور نعيم عطيه، فهذا الأديب المصري قد عاش طويلاً مع أشعار كفافي وأحبها وقام بترجمتها عن اليونانية، ونعيم عطية فيما أعلم من أصل يوناني، وقد ساعده ذلك على أن ينقل لنا أشعار كفافي من منبعها الأول، وكما قلت فإن نعيم عطية فيه كثير من صفات كفافي الجميلة، ولذلك فهو لم يكن مترجمًا للشاعر فقط، بل هو قطعة حية منه تمشي على الأرض، وأنا أضع هذه الترجمة العربية الجميلة أمامي مع الترجمة الإنجليزية البديعة التي قام بها «أدوارد كيلي» و«فيليب شيرار»، وأحب أن أتجول بين الترجمتين وأجد في ذلك متعة وفائدة..

ولنبدأ رحلتنا مع شعر «كفافى» بالوقوف أمام قصيدته «شموع» وهي من القصائد التي كتبها قبل سنة ١٩١١، وفيها تصور لحب الشاعر للشموع ، وللمعاني التي كان الشاعر يجدها في هذه الشموع فالشموع عنده ترتبط بالحياة والإنسان دون تعقيد أو افتعال، والشاعر يصور لنا الشموع في يسر وجمال فيقول:

«تتراءى أمامنا أيام الغد كلها صفوف من الشموع الصغيرة المضاءة، وهذه الشموع لها لهب ذهبي، وهي دافئة ومليئة بالحياة، أما أيام الأمس التي مضت فإنها تقف وراءنا مثل صف من الشموع المنطفئة، وأقربها إلينا شموع يتصاعد منها الدخان، وهي باردة ، مقوسة، منصهرة، وأنا لا أريد أن أرى هذه الشموع فمنظرها يؤلمني، ويؤلمني أن أتذكر كيف كان نورها قبل أن تذوب وتنطفئ. أنا أريد أن أتطلع إلى الأمام. إلى شموعي المضيئة، ولا أريد

أن أدير وجـــهي ، وأنظر خلفي، وأرتجف لا أريد ذلك الصف الطويل من الشموع المنطفئة، والتي يتضاعف عددها بسرعة ويزداد باستمرار».

هذه هي شموع كفافي ، وقد حرصت على تقديم معانيها الرئيسية دون الالتزام بالترجمة الحرفية للقصيدة، كلمة كلمة، فأنا أظن أن الترجمة الحرفية لا يمكن أن تحافظ على روح الشعر، والشمعة المضيئة فى هذه القصيدة هي الأمل والتفاؤل والغد، والشمعة المنطفئة هي الأيام التي رحلت بما فيها من آمال أحلام. والشمعة - في الحالتين - هي الحياة بوجهها المشرق ووجهها الحزين.. وجهها الماضي ، ووجهها القادم في المستقبل.

بعد ذلك نتوقف أمام قصيدة «مصرية» لهذا الشاعر الجميل ، وموضوع هذه القصيدة هو حادثة دنشواي المعروفة التي وقعت يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦ ، وخلاصة هذه الحادثة أن عددًا من ضباط جيش الاحتلال البريطانى خرجوا في ذلك اليوم لصيد الحمام في قرية «دنشواي» بمركز تلا بالمنوفية، وأدى إطلاقهم للرصاص إلى اشتعال النيران في بعض أجران القرية، ومقتل فلاحة مصرية، وقد هرب أفراد الجيش الإنجليزي، خوفًا من انتقام الفلاحين، وأثناء هروبهم مات أحدهم من شدة حرارة الجو، وقد أثبت الطب الشرعي أن موت الضابط كان بسبب ضربة الشمس وليس بسبب عدوان أحد عليه، ورد الإنجليزي وممثلهم في مصر «اللورد كرومر» على هذه الحادثة التى لم يرتكب فيها أهل دنشواي خطأ يستحق العقاب، بعقد محكمة خاصة في القرية، وصدرت عن هذه المحكمة أحكام ظالمة وقاسية ضد الفلاحين الأبرياء، وتضمنت هذه الأحكام إعدام أربعة فلاحين شنقًا وسجن اثنين سجنًا مؤبدًا، وسجن واحد خمسة عشر سنة، وسجن سبعة فلاحين لمدة سبع سنوات، وسجن ثلاثة لمدة سنة مع خمسين جلدة، وحكمت المحكمة كذلك بخمسين جلدة على خمسة آخرين، وقد تم تنفيذ ما جاء فى هذه الأحكام من الشنق والجلد فى قرية دنشواي نفسها، وأمام أعين أهل القرية جميعًا بمن فيهم عائلات المحكوم عليهم، وأثارت هذه الحادثة ثورة غضب عنيفة فى مصر ضد الاحتلال الإنجليزي وممثله اللورد كرومر، وتولى قيادة هذه الثورة الزعيم مصطفى كامل، وكان من آثار قضية

دنشواى اضطرار الإنجليزي لسحب «كرومر» من مصر لتهدئة الخواطر الثائرة ضدهم «وخرج «كرومر» بالفعل بعد أن قضى فى مصر أربعة وعشرين سنة ممثلاً للاحتلال الإنجليزي، وحاكمًا بأمره في البلاد منذ سنة ١٨٨٣ وحتى خروجه سنة ١٩٠٧.

كانت حادثة «دنشواي» هذه هي موضوع القصيدة المصرية التي كتبها كفافي وهذه القصيدة لم تظهر في ديوان كفافي الأصلى والمنشور باليونانية سنة ١٩٣٥ ، أي بعد وفاة الشاعر بسنتين، ولكن «روبرت ليدل» مؤرخ حياة «كفافى» عثر على القصيدة بين أوراق الشاعر وأثبتها فى كتابه عنه «ص ٩١» وفى هذه القصيدة يسمى «كفافى» الإنجليز باسم «المسيحيين» ، وهو يقصد بذلك إلى السخرية من الإنجليز، فالمسيحية تعنى الرحمة والتسامح والمحبة، ولكن الإنجليز تصرفوا في دنشواي بمنتهى القسوة والوحشية، مما يتناقض تمامًا مع المبادئ المسيحية الحقيقية، والقصيدة مكونة من ١٨ بيتًا ، وكان لها عنوانان، الأول هو (٢٧ يونيو الساعة الثانية بعد الظهر» وهذا العنوان يشير إلى التاريخ والساعة التى تم فيها إعدام الفلاحين المصريين، والعنوان الثانى هو «يوسف حسين سليم»، وهو اسم فلاح شاب من الذين حكم عليهم بالإعدام وتم شنقهم بالفعل، ويبدو أن كفافي قد استقر على العنوان الأول للقصيدة، فهو أقرب إلى طريقته وأسلوبه في تناول الأحداث.

يقول كفافي في قصيدته :

«عندما أمسك المسيحيون بالصبي البرئ، ابن السابعة عشرة، واقتادوه إلى المشنقة، ضربوا أمه التى كانت هناك، وجرجروها فوق التراب، تحت أعواد المشنقة، وتحت أشعة الشمس المحرقة، في ظهيرة ذلك النهار الذى كان شديد الحرارة، أخذت الأم تعوى كما يعوى الذئب أو الدب، وعندما بلغ التعب بالأم الشهيدة أقصاه، أخذت تندب ابنها وتقول: إنك يا ولدي لم تعش أكثر من سبعة عشر عامًا، وعندما صعدوا بالصبي البرئ ابن السابعة عشرة إلى المشنقة، ولفوا الحبل حول عنقه وشنقوه، تدلى جسم الشاب الجميل، وأخذ يتأرجح فى الهواء، كان وجهه مليئًا بالألم والعذاب، وفى

هذه اللحظة توقفت الأم عن البكاء والعويل، ثم تدحرجت على التراب، ولم «تندب» ابنها لسنوات عديدة بعد ذلك. كانت صرختها الأخيرة : سبعة عشر يومًا فقط. سبعة عشر يومًا يا ولدي هي كل فرحتي بك»..

هذه هي قصيدة «كفافى» عن دنشواي، وهي تعتمد على المعالجة الإنسانية للمأساة، وليس المعالجة السياسية، فالقصيدة تتحدث عن عدوان على الحياة، والحياة يمثلها الشاب البرئ ابن السابعة عشر، بجسمه الجميل الملئ بالصحة والعافية، والذى قضى عليه الإنجليز بالشنق ، ثم يتحدث الشاعر عن العلاقة بين الأم وابنها المشنوق، ويعتبر الأم هي «الشهيدة» رغم أنها لم تشنق مثل ابنها، وإنما بقيت حية، ثم يتحدث الشاعر عن اللوعة التى ملأت قلب هذه الأم، فهي لم تشعر أنها عاشت مع ابنها سبعة عشر عامًا، فقد كانت هذه الأعوام لسرعتها لا تزيد على سبعة عشر يومًا فقط. وهكذا كان إحساسهابعد أن اختطف الإنجليز ابنها منها وشنقوه أمام عينيها ، فالأعوام عندها لا تزيد على أيام.

وقد ذكرتني قصيدة «كفافي» بقصيدة عربية أخرى مشهورة عن دنشواي، وهي قصيدة «شنق زهران» للشاعر الكبير صلاح عبد الصبور، والقصيدة العربية تنحو منحى قصيدة «كفافي» ولكن صلاح بعد الصبور قد اختار لقصيدته شخصية أخرى غير الشخصية التي تحدث عنها «كفافي» من بين «شهداء دنشواي» وهذه الشخصية التى اختارها شاعرنا العربي هي شخصية الفلاح المصري الشاب محمد درويش زهران وللمقارنة بين القصيدتين مجال آخر غير هذا المجال، ولكن الذي لا شك فيه أن صلاح عبد الصبور قد تأثر في قصيدته الجميلة بقصيدة كفافي وسار على نهجها [١] .

وننتقل بعد ذلك إلى مشروع » قصيدة أخرى مستوحاة من الأحداث المصرية التى عاصرها كفافي، كما عاصر حادثة دنشواي، ولكن الشاعر الكبير لم يكتب هذه القصيدة، فقد تم العثور في أوراق «كفافي» بعد وفاته عل ملف كامل من قصاصات الصحف حول شخصية الشاب المصري

(١) قارنت بين قصيدة كفافي وقصيدة صلاح عبد الصبور بالتفصيل في كتابي «ثلاثون عامًا مع الشعر والشعراء» فليرجع إليه من يشاء الوقوف علر التشابه بين القصيدتين».

«إبراهيم الورداني» الذى قام باغتيال «بطرس باشا غالي» رئيس وزراء مصر في ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠، وكتبت «الأهرام في اليوم التالي لهذه الحادثة تقول:

«أمس ، الأحد ، اهتزت البلاد كلها لإطلاق ست رصاصات على عطوفة رئيس النظار «الوزراء» بطرس باشا غالي، وهو خارج من نظارته «أى وزارته» يستعد لركوب عربته، أطلقها عليه فتى اسمه إبراهيم الورداني» وهو صيدلي في الثالثة والعشرين من عمره فقبض عليه في محل ارتكاب الجريمة وربط بحبل، وسجن في إحدى غرف نظارة الحقانية «وزارة العدل فيما بعد» واستلمه سعادة النائب العمومي للتحقيق معه..»

هذا هو نص ما كتبته «الأهرام» عن الحادثة.

وبعد محاكمة الورداني صدر الحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم، وقد جمع شاعرنا «كفافى معلومات كثيرة عن هذه الحادثة وعن شخصية الورداني استعدادًا لكتابة قصيدة، ولكنه لم يكتب القصيدة وإنما كتب في مذكراته يقول:

«تعاطف الشعب المصري مع الورداني بدافع الإشفاق عليه وليس بدافع الموافقة على جريمة الاغتيال التي قام بها، وبعد إعدام هذا الشاب سيئ الحظ اجتاحت مصر مظاهرات تعبر عن التعاطف معه، وظهرت قصائد فى مديحه، ولبس طلاب المدارس العليا رباط عنق أسود، وزار الناس قبره بالآلاف، وألقوا الخطب المليئة بالعاطفة، وكان الكثيرون بزورون القبر وهم يحملون الورود».

ويحدثنا الأستاذ محمد سيد كيلاني في كتابه «فصول ممتعة» عن مظاهر الاهتمام بالورداني فيقول:

نظم بعض المتهورين الشعر العامي في الإشادة بالورداني، وقد انتشر هذا الشعر في طول البلاد وعرضها ومنه «ياميت صباح الخير علي وردانى» وقد نشطت الحكومة في منع تداول هذا الشعر، ونشرت الصحف أن رجال

البوليس ضبطوا ثلاثة يلحنون مديح الورداني على نغمات الموسيقى، كما قبض البوليس على شاعر اسمه رفعت لأنه نشر قصيدة مطلعها:

أسـفت على الرياض غـداة صـارت
مـجـرد من الورد النضـيـر

وقد اتهمت الحكومة هذا الشاعر بأنه لا يتحدث عن الورد وإنما عن الورداني. وكان العامة يذهبون سرًا إلى قبر الورداني متصدقين على روحه طالبين له الرحمة والمغفرة، كما ذكرت الصحف أن والدة الورداني ذهبت إلى قبر ابنها في يوم الجمعة لتوزع الصدقات، ترحمًا على روحه، فتتبعها نحو ألفى شخص، فأرسلت الحكومة رجال البوليس فرسانًا ومُشاة لتفريق الجماهير..»

هذا ما رواه الأستاذ محمد سيد كيلاني في كتابه «فصول ممتعة»، وتلك هي قصة الورداني التي كانت مشروعًا لقصيدة أراد كفافي أن يكتبها ، وفكر فيها طويلاً، واستعد لذلك على طريقته في جمع المعلومات عن موضوعه، ثم لم يكتبها، ولا أرى تفسيرًا لعدم إنجاز هذه القصيدة إلا أن «كفافي» لم يجد حلاً فنيًا وإنسانيًا للتناقض بين تعاطفه مع «إبراهيم الورداني» وبين رفضه للعنف والاغتيال كوسيلة للتعبير عن الرأي.

نواصل رحلتنا مع شعر «كفافي» فنتوقف أمام قصيدة بديعة له عنوانها «في انتظار البرابرة» وهذا هو نص القصيدة من ترجمة الدكتور نعيم عطية مع بعض التصرف في بعض الألفاظ:

«ما الذي ننتظره ونحتشد له في السوق ؟ إن البرابرة يصلون اليوم. وفي مجلس الشيوخ لماذا هذا الإعراض عن العمل، لماذا جلس الشيوخ صامتين وتوقفوا عن سن التشريعات والقوانين؟ لأن البرابرة يصلون اليوم. فما الجدوى من أن يسن الشيوخ التشريعات والقوانين، طالما أن البرابرة عندما يصلون سوف يقومون بهذه المهمة، لماذا صحا الامبراطور مبكرًا هذا الصباح، وجلس عند البوابة الكبيرة على عرشه، مرتديًا تاجه وزيه الرسمي؟. لأن البرابرة سوف يصلون اليوم، والإمبراطور في الانتظار، ليكون في استقبال زعيمهم ، وقد أعد الإمبراطور العدة كي يمنح هذا الزعيم

شهادة فخرية يضفي عليه فيها بعض الرتب والألقاب. لماذا خرج كبار المسئولين فى ملابسهم الحمراء الموشاة بالزخارف ؟ لماذا لبسوا أساور ذات جواهر قرمزية وخواتم من الزمرد البراق؟ لماذا يمسك كل واحد منهم عصا ثمينة موشاة بالذهب والفضة ؟ .. لأن البرابرة يصلون اليوم إلى المدينة، ومثل هذه الأشياء تبهر البرابرة. لماذا لا يجئ الخطباء المفوهون مثل كل يوم ليقوموا بإلقاء خطبهم الرنانة، ويقولوا ما تعودوا أن يتشدقوا به من كلمات؟.. لأن البرابرة يصلون اليوم، وهم يشعرون بالملل من الخطب وتضجرهم البلاغة»

وبعد هذه اللوحة البارعة الحية ينتقل «كفافي» في قصيدته الرائعة إلى اللحظة الساخرة الكبيرة فيقول:

«لماذا يظهر فجأة هذا الانزعاج وهذا القلق؟ ولماذا يرتسم الجد على الوجوه؟ لماذا أقفرت الشوارع والميادين، وعاد الجميع إلى بيوتهم مسرعين وقد استبد بهم التفكير؟.. لأن الليل قد أقبل، ولم يظهر البرابرة، ووصل البعض من الحدود، وقالوا: إن البرابرة لم يعد لهم وجود..

ماذا سنفعل الآن بدون برابرة ؟ .. لقد كان هؤلاء البرابرة نوعًا من الحل»

هذا هو نص قصيدة في (انتظار البرابرة) وهي قصيدة ذات معنى إنسانى جميل، وقد أصبحت من أشهر القصائد فى الأدب العالمي المعاصر، ويمكن تفسيرها على وجوه متعددة، ولكن أطرف تفسير لها هو ذلك التفسير الذي سجله الناقد المؤرخ «ليدل» في كتابه عن كفافي «ص٨٦» ونسبه إلى أحد النقاد اليونانيين، ويقول هذا التفسير الطريف:

«أن كفافي كتب قصيدة في (انتظار البرابرة) في ديسمبر سنة ١٨٩٨، وقبلها بثلاثة شهور، كان كتشنر قد هزم آخر أنصار المهدي في أم درمان بالسودان وكانت مصر في ذلك الوقت تخشى هجومًا من أنصار المهدي عليها، فالمدينة في القصيدة حسب هذا التفسير هي الإسكندرية، والسوق هي سوق المدينة، والشيوخ هم قناصلة الدول الأجنبية فيها، والقضاة هم قضاة المحاكم المختلطة، أما الإمبراطور فهو الخديوي عباس الثاني، الذي قيل أنه كان يجلس على باب المدينة ليرحب بالغزاة، ويمنح الألقاب لخلفاء

المهدى الذي كان قد توفى سنة ١٨٨٥ بعد إشعال ثورته المعروفة ضد الإنجليزي في السودان».

وهذا التفسير للقصيدة هو كما أشرت تفسير طريف، ولكننا لا نستطيع أن نسلم به تمام التسليم، لأن «كفافي» قد أعطى لقصيدته معنى إنسانيا عامًا هو إنكاره للخمول والاسترخاء والغرق في الزينة والزخارف، والحرص الزائد على مباهج الحياة، والابتعاد عن جوهرها، مما يؤدى في النهاية إلى الضعف والاستسلام لأي وافد قوي قادر على أن يسلب الناس شخصيتهم وإرادتهم ويفرض عليهم سلطانه ونفوذه. و هذا المعنى الإنسانى أقرب إلى روح القصيدة من ذلك المعنى الطريف المحدود، الذى يجعلها قصيدة من قصائد الظروف والمناسبات.

وأخيرًا أتوقف عند قصيدة رائعة أخرى من قصائد كفافي عنوانها «الإله يتخلى عن أنطونيو» ، وهذه القصيدة لا تحتاج إلى تعليق طويل، فهي واضحة وممتعة، والشاعر يتحدث فيها عن «انطونيو» بعد هزيمته هو و«كليوبطرة» أمام «اكتافيوس» في معركة «اكتيوم» البحرية سنة ٣٢ قبل الميلاد، وبعد هذه الهزيمة اقترب «انطونيو» من نهايته وتأكد منها، والشاعر يستحضر هذه اللحظة في حياة انطونيو، ويدعوه فيها إلى التماسك والقوة والكبرياء، وأن يعود بذاكرته في لحظات النهاية إلى الأيام البهيجة التي عاشها في مدينته «الإسكندرية» فهذه اللحظات هي آخر أفراحه قبل الرحيل.

وهذه ترجمة لمعاني القصيدة عن النص الذي قدمه «ادموند كيلي» وفيليب شيرار في الترجمة الإنجليزية لديوان «كفافي ص ٧٢:

«عندما تستمع فجأة في منتصف الليل إلى فرقة موسيقى تمر في الطريق دون أن تراها، وهي تعزف ألحانها وتؤدى أغانيها، ثم تبتعد عنك قليلاً قليلاً.. حين تسمع هذه الفرقة الموسيقية الغريبة، فلا تبك حظك الذي يخونك الآن، ولا تندم على ما وقع في حياتك من أخطاء، أو على خططك التي أخفقت في آخر الأمر.. لا تتوجع دون جدوى، وتصرف مثل رجل استعد طويلاً لهذه اللحظة.. رجل ممتلئ بالشجاعة، قل : وداعًا لها ..

للإسكندرية التي تفلت من يديك الآن، وقبل كل شيء لا تخدع نفسك، لا تقل إن الأمر كان حلمًا، وأن ما سمعته كان وهمًا، لا تنزل من قدر نفسك بالآمال الخادعة، وتصرف مثل رجل استعد طويلاً لهذه اللحظة، رجل كان من حقه يومًا أن يمتلك هذه المدينة، وكان جديرًا بها، اذهب بثقة وثبات إلى النافذة. وأنصت بمشاعر عميقة، ولا تسقط في التوسلات والشكوى، مثلما يفعل الضعفاء والجبناء، أنصت إلى هذه الفرقة الموسيقية الغريبة التى لا تراها . هذه نشوتك الأخيرة، فأنصت، وقل وداعًا لها.. للإسكندرية التى تضيع منك إلى الأبد...».

وأنطونيو في هذه القصيدة ليس هو أنطونيو وحده، بل هو كل إنسان يتعرض لمحنة من محن الحياة، ويكون عليه ألا يفقد شجاعته وإرادته، بل أن يصبر ويتحمل ويواجه محنته في ثبات والقصيدة لا تقوم على النصيحة والموعظة، فالفن الجميل لا يعرف النصائح والمواعظ، ولكنه يؤدى رسالة أخرى هى مساندة روح الإنسان وتقويتها ، حتى تكون قادرة على مواجهة المصاعب والمتاعب، والوقوف فى وجه العواصف والأزمات.

●●●

الإنسان والسلطان

لو ألقينا نظرة عابرة على تاريخ الإنسانية.. فسوف نجد أن ثلاثة أرباع هذا التاريخ - على الأقل - كان خاضعًا لسلطان الطغاة والمستبدين . ولم تعرف الشعوب معنى الحرية إلا بعد ظهور فكرة الديمقراطية في العصور الحديثة.

وقد امتلأ التاريخ بنماذج عجيبة ومتنوعة من الطغاة فلويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥) كان يقول في صراحة ووضوح : أنا الدولة. وليس على الشعب إلا السمع والطاعة، وقد ذهب كروميل الإنجليزي إلى البرلمان وطرد أعضاءه منه وقال لهم : «أخرجوا من هنا. كفاية ثرثرة» ثم علق لوحة على باب البرلمان الإنجليزي تقول : «غرفة غير مفروشة للإيجار» وكان ذلك سنة ١٦٥٣ . أما نابليون (١٧٦٩ - ١٨٢١) فقد انفرد بالسلطة فى بلاده فى أوائل القرن التاسع عشر وأشعل الحروب وقلب الدنيا رأسًا على عقب، وضج منه الناس في حياته ثم كادوا يؤلهونه بعد وفاته .. ولعله هو نفسه قد ضاق بنفسه أحيانًا فكان يقول : «ألم يكن من الأفضل ألا أكون قد ولدت؟!»..

ونمضى مع مسيرة الطغيان لنجد بعض صوره العجيبة فى أمريكا اللاتينية، التى يقال عنها أنها تقدم طاغية كل عشر سنوات، ومن هؤلاء الطغاة «بلانكو» حاكم فنزويلا في أواخر القرن الماضى، فعندما كان هذا الطاغية على فراش الموت قال له «القسيس» : يا بني سامح أعداءك. فرد الطاغية بقوله: لا أستطيع أيها الأب. وعاد القسيس يقول في دهشة: كيف ذلك يا بني ؟ فقال الطاغية ببساطة : ليس لى أعداء .. لقد قتلتهم جميعًا!

وتختلط صورة البطل بشخصية الطاغية كما هو الحال مع «بوليفار» ، زعيم أمريكا اللاتينية (١٧٨٣ - ١٨٣٠) والذي كان يقول: إن الديمقراطية المطلقة كالاستبداد المطلق ، كلاهما طغيان.

هذه نماذج من طغاة التاريخ وهم كثيرون، ولهم في طغيانهم مدارس ومذاهب وأساليب مختلفة، وقد لفتت هذه الظاهرة نظر الشاعر اليوناني الإسكندراني الجميل قسطنطين كفافي (١٨٦٣ - ١٩٣٣) فهذا الشاعر الكبير استطاع أن يقدم في عدد من قصائده رؤية نبيلة لمشكلة الإنسان والسلطان، وفي هذه الرؤية فإن السلطة إذا كانت قائمة على الطغيان جنت على نفسها وجنت على الناس، أما إذا كانت السلطة عادلة ورحيمة فإنها تملأ الحياة بالتفاؤل والبهجة والحماس، وتخلق بين الناس علاقات طيبة حميمة ليس فيها عنف أو عدوان، والسلطة الطاغية تخلق معها مناخًا مشجعًا لظهور النفاق والمنافقين، وتدفع الناس إلى التصرف فى مكر ودهاء، التماسًا للنجاة بأنفسهم من مخاوف الطغيان، أما السلطة العادلة فهي قوة لأصحابها وللناس أجمعين.

وقد أتفق الباحثون والعلماء على أن التاريخ يبدأ منذ حوالى سبعة آلاف سنة على التقريب، وما هو سابق على هذه الفترة هو «ما قبل التاريخ». والفرق بين التاريخ وما قبل التاريخ هو الكتابة، فمنذ أن ظهرت الكتابة بدأ التاريخ، وأخذ الإنسان فى تسجيل ما يحدث له من وقائع. وقد بدأت الكتابة بالنقش على الحجر، وذلك قبل أن يكتشف الإنسان أدوات الكتابة الأخرى ومنها الورق والقلم، وأى نظرة عامة على التاريخ المعروف سوف تؤكد لنا ما سبقت الإشارة إليه من أن الطغيان قد ساد في معظم فترات التاريخ الإنساني، ولم يبدأ الإنسان في التخلص من ظاهرة الطغيان إلا في العصور الحديثة، والفضل في ذلك يعود إلى تلك الفكرة الساحرة وهي فكرة الديمقراطية. فالفكر الديمقراطي هو الذي حمل راية تحرير الإنسان من كل القيود التي كانت تجعل منه فريسة سهلة لكل متسلط طاغية.. لذلك فإن الديمقراطية تستحق أن نقول عنها إنها أعظم فكرة عرفتها الإنسانية. وهذه الفكرة تستمد جذورها من الأديان السماوية ومن كل الجهود الكبرى التي بذلها المصلحون وأصحاب الضمائر الحية من أجل خدمة الإنسان في عصور متتالية .. وروح الديمقراطية تقوم على المبدأ الذى ينادي بأن الناس

جميعًا قد ولدوا أحرارًا، وأن الاستبداد بهم والطغيان عليهم ليس من الإنسانية في شيء.

ظاهرة الطغيان هذه شغلت قلب شاعرنا «كفافي» لأنه قلب عامر بالرحمة والحنان تجاه الإنسان، لذلك فهو يقاوم في قصائده فكرة الطغيان، ويدعو في رقة وعذوبة إلى أن تكون العلاقة بين الإنسان والسلطان في كل مكان، علاقة قائمة على العدل والرفق والمودة والعون المتبادل، حتى يضمن الجميع سعادتهم وأمنهم ورضاهم عن أنفسهم دون خداع أو نفاق أو افتعال.

ونتوقف أمام نموذج للسلطان الذي يرفضه «كفافي» ويرى فيه نكبة على نفسه وعلى الإنسانية، وهذا النموذج هو الإمبراطور الروماني نيرون (٣٧-٦٨ ميلادية» ، وقد تولى السلطة في عام ٥٤ ميلادية، واستمر في السلطان حتى اضطراره إلى الانتحار سنة ٦٨ ميلادية، وكان عمره عند انتحاره واحدًا وثلاثين عامًا، وقد شهدت الإمبراطورية الرومانية في عصر نيرون ألوانًا من الطغيان الجنوني الذي حمل الشقاء والتعاسة للناس، وأدى بنيرون نفسه في آخر الأمر إلى نهاية مأساوية. وكلمة «نيرون» معناها القوي الشجاع، وربما كانت هذه الكلمة من أصل عربي هو النار، وليس عندي دليل علمي يثبت ذلك، ولكنه خاطر مر على بالي من مجرد التشابه بين الكلمتين.. ويستطيع علماء اللغة إثبات ذلك أو نفيه.

ونعود إلى نيرون وطغيانه ، لنجد أن التاريخ يقدمه كإنسان شديد الإعجاب بنفسه، والإعجاب الشديد بالنفس هو أول عناصر الاستعداد للطغيان في أى إنسان، ومنذ البداية كان «نيرون» مصابًا بهذا المرض النفسي، فقد كان يظن أنه من كبار الفنانين، فكان يكتب الشعر ويعزف ويغني ويمثل ويرقص، ولم يكن يمارس ذلك في قصره وبين حاشيته فقط بل كان يذهب إلى «الملاهي» العامة ويقدم فيها استعراضاته الغنائية والتمثيلية كأنه أحد المحترفين . وقد ذكر المؤرخ الأمريكي «ويل ديورانت» في موسوعة قصة الحضارة - الجزء العاشر - ترجمة محمد بدران - ص ١٤٠ وما بعدها :

«إن نيرون كان إذا ذهب إلى أحد الملاهي فإنه لا يسمح لأحد بالخروج أثناء تقديم استعراضاته حتى لو كان الخروج لعذر شديد».

وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء أطفالهن وهن في الملهى، وتظاهر بعض الرجال بالموت حتى يضطر الناس إلى حملهم للخارج وكانت هذه الأحداث الغريبة تقع لأن «نيرون» كان إذا دخل ملهى للغناء فيه - وهو إمبراطور - فإنه يستمر في الغناء من المساء حتى الصباح، وقد يستمر الحال على هذه الصورة «التعيسة» لعدة أيام متتالية. وقد وصل «نيرون» في طغيانه إلى حد دفعه إلى قتل زوجته بعد أن أحب امرأة أخرى، كما قتل أمه بعد أن اتهمها بالتآمر عليه، ويحدثنا المؤرخ «ويل ديورانت» عن ذلك فيقول:

«لقد بلغ جنون الطغيان بنيرون إلى أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها ومهدت له طريق الوصول إلى السلطة، وقد فكر أولاً في أن يقتلها بالسم، لكنها كانت قد حصنت نفسها بما تعودت أن تتناوله من الأدوية المضادة للسم. ثم حاول أن يقتلها غرقًا لكنها أنجت نفسها بالسباحة من السفينة التي تحطمت بتدبير ابنها، وطاردها رجال نيرون إلى دارها ، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم وهي عارية ، «ادفعوا سيوفكم في رحمي» . واحتاج قتلها إلى عدة طعنات، ولما رأي نيرون جثتها العارية كان كل ما قاله: لم أكن أعرف أن لي أما بمثل هذا الجمال. وذهب نيرون بعد ذلك إلى مجلس الشيوخ وألقى خطابًا قال فيه : أن أمه كانت تدبر مؤامرة لخلعه واغتياله، فلما انكشف أمرها انتحرت. وتقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير في سرور ظاهر، وأقبل أعضاؤه مجتمعين لتهنئة نيرون على النجاة من المؤامرة الوهمية، وحمدوا الله أن منحه برعايته وأنجاه من كل سوء.

على أن أكبر الجرائم المنسوبة إلى الطاغية نيرون هي حريق مدينة روما الذي أشتعل في ١٨ يونيو سنة ٤٦ ميلادية، وظل مشتعلاً لمدة تسعة أيام حتى أتى بصورة نهائية على ثلثي المدينة. وألقى نيرون تهمة إشعال الحريق على الأقلية المسيحية التى كانت قد اعتنقت هذه الديانة الوليدة.. واستخدم نيرون أبشع الأساليب للقتل وأكثرها بطشًا ضد هؤلاء المسيحيين،

فألبس بعضهم - كما جاء في قصة الحضارة - جلود الوحوش وتركهم لتلتهم الكلاب أجسام بعضهم، ودهن أجسام البعض بالمواد الملتهبة وأشعل فيها النيران لتكون هذه الأجسام مشاعل مضيئة في الظلام..

هذا هو «نيرون» الذي يمثل أكثر صور الطغيان وحشية، والذى لم يكن في قلبه أي رحمة للناس، حتى لو كانوا من أقرب المقربين إليه، ولم يتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم لكي يحتفظ بالسلطة، ولكن قانون العدالة الإلهي كان يقتضي بأن ينتهي مثل هذه الطاغية المتوحش نهاية مأساوية، فقد حاصره أعداؤه الذين قرروا التخلص منه، فهرب إلى بيت قديم، وعندما أدرك أنه لن يفلت من أيدى الذين يطاردونه، ورفض الجميع مساعدته، اضطر إلى الانتحار في جبن وذعر شديدين ولم يفارقه غروره التافه في هذه اللحظة القاسية من لحظات حياته فقال عن نفسه قبل أن يموت : «ما أعظم الفنان الذي سوف يخسره العالم بموتي!!».

أختار الشاعر «كفافي» هذا الطاغية الروماني الذي أعمته شهوة السلطة ليكتب عنه قصيدته الجميلة «نهاية نيرون»، وكالعادة فإن شاعرنا «كفافي» لا يثقل قصيدته بالتفاصيل الكثيرة عن حياة «نيرون» ، لكنه يختار لحظة واحدة من حياته، ويقدم لنا من خلال هذه اللحظة صورة حية لطغيان نيرون، وللنهاية المفجعة التي يقوده إليها هذا الطغيان، فنحن نرى «نيرون» في هذه القصيدة وهو مستعد تمام الاستعداد لخداع نفسه، والاستسلام للآمال الكاذبة، ونراه عاجزًا كل العجز عن الإحساس بأثر تصرفاته الوحشية على الناس، كما نراه ميالاً إلى تصديق أقوال المنافقين الذين يقدمون إليه معسول القول بدافع الخوف منه أو الطمع فيه، وليس عن إيمانه به أو محبة صادقة له، ويزداد إغراق نيرون لنفسه في الملذات، ويتصور أنه قادر على منع الكارثة القادمة إليه بقوة بطشه وطغيانه، ولم يفكر أبدًا في تحمل مسئولياته، وأداء واجبات منصبه الخطير كإمبراطور للرومان، أقوى شعوب الأرض في ذلك العصر، ولم يكن عادلاً أو رحيمًا، ولم يتعلم الاحتياط والحذر في مواجهة المشكلات العديدة التي تحاصره، وشرب من خمر النفاق حتى سكر، وأصبح أسيرًا للأوهام والخيالات.

و«نيرون» في قصيدة «كفافي» يستمع إلى «المنجمين» الذين يقولون له: أحذر سنة ثلاثة وسبعين من العمر وهؤلاء المنجمون لم يفسروا عبارتهم لنيرون، ولم يقولوا له شيئًا أكثر من ظاهر العبارة، وربما كانوا عامدين في وقوفهم عند هذا الحد لأنهم يعرفون طبع نيرون المحب لمعسول الكلام، والذي يميل إلى خداع نفسه لينعم بالحياة دون أى منغصات أو آلام، لذلك فإن نيرون الذي كان آنذاك في الثلاثين عمره يفسر عبارة المنجمين التي تقول له : أحذر ثلاثة وسبعين من العمر على أنه سوف يعيش ثلاثة وسبعين عامًا في موقعه، ومتمتعًا بكل سلطاته وبطشه وجاهه، ويقول لنفسه: مازال أذن أمامي وقت طويل للاستمتاع بالحياة والسلطان.. ومازالت أمامي رحلة طويلة تمتد من الثلاثين إلى الثلاثة والسبعين. على أن نيرون لم يكد يقضي عامًا واحدًا بعد ما سمعه من المنجمين حتى وجد نفسه أمام جيش ضخم يقوده «جالبا» الذي كان آنذاك في الثالثة والسبعين من عمره، وقد أحسن «جالبا» إعداد هذا الجيش سرًا لمحاربة نيرون والقضاء عليه، وعلى يد «جالبا» وجيشه تكون نهاية نيرون الذي اضطر إلى الانتحار بعد عام واحد من استماعه إلى العبارة التي كانت تحذره من السنة الثالثة والسبعين من العمر..

وهذه ترجمة لمعاني قصيدة كفافي «نهاية نيرون» عن النص الإنجليزي لمجموعة أشعار كفافي ص ٦١ :

«عندما زار نيرون المعبد ، قال له المنجمون احذر السنة الثالثة والسبعين من العمر، ولم يشعر نيرون بأى قلق، فهناك وقت طويل أمامه، لكي يسعد نفسه ويملأ حياته بالمسرات، إنه الآن في الثلاثين، والعمر المقدر له مازال فيه بقية كافية لمواجهة ما قد يلقاه من أخطار في المستقبل. إنه يشعر الآن بعد رحلته إلى اليونان ، بقليل من التعب يتسلل إلى جسده، لكنه تعب ممتع، فقد كانت أيام الرحلة مليئة بالملذات، في المسارح والحدائق والملاعب، وكانت كل الأمسيات جميلة في المدن التي زارها. هكذا كان نيرون يفكر ويحلم، وكان هذا كافيًا لراحته وأكثر، وبهذه المشاعر والأحلام، التي ملأت عقله وقلبه، قرر أن يعود إلى روما، وفي أسبانيا كان «جالبا» يعد في السر جيشًا كبيرًا ويدربه، وكان «جالبًا» في الثالثة والسبعين».

وكما هي العادة، فإن «كفافي» في قصيدته «نهاية نيرون» يعتمد على خلفية تاريخية صادقة، فالوقائع الواردة في القصيدة ثابتة تسجلها كتب التاريخ الموثوق بها عن الإمبراطورية الرومانية، ومن هذه الوقائع: رحلة نيرون إلى اليونان، وانغماسه خلال الرحلة في التمتع والملذات، وتحذيرات المنجمين أو الكهنة له عند زيارته لمعبد «دلفي» اليوناني الشهير، ثم عودة نيرون إلى روما ليلقي نهايته منتحرًا بعد أن فوجئ بالقائد «جالبا» ابن الثالثة والسبعين ، وقد جاء بجيشه من أسبانيا للتخلص منه والقضاء على طغيانه، فمن العناصر الأساسية في شعر «كفافي» المعتمد على أحداث التاريخ أن الشاعر الكبير لا يستند على وقائع خيالية، بل هو يحرص على أن يستمد قصائده وتأملاته الشعرية دائمًا من قلب الصدق والحقيقة..

وعلى عكس شخصية نيرون يقدم لنا شاعرنا كفافي شخصية إمبراطور آخر كان حاكمًا على «بيزنطة» وبيزنطة هي «استنبول حاليًا، وكانت عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

واسم هذا الإمبراطور من الأسماء اليونانية الصعبة وهو «كومينينوس» ، وكان يحكم بيزنطة في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي. وتصور لنا قصيدة كفافي القصيرة الجميلة، تلك اللحظة التي جاء المنافقون فيها ليقولوا للإمبراطور إنه سوف ينعم بحياة طويلة وعمر مديد تملأه الصحة، وأن ما يعانيه الإمبراطور من الآلام سوف ينتهي ويزول ، وهؤلاء المنافقون هم موظفون يشغلون مراكز عالية في البلاط الإمبراطوري، ويتقاضون أجورًا، ويدافعون عن مصالحهم بالنفاق، لكن هذا الإمبراطور الطيب كان يدرك أن دبيب المرض في جسمه أقوى من أى شىء، وأن عليه أن يستعد للنهاية بنفس القوة والعزيمة اللتين كان يستعد بهما لمعاركه الحربية، لذلك فقد استبعد تمامًا كلمات النفاق التي حاولت أن تجره إلى عالم من الوهم والخداع، فخلع ملابس العز والسلطان والقيادة، ولبس ملابس متواضعة، واتجه بقلب خاشع مؤمن إلى مواجهة مصيره، ولم يخدع نفسه أو شعبه، ولم يفعل مثلما فعل الطاغية «نيرون» عندما تصور أنه من الخالدين، وأنه في أمان من قوة الأقدار والأحداث القادمة، وينهي الشاعر قصيدته بقوله :

«سعداء كل الذين يؤمنون. ومثل الملك إيمانويل ينهون حياتهم في ثياب متواضعة وفي إيمان صحيح..»

وإذا كان شاعرنا يرفض النفاق والطغيان كما في قصيدته عن نيرون، وينظر في محبة وتعاطف إلى التواضع والاعتراف بالحقيقة والصدق مع النفس والناس، كما في قصيدته عن ملك بيزنطة، فإنه يصور لنا حالة ثالثة من حالات «النفاق الأبيض» إذا صح التعبير، وهو نفاق يلجأ إليه الإنسان البسيط الذي لا حيلة له أمام السلطان القوى الذى لا يرحم ، والحقيقة أن هذا السلوك لا يدخل في باب النفاق بقدر ما يدخل في باب التحايل على الحياة .. وباب السلبية واللامبالاة، وهي كلها أساليب ترد بها الشعوب على الذين يقهرونها ويفرضون سلطانهم عليها بالعنف والقوة. ويلجأ الناس إلى هذه الأساليب لأنهم يشعرون أن الطغاة عابرون مهما طال الزمن، وأن الطغاة متشابهون في الجوهر ولا فرق بينهم، وأن البقاء في نهاية الأمور للشعوب التي هي أجدر بالحياة من كل الطغاة.

قصيدة كفافي اسمها «في مدينة بآسيا الصغرى» وتدور القصيدة حول معركة «اكتيوم» التي وقعت سنة ٣١ قبل الميلاد بين «أكتافيوس» من جانب و«أنطونيو» وكليوبطرة من جانب آخر وهي المعركة البحرية الحاسمة التي انتهت بهزيمة «أنطونيو» ، وكان أهل تلك المدينة قد أعدوا خطابًا لتمجيد «أنطونيو» الذي كانوا يتوقعون انتصاره، فهو لم يهزم في معركة من قبل على كثرة المعارك التي خاضها . . فلما جاءت الأنباء بانتصار «اكتافيوس» وهزيمة «أنطونيو» وضعوا اسم «اكتافيوس» المنتصر في خطاب المديح بدلاً من اسم «انطونيو» المهزوم، فلا فرق بين طاغية وطاغية، والمهم عند أهل هذه المدينة هو أن يتقوا شرور هؤلاء الطغاة، وأن يعيشوا في أمان، ويواصلوا حياتهم في سلام، وهذه ترجمة لمعاني القصيدة من الإنجليزية «مجموعة أشعار كفافي ص ٩٩».

«الأنباء الواردة عن معركة «أكتيوم» البحرية، هي بالطبع أنباء غير متوقعة، ومع ذلك فنحن لسنا بحاجة إلى تأليف خطاب جديد، ويكفي أن نقوم بتعديل بعض الكلمات من نفس الخطاب الذي أعددناه من قبل، بل إن

الشيء الوحيد الذي سوف يتغير في هذا الخطاب هو الاسم فبدلاً من أن نقول: إنك بتحريرك الرومان من وباء «أكتافيوس» الذي كان سخرية بين الأباطرة، سوف نقول: إنك بتحريرك الرومان من وباء «أنطونيو» الذي كان سخرية بين الأباطرة، وبعد ذلك يبقى الخطاب جميلاً كما كان ، وبدلاً من أن نقول: «إلى أعظم المنتصرين وأكثرهم بهاء، الفذ الذي يحالفه التوفيق في كل الحروب.. أنطونيو ذلك الذي كانت المدينة تدعو بإخلاص وحماس من أجل انتصاره..» سوف نضع اسم «اكتافيوس» بدلاً من اسم «انطونيو» ويستمر الخطاب كما كان : لقد كان «اكتافيوس» هو الهدية التي تنتظرها المدينة من السماء، «فأكتافيوس» هو الحامي العظيم للإغريق، والذي تجد التقاليد الإغريقية في ظله كل تمجيد، وهو المحبوب في كل المقاطعات، المستحق للثناء الرفيع، والذي سوف يتم - بالتفصيل - تسجيل أمجاده باللغة الإغريقية، شعرها ونثرها، هذه اللغة التي بها وحدها تطير الشهرة ويتحقق الخلود.. إلى آخره، إلى آخره. وبهذا يصبح كل شيء في الخطاب مناسبًا بصورة رائعة».

هذه هي معاني قصيدة «كفافي» في ترجمة أقرب إلى أن تكون حرفية، و هي قصيدة بديعة تقوم على التعاطف مع الناس عندما يتحايلون للابتعاد عن بطش الطغاة، وهي حيلة مفهومة وطبيعية تلجأ إليها الجماعات للدفاع عن نفسها، وتحاول عن طريق التغلب على المصائب والصعاب الناجمة عن وجود الطغاة الذين لا يعبأون بالناس فلا يعبأ بهم الناس وإنما يتقونهم إلى حين.

إن الروح السائدة في شعر «كفافي» هي روح إنسانية عالية تساند في دفء شديد كل معاني الحياة البسيطة الخالية من القهر والاستبداد، وهو يعبر عن أفكاره من خلال دراسته الواسعة الواعية للتاريخ اليوناني والروماني بكل ما فيه من تفاصيل دقيقة، مع الحرص علي معرفة خباياه وظلاله المتنوعة، مما ملأ ذهن الشاعر وقلبه بالوقائع والأحداث والشخصيات التاريخية والحضارية المتنوعة، وبعدها أخذ كفافي يبحث عن الشعر. فهو لم يدرس هذا التاريخ ويستوعبه ليكون مؤرخًا، بل لينتمي ويطمئن إلى أن له جذورًا في عالم له به علاقة روحية عميقة، ثم يكتب بعد

ذلك قصائده التي تستمد قوتها من تلك الجذور لذلك فإن «كفافي» لم يقم أبدًا بصياغة أحداث التاريخ من جديد صياغة فنية، بل وضع هذه المادة التاريخية أمامه ليختار منها اللحظات الشعرية التي تناسب موهبته وتتفق مع نظرته للحياة وتعبر عن هذه النظرة، وكثيرًا ما يلتقط «كفافي» سطرًا واحدًا من سطور التاريخ، أو حادثة هامشية بسيطة جدًا ليبني عليها قصائده الجميلة. ونستطيع أن نقول من ناحية أخرى إن الشاعر كان يعيش مع الأشخاص والأحداث التاريخية ليس على أنها أحداث سابقة أو شخصيات عاشت في الماضي ، بل على أنها أحداث حية وشخصيات معاصرة، فلم يكن ينظر إلى أنطونيو واكتافيوس ونيرون وغيرهم على أنهم أشخاص عاشوا في الماضي وتجمدوا على صفحات التاريخ، بل كان يعيش مع هؤلاء الأشخاص ويحاورهم ويتعرف على أفراحهم وأحزانهم وأخطائهم، وقد خرج من ذلك كله برؤية واضحة للتاريخ، فتاريخ الإنسان واحد، وما حدث في هذه الدنيا لا يموت بل يظل حيًا ومعاصرًا وله مغزاه المتجدد، والمعاناة الإنسانية واحدة في القديم والحديث على السواء، وبذلك اقترب الشاعر الكبير من الإنسان أعظم الاقتراب. وأصبح شعره يتضمن تجربة إنسانية عامة ، وقد أدرك كفافي دائمًا أن الأحداث التاريخية والتجارب الإنسانية مليئة بالتفاصيل . لكنها تتضمن لحظات شعرية رئيسية هي التي يهتم بها الشاعر ويعمل على اختيارها والتعبير عنها ، والباقى يهتم به المؤرخون والباحثون في الميادين الأخرى للعمل والمعرفة.

●●●

رابندرانت طاغور

(١٨٦١ - ١٩٤١)

سحر العيون

ليس صحيحًا أن المظاهر الخارجية في هذه الدنيا لا قيمة لها. فمن منا لم يتأثر يومًا بالملابس الأنيقة اللافتة للأنظار؟ ومن منا لم يشعر بالسعادة أمام كلمات المجاملة الرقيقة التي نسمعها من هؤلاء الذين يتقنون فن الحديث مع الناس وفن التعامل معهم؟.. ومن منا لم يسكر يومًا بسحر العيون الذكية، أو بكلمات ناعمة تتردد على اللسان وليس لها في القلب مكان؟ كل إنسان ينخدع بالمظاهر أحيانًا ويستسلم لسحرها وتأثيرها في بعض اللحظات. ولكن المظاهر التي تخدعنا لابد أن تكشف عن حقيقتها في أزمة من الأزمات. ذلك لأن حياة الإنسان مهما كانت سعيدة، فإنها لا يمكن أن تخلو من أوقات صعبة، وكل المظاهر الخارجية الجذابة لا تستطيع أن تصمد أمام متاعب الحياة، فهذه المظاهر تذوب مثل الجليد عندما تسطع عليه أشعة الشمس القوية . والإنسان عندما تزداد تجاربه في الحياة فإنه يصبح قليل الثقة في كل المظاهر الخارجية، مهما كان لها من جاذبية ومهما كان فيها من سحر وبريق، ذلك لأن التجارب الكثيرة تجعل للقلب عيونًا قادرة على النفاذ إلى أعماق الأشياء، فلا تغريها المظاهر الخارجية، لأن عيون القلب التي عرفت الحياة معرفة صحيحة تظل تبحث عن شيء أبعد من المظاهر، ولا تستريح عيون القلب الإنساني إلا إذا وجدت شيئًا حقيقيًا وراء هذه المظاهر الخارجية.

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاهل هذه المظاهر، ولا نستطيع أن نقول إنها عديمة التأثير في النفوس، خاصة عندما نلتقى مع هذه المظاهر لأول مرة ، فلا شك أن اللقاء الأول مع المظاهر الخارجية يترك أثره فينا. ثم تمر الأيام ، وتقوم التجارب الكبيرة بفحص هذه المظاهر واختبارها، وبعد هذه التجارب تنكشف أمامنا الحقيقة، حيث نستطيع أن نعرف بوضوح ما في كل هذه المظاهر من صدق أو خداع.

وهذه مسرحية من فصل واحد للشاعر والكاتب الهندي الكبير طاغور (١٨٦١ - ١٩٤١) واسمها «شيترا» واسم المسرحية هو اسم البطلة، وتدور المسرحية كلها في عذوبة ورقة وإنسانية وعمق حول الصراع بين المظهر الخارجي للإنسان وحقيقته الأصلية، وتطرح المسرحية سؤالاً تجيب عنه ولا تتركنا حائرين . أما السؤال فهو : هل جمال المرأة هو سر الحب الذي يملأ قلوب الرجال؟ أو أن هذا الجمال ليس سوى مظهر خارجي لا يكفي أبدًا لكي يولد الحب، ولكي يستمر ، وتستمر معه سعادة قلبين لا يفترقان بعد أن تنشأ بينهما شرارة العاطفة الصادقة ؟ والإجابة التى يقدمها الشاعر العظيم «طاغور» في مسرحيته الصغيرة العذبة هي أن جمال المرأة قد يكون كافيًا لتحريك القلب بالحب، ولكنه لا يكفي أبدًا لكي يستمر هذا الحب، ولكي يستطيع الحبيبان أن يضعا يديهما مع بعضهما البعض على طول الطريق الصعب للحياة الإنسانية، فسحر العيون لابد أن يحرك العواطف الأولى في نفس الإنسان، ولكن سحر العيون لا يكفي وحده لأن يكون قوة يعتمد عليها الإنسان في جهاده وكفاحه، فإن كانت المرأة جميلة وضعيفة الشخصية، متقلبة في مشاعرها، سريعة التأثر بأحداث الحياة بحيث لا تستطيع الصبر في محنة أو تجربة من التجارب الصعبة.. إذا كانت المرأة الجميلة من هذا المعدن الذي يتعرض للكسر السريع، فما قيمة الجمال الذي تملكه بالنسبة لها أو لغيرها ؟ وعلي العكس من ذلك، إذا كانت المرأة قوية في روحها وعقلها وإرادتها . فإن هذه القوة هي «الجمال الحقيقي» الذي تعشقه كل الأرواح الطيبة وتسعى إليه وتتمسك به، وهذا الجمال في النفس والروح والشخصية هو الجمال الذي يبقى مع الأيام ويزداد نضارة وسحرًا، لأن الجمال الخارجي يخضع لسطوة الزمن وقسوة الأيام فيتغير، أما الجمال الداخلي الذي يتميز به القلب ويكون مرتبطًا بالشخصية الإنسانية فهو الجمال الذي يبقى وينمو ويدوم.

ونعود إلى مسرحية «شيترا» الجميلة والتي تقدم لنا إجابة «طاغور» العظيم عن السؤال الأبدي حول معنى الجمال في الإنسان.. وهل هو جمال

الوجوه وسحر العيون أو أنه جمال الروح والشخصية والقلب الصادق الأمين؟.

إن «شيترا» في مسرحية «طاغور» فتاة من «بيت ملكي» وعدت آلهة الهند أجدادها بأن ترزقهم بسلالة قوية من الأبناء وليس من البنات، ولكن الكلمة المقدسة عجزت عن تغيير شرارة الحياة في رحم الأم، فخرج المولود بنتًا ولم يخرج ولدًا، ومع أن «شيترا» قد ولدتها أمها «أنثى» فقد جاءت إلى الحياة قوية مثل الرجال ، ومسرحية «طاغور» تدور في جو أسطوري هندي، ومن هنا فإن «شيترا» المولودة مثل الرجال تذهب إلى إله الحب فى الأساطير الهندية واسمه «مادانا» وتشكو له أمرها، فقد أنشأها أبوها «تنشئة البنين وعلمها كيف تحمل السلاح، وألبسها أزياء الرجال، وأخرجها من العزلة التي تعيش فيها النساء، وهي تقول عن نفسها عندما تشكو أمرها لإله الحب:

«إنني أجهل مكر النساء في اجتذاب القلوب، وأنا قوية في حمل السلاح، ولكنني لم أتعلم كيف أرمي القلوب بسهام الحب وسحر العيون».

ولكن لماذا تشكو هذه المرأة «المسترجلة «لإله الحب»؟ لابد أن يكون وراء ذلك سبب قوي. وماذا يمكن أن يكون هذا السبب غير الحب نفسه؟ لقد عاشت «شيترا» حياتها «الرجالية» وهي لا تشعر بالقلق من ذلك بل كانت مظاهر «الرجولة» في شخصيتها مصدر سعادتها، وكان ذلك أيضًا مصدرًا لسعادة أهل قريتها الذين وجدوا فيها قوة تحميهم من اللصوص والمجرمين ممن كانوا يقومون بالاعتداء على الآمنين ما داموا لا يجدون من يردعهم ويقف في وجه عدوانهم، وكانت «شيترا» هي القوة التي تخيف هؤلاء اللصوص والمجرمين، وتمنح القرية أمنها وقدرة أهلها على النوم في سلام واطمئنان.

وقد اندلعت شرارة الحب في «شيترا» عندما رأت «أرجونا» وهو مثلها من سلالة ملكية، وكانت تسمع الكثير عن قوته وفتوته، وكل ما خطر ببالها قبل أن تراه رؤية العين، هو أن تبارزه بالسلاح وتنتصر عليه وتثبت له في هذه المبارزة أنها «أرجل» منه!

وكانت «شيترا» قد سمعت عن «أرجونا» أنه نذر نفسه للعزوبة، أو عدم الزواج، لفترة تمتد إلى اثنى عشر عامًا. وقد اتخذ هذا القرار العجيب. رغم شبابه وفتوته، لكي يتمكن من التفرغ للتفكير والتأمل في أمور الحياة والإنسان والطبيعة والكون العجيب. فقد امتنع عن كل مسرات الحياة وابتعد عنها لكي يحاول أن يفهم بعض الأسرار الغامضة المستعصية على الإنسان منذ قديم الزمان، إنه يحاول أن يعرف ما لم يعرفه أحد من قبله ولا من بعده وهو : لماذا خلق الله الإنسان في هذه الحياة، ولماذا يشقى الإنسان ويتعب في هذه الدنيا، رغم أن نهايته معروفة ومصيره محتوم وهو الموت؟ من أجل هذا الهدف النبيل أعتزل الفتى الجميل القوي الذي جاء إلى هذه الحياة من سلالة ملوك أقوياء كان يريد أن يعرف فقرر الاعتزال، وقرر ألا يتزوج لمدة إثنى عشر عامًا، ولعله في هذه الفترة يستطيع أن يضع يده على أسرار الحياة الغامضة ، وذات يوم رأته «شيترا» المسترجلة فاهتز قلبها وأصابها «سهم» الحب في أعماقها ، وأحست لأول مرة أنها امرأة!

تقول «شيترا» :

«.. وفي اليوم التالي بعد أن رأيت حبيبي «أرجونا» خلعت عني ثياب الرجال، ولبست القلائد ، و«الخلاخيل» والأساور، ولبست أيضًا ثيابًا من الحرير، وذهبت إليه، وكانت كلماته الأخيرة لي «لقد نذرت نفسي للعزوبة فلا أصلح أن أكون زوجًا لك»، وكانت تلك الكلمات كالإبرة «المحمية» في النار تخرق أذني بقسوة وأنا في طريقي عائدة إلى بيتي».

ثم تقول «شيترا» وهي تشكو أمرها لإله الحب «مادانا»:

«إنك. وأنت إله الحب. لتعلم علم اليقين أن قديسين وحكماء لا يحصيهم العدد قد وضعوا أنفسهم تحت أقدام امرأة، بعد حياة طويلة في العزلة والتقشف.

ثم تواصل «شيترا» شكواها إلى إله الحب فتقول :

«لقد كسرت أسلحتى وألقيت بها بعيداً عني، وكرهت ذراعي القوية المدربة على استخدام هذه الأسلحة فيا أيها الإله.. يا إله الحب. لقد شعرت بأن «رجولتي» المزيفة هي إذلال لقلبي، وكرهت كل ما تربيت عليه من تدريبات

الرجال، فعلمني الآن دروسك، وسلحني بقوة الضعيف وأعطني سلاح اليد العزلاء التي لا تحمل السلاح».

ثم قالت «شيترا» لإله الحب في كلمات تشبه الشعر الصافي والموسيقي العذبة لأنها كلمات صادرة من قلب عاشق :

«لو اتسع أمامي الوقت لجعلت قلب حبيبي يخضع لي شيئًا فشيئًا، وما كنت أرتاح للاستعانة بإله الحب. كنت ذهبت إليه في ثيابي الرجالية وبقيت إلى جانبه على أننى رفيق له، أقود جياد مركبته الحربية، واقف على باب خيمته طول الليل لحراسته، ، وأعينه على كل واجباته التي فرضها على نفسه كجندى نبيل، فأنقذ الضعفاء وأقيم العدل في كل مكان يجب أن يقام العدل فيه ، ولا شك أنه سيجئ يوم يقول فيه وهو يتعجب : «من هذا الفتى؟ لعله عبد من عبيدي الذين خدموني في أيامي الماضية، ثم اقتفى أثري وسار ورائي كأنه عمل من أعمالي الصالحة». لست أنا بالمرأة التي تتغذي بصمت الوحشة واليأس، أو ترضع الدموع وهي تبكي طيلة الليل، ثم تغطى أحزانها بابتسامة صابرة طيلة النهار، فكأنها «أرملة» منذ الولادة، لن تسقط زهرة آمالي على الأرض، قبل أن تنضج الثمرات: إلا أنه لكي يتمكن المرء من تعريف الناس بحقيقته فيتعاملون معه بالاحترام الكامل فإن على الإنسان أن يسعى إلى ذلك طيلة حياته».

وهكذا أعلنت «شيترا» العاشقة لإله الحب أنها على أتم الاستعداد لأن تبذل جهدها من أجل أن يعرف حبيبها حقيقة نفسها، فالحب الحقيقي، مثل كل هدف نبيل في الحياة، لا يمكن أن يتحقق بدون جهد وإرادة قوية وصبر شديد وقدرة على احتمال كل المصاعب التي تقف في طرق هذا الحب. ولذلك طلبت «شيترا» من إله الحب طلبًا واحدًا.

فقالت له:

«يا إله الحب.. يا قاهر العالم.. ارفع عن جسمي ما فيه من مظاهر «الاسترجال» والقبح.. واجعلني جميلة لمدة يوم واحد.. اجعلني رائعة الجمال مثلما هو جميل ذلك الحب المزدهر في قلبي.. امنحني يومًا واحداً قصيراً من الجمال الكامل ولك منى الطاعة في كل أيامي الباقية».

واستجاب إله الحب في كرم وسخاء لضراعة شيترا العاشقة وقال لها:

«لن أمنحك يومًا واحدًا من الجمال فحسب.. بل سوف أجعلك جميلة، تكسوك أزهار الربيع لمدة عام كامل».

وتحولت «شيترا» المسترجلة، إلى امرأة جميلة فاتنة بقوة إله الحب القادر على أن يمنح الجمال لمن يشاء.

وكان جمال «شيترا» أقوى من كل جمال عرفته المرأة منذ ظهرت حواء فوق سطح الأرض. وتخلصت «شيترا» من كل مظاهر «الاسترجال» التي فرضتها عليها تربيتها الأولى، فقد كانت أمها لا تريدها «أنثى» بل كانت تحلم بميلاد ولد جديد لها . فجاءتها «شيترا» .. وكانت «ولدًا» فى صورة «امرأة» .

وحدث ما كان لابد أن يحدث فقد وقع «أرجونا» في هوى «شيترا» ، ولم يستطع أن يقاوم جمالها الذي منحه لها - بسخاء عظيم - إله الحب الكريم- .. وأخذ «أرجونا» يتغنى بجمال شيترا ويعلن حسده لمن يستطيع أن يمتلك قلبها وتكون بعد ذلك من نصيبه ، وبقيت «شيترا» الجميلة قريبة من حبيبها، تتحدث معه، وتكشف له عن أعماق قلبها، وبدأ حبيبها يدرك يومًا بعد يوم ذلك الجمال الداخلى فى شخصية «شيترا» وأخذت نفسه ترتاح إليها وتتعلق بها. أما هى فكانت غارقة في أحلامها السعيدة ولكن الخوف كان يعمل عمله في داخلها، لأنها تعرف أن جمالها الساحر ليس سوى هدية مؤقتة من إله الحب، وسوف تعود «الهدية» إلى صاحبها بعد عام واحد، وتعود «شيترا» إلى ما كانت عليه من استرجال وخشونة وكانت تحلم دائمًا بحبيبها وتقول عن أحد أحلامها أنها رأت حبيبها نائمًا وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة كأنها هلال على صفحة الصباح.

وكانت حمرة نور الفجر الوردى تتساقط على جبينه الكريم، فشعرت بالحسرة فقمت وأبعدت بيدي كل أوراق الشجرة التي سقطت على وجهه وحجبت عنه أشعة الشمس الساقطة عليه. وأخذت أتلفت حولي، فرأيت الأرض هي الأرض التي أعرفها منذ فتحت عيوني على نور الحياة وتذكرت ما كنت أنا عليه قبل أن يمنحني إله الحب هديته لأكون جميلة لمدة عام

واحد، وتذكرت أيضًا أن هذا العام سوف ينتهي عما قريب، فأخذت أجرى مثل غزالة مذعورة، في طريق من طرق الغابة، انتشرت على جانبيه أوراق الورد، ثم جلست وأنا أغطى وجهي بيدي «وحاولت أن أبكي وأصرخ .. ولكن دموعي تجمدت في عيني، وصراخي لم يخرج من فمي».

كان هذا حلمًا من أحلام الحبيبة الخائفة من أن تنكشف الحقيقة أمام حبيبها بعد أن تعلق بها، فيعرف أن حبيبته ليست بكل هذا الجمال الذي يراه الآن.

وتقول «شيترا» لإله الحب:

«لقد بلغت غاية المنى فى حياتي، وهي وصال الحب الأول. ولكن هذا الحب سوف يضيع مني، وسوف يسقط هذا الجمال المستعار عني، لأنه جمال كاذب أعيش في ظله.. نعم.. سوف يسقط هذا الجمال يومًا كما تسقط الأزهار في الخريف .. وسوف أجلس بعد ذلك في خجل لأبكي بالليل والنهار .. يا إله الحب.. إن هذا الجمال اللعين الذي يرافقني مرافقة الشيطان، يسلبني كنوز الحب جميعًا».

على أن الأيام كانت تخفي لقلب «شيترا» شيئًا آخر غير الذي كانت تخاف منه ، فيتعرف حبيبها من خلال «جمالها المستعار» على كل فضائلها الإنسانية الطيبة، ويقترب اقترابًا حميمًا من قلبها وروحها، ويتعلق بها، لا بسبب سحر عيونها وجمال وجهها، بل بسبب قوة روحها ، وذكاء قلبها، وطبيعتها الإنسانية النبيلة، وقدرتها الكبيرة على مساعدة الذين يحتاجون إلى مساعدتها. لقد أصبح حبيبها مفتونًا بجمال روحها، وهو جمال غير محدود وغير قابل لأن يزال كما يزال جمال الوجه والجسم، وعندما جاءت اللحظة الحاسمة وكشفت «شيترا» لحبيبها عن حقيقتها وزال عنها جمالها المؤقت كانت المفاجأة أن حبيبها قال لها:

«... يا حبيبتي لقد اكتملت حياتي الآن».

هذه خلاصة مسرحية «شيترا» التي كتبها «طاغور» شاعر الهند العظيم، ولها أكثر من ترجمة عربية، والترجمة التى اعتمدت عليها هي ترجمة

الأديب الأستاذ «فخري شهاب» . والمسرحية أغنية عذبة تقول لنا في سهولة ويسر، إن الاعتماد على المظاهر وحدها خطأ وخداع للنفس، وأن الجمال نوعان: جمال لا يدوم وهو جمال الوجه والجسم والمظهر، فلابد لهذا النوع من الجمال أن يتعرض مثل كل شيء «مادي» في هذه الدنيا للتغير والتحول، فحتى الزهور الجميلة لها عمرها المحدود، فهي ناضرة في الربيع، ذابلة عندما يأتي الخريف، أما النوع الثاني من الجمال فهو جمال القلب والشخصية والسلوك والعمل النافع، فهذا جمال يدوم ما دام الإنسان حيًا، وهو الجمال الذي ينتصر في النهاية، ويستطيع أن يتحمل مسئولية الحياة وما فيها من متاعب وأعباء وصعوبات ومنغصات . إنه جمال يعيش في ربيع دائم لا يعرف الخريف أبدًا.

إن سحر العيون قد يكون كاذبًا.

ولكن سحر القلوب لا يعرف الكذب.

●●●

على حافة الجنون

كثيرًا ما تفوتنا في زحام الحياة تفاصيل صغيرة ، يمكنها أن تمنحنا الكثير من الشعور بالراحة والهدوء والسعادة، لكننا للأسف لا نراها ولا نلتفت إليها. ولا شك أن الحضارة الحديثة رغم ما فيها من إنجازات لم تعرفها الإنسانية في كل تاريخها، هي حضارة الزحمة والضوضاء والسرعة وضيق الوقت بالنسبة للجميع، وفي هذا المناخ الصاخب يصعب على الإنسان أن يجد فرصة للتأمل الهادئ، ويصعب عليه أن يرى التفاصيل الصغيرة التي توجد حوله، ويمكن أن تعطيه لحظة من لحظات التفاؤل والنشاط الروحي، فماذا نرى حولنا وما الذى نستمع إليه غير أصوات الحروب والصراعات وخوف كل إنسان حتى من جاره وأخيه؟.

الجميع يتربصون ببعضهم البعض، والشكوك تملأ النفوس ، واستخدام السلاح في حل المشكلات أصبح أمرًا مألوفًا تلجأ إليه الجماعات والأفراد في سرعة شديدة ودون مراجعة أو تفكير، والنتيجة هي هذا الدمار الذى ينتشر في كل مكان، وهو دمار يحمل معه ألوانًا عديدة وقاسية من بؤس الإنسان وتعاسته.

فالعالم الذي نعيش فيه الآن يقف على حافة الجنون، وإذا كان المجنون مسلحًا بأقوى الأسلحة، فإنه يتصور أن جنونه هو أعلى درجات الحكمة والعقل والتفكير السليم.

والحقيقة المؤلمة هي أن العالم الحديث يخلو من «نظام روحي» ثابت وشامل يضبط الأخلاق العامة والفردية، ويستطيع أن يمنح الإنسان في حياته القصيرة مهما اتسعت وطالت، بعض اللحظات الطيبة السعيدة قبل أن تنطوي صفحة هذه الحياة، ويلتقي كل إنسان بمصيره المحتوم.

وفي قلب هذا الحريق الإنساني الهائل الذى نكتوى بآلامه ونيرانه ترتفع بعض الأصوات النبيلة، لتحاول أن تضع أيدينا على الينابيع الصافية للحياة، وهي للأسف أصبحت ينابيع محدود، لا يهتم بها إلا القليلون، رغم أن هذه الينابيع غنية ودائمة العطاء، وهي قادرة على أن تقدم لنا - لو أردنا - قطرات عذبة من السعادة الروحية الحقيقية التي نحتاج إليها في عصر «الجفاف العاطفي» الذي نعيش فيه.

من بين هذه الأصوات النبيلة صوت الشاعر الهندي العظيم «طاغور» (١٨٦١- ١٩٤١). وقد أشرت في الفصل السابق إلى مسرحيته الجميلة «شيترا» التي تحمل دعوة بسيطة وعميقة إلى الخلاص من عبادة المظاهر الخارجية والجرى وراءها ، وتدعو في صدق وعمق إلى الاهتمام بالشخصية الإنسانية وجوهرها الحقيقي البعيد عن المظاهر الزائفة.

فما قيمة الجمال الخارجي للمرأة إذا كانت شخصيتها مشوشة وذهنها ضعيفًا وقلبها مثل الحجر لا يحس بأى نوع من المشاعر النبيلة ؟ إن مثل هذا الجمال الخارجي ينطوي على قبح داخلي لا قيمة له ولا نفع فيه. وكذلك كل المظاهر الخارجية في الحياة والإنسان، فإذا لم تكن المظاهر ذات عمق ودلالة على ما وراءها من ذوق وإحساس ، وابتعاد عن القسوة والاستهتار، فهي مظاهر للشر، حتى لو كانت تحمل بريقًا يخطف العيون. والمجتمعات والأفراد الذين يجرون وراء المظاهر الخارجية يفقدون إنسانيتهم، ويعيشون في جحيم، ولا يمكن لهم أن يعرفوا للسعادة طعمًا أو قيمة.

هذا ما يدعونا إليه «طاغور» في مسرحيته «شيترا» وهو ما يدعونا إليه في قصائده الكثيرة التي تفيض بالإنسانية والمناداة بعودة الناس إلى بعض ينابيع الصفاء والحنان والرحمة والإحساس بجمال الحياة البسيطة. وقد هزت أشعار «طاغور» العالم في عصره، ولقيت ترجمتها إلى اللغات الأوروبية والعالمية المختلفة رواجًا كبيرًا . وفي سنة ١٩١٣ نال «طاغور» جائزة نوبل العالمية في الأدب، وكان أول شاعر من الشرق ينال هذه الجائزة التي اقتصرت على الأدباء الغربيين قبل أن تصل إلى «طاغور» وكرمته

إنجلترا فأعطته لقب «سير» لكنه أعاد اللقب إلى الإنجليز بعد المذابح التي قام بها جنود إنجلترا في الهند سنة ١٩١٩، فلم يقبل هذا الشاعر العظيم أن يحتفظ بلقب كبير من الإنجليز الذين يذبحون أبناء بلاده في مجازر قاسية لا تعرف الرحمة .

أما القيمة المادية لجائزة «نوبل» فقد جعلها «طاغور» وديعة وأنشأ من عائدها جامعة كبرى لا تزال قائمة إلى الآن ، وهي الجامعة المعروفة باسم «فسيفا بهاراتى» ومعناها «المكان الذي يتحد فيه العالم كله» . والغريب أن «طاغور لم يستطع أن يتلقى تعليمه في دراسة منتظمة، رغم أنه من أسرة غنية، وقد أرسله والده إلى إنجلترا ليدرس القانون فأصابه ما أصاب توفيق الحكيم عندما ذهب إلى باريس لدراسة القانون أيضًا، فقد انصرف «طاغور» إلى دراسة الفنون والآداب ولم يستكمل دراسته القانونية، وهذا هو نفسه ما حدث لتوفيق الحكيم في باريس، فقد انصرف عن دراسة القانون إلى دراسة الأدب والفن.

ومع ذلك كله فقد اجتهد «طاغور» اجتهادًا نادرا في تحصيل الثقافة، حتى أصبح بجهده الخاص من كبار المثقفين العالميين في عصره ، وأصبح صديقًا شخصيًا لعدد من أدباء العالم البارزين ، ومنهم الشاعر الأيرلندى ييتش (١٨٦٥ - ١٩٢٩)، والكاتب الفرنسي رومان رولان (١٨٦٦ - ١٩٤٤) ، والشاعر الأمريكي إزرا باوند (١٨٨٥ - ١٩٧٢) ، والكاتب الفرنسي أندريه جيد (١٨٦٩ - ١٩٥١) ، وقد أسهم الكثيرون من هؤلاء الأدباء العالميين في ترجمة أعمال «طاغور» إلى اللغات الأوروبية المختلفة، وكان «طاغور» نفسه يترجم بعض أعماله إلى الإنجليزية التي كان يتقنها إتقانًا كاملاً، وقد زار «طاغور» مصر سنة ١٩٢٦، واحتفلت به الأوساط الأدبية، وأقام له أمير شعراء العرب في ذلك الوقت أحمد شوقي حفل تكريم في بيته المعروف باسم «كرمة ابن هانئ» الذي أصبح الآن متحفًا من متاحف الدولة هو «متحف أحمد شوقي».

ومما يكشف عن قيمة «طاغور» في عصره أن جامعة «اكسفورد» الإنجليزية قد منحته «الدكتوراه الفخرية» ، ورغم أن «طاغور» لم يكن يحمل

أية شهادة جامعية، فقد اتخذت الجامعة الإنجليزية قرارها بمنحه الدكتوراه ، والأكثر من ذلك كما يقول الأديب العربي الليبي خليفة محمد التليسي، وهو من أعمق الدارسين لأدب «طاغور» ومن أفضل الذين ترجموا قصائده إلى العربية : «.. عقدت جامعة أكسفورد اجتماعًا في الجامعة التى أنشأها «طاغور» في الهند ومنحته الدكتوراه الفخرية، وهو شرف لم يحظ به غيره من قبل، فالتقاليد الجامعية الراسخة تقوم على إعطاء هذه الدكتوراه الفخرية في مقر الجامعة المانحة للدكتوراه ولكن جامعة اكسفورد كسرت القاعدة وخرجت على تقاليدها، وذهب مجلس هذه الجامعة إلى الهند ليلتقى بطاغور ويقدم إليه الدكتوراه الفخرية».

وقد تعرض «طاغور» في حياته الطويلة لكثير من المحن الشخصية منها: وفاة زوجته سنة ١٩٤٠ ثم وفاة ابنه الأكبر سنة ١٩٠٧ وفي سنة ١٩٣٢ توفى حفيده الوحيد.

وقد تركت هذه المآسى المتتالية آثارها على أشعار «طاغور» ولكنها لم تجعل منه أبدًا شاعرًا متشائمًا ، فهو أبعد شعراء العالم عن التشاؤم، إذ أن شعره كله يقوم على الدعوة إلى حب الحياة والاحتفاء بها والالتفات إلى ما فيها من عناصر الجمال والصبر على متاعبها ومآسيها، ورغم البساطة المذهلة في شعر «طاغور» فهو شعر فلسفي عميق، وكل قصائد «طاغور» تنبع من قلب طيب عامر بالحنان والرحمة والدعوة إلى المحبة الإنسانية الشاملة، ولأن شعر «طاغور» شعر رفيع في إنسانيته العالية، فإنه لا يفقد شيئًا من جماله وسحره وتأثيره في أية لغة أخرى بعد ترجمته ، فنحن نقرأ هذه الأشعار في ترجمتها العربية الرائعة التي قدمها الأستاذ خليفة محمد التليسي، فلا نشعر بأننا نقرأ شعرًا مترجمًا عن لغة أخرى، بل نحس بأننا أمام شاعر يكتب باللغة العربية، ذلك لأن الروح الإنسانية الرفيعة في هذه القصائد تبقى هي اللغة الأساسية في شعر «طاغور» وأحيانًا ونحن نقرأ أشعار «طاغور» المترجمة نحس بأنها قصائد حميمة قريبة من قلوبنا، نشعر ببعض الأسى لأننا نقرأ بعض القصائد الآن باللغة العربية لشعراء عرب، فلا نفهم منها شيئًا ، ولا تحرك في قلوبنا أي مشاعر إنسانية حقيقية،

فكأنها قصائد مكتوبة بلغة غريبة عنا، بل هي لغة عجيبة لم نسمع بها من قبل.

في قصيدة رائعة من قصائد «طاغور» يقول فيها ، والترجمة للأستاذ خليفة التليسى وهي الترجمة التى أعتمد عليها في هذا الفصل.

«طوال أعوام عديدة وبثمن باهظ، سافرت إلى مختلف البلدان ورحلت لمشاهدة المحيطات، ولكني لم أفطن إلى قطرات الندى المتألقة فوق سنبلة القمح أمام عتبة بيتى».

ما أبسط هذا الشعر وما أجمله، وفي هذه القصيدة البسيطة البديعة يلفت الشاعر قلوبنا إلى تلك التفاصيل الجميلة، مثل قطرة الندى المتألقة على سنبله قمح أمام عتبة بابه، وهي تفاصيل كثيرًا ما نغفل عنها، ونمر بها مرورًا عابرًا، رغم أنها تكشف لنا عن مصدر من مصادر السعادة الحقيقية وتضع أيدينا على معنى من المعاني الطيبة للجمال، ولا أتصور أن الشاعر في هذه القصيدة يريد أن يقول لنا إن قطرة الندى، هي المعنى الوحيد للسعادة والجمال، لكنه يقول في بساطة ساحرة إن الإنسان إذا تلفت حوله فسوف يجد كثيرًا من معاني السعادة والجمال بالقرب منه وهو لا يدري عنها شيئًا.

فالقصيدة تدعونا إلى الالتفات والانتباه إلى التفاصيل البسيطة فقد نرحل ونشقى أنفسنا في البحث عن شىء هو في أيدينا أو قريب منا، وهو موقف خاطئ كثيرًا ما نقع فيه، فكلما اقتربت الأشياء منا فقدنا الإحساس بما فيها من قيمة وما لها من معنى وأهمية ، فالاقتراب الشديد يفقدنا أحيانًا أية قدرة على الملاحظة . فكم من صديق، أو حبيب أو مكان نعجز عن ملاحظة ما فيهم جميعًا من سحر وجمال وصفات بديعة، لا لشىء إلا لأننا اقتربنا اقترابًا شديدًا منها ففقدنا الإحساس بها، وهي حالة ينبغي التخلص منها، حتى نستطيع أن نحتفظ بما نملكه وبما هو قريب منا، وحتى نستطيع أن ندرك ما في هذه الأشياء القريبة من جمال نغفل عنه ونعجز عن ملاحظته والاستمتاع به.

وفي قصيدة أخرى يصور «طاغور» معنى الجهد الإنساني الذي قد

نحس أحيانًا بعد أن نبذله بأنه جهد ضائع، فما من شيء من هذه الأشياء التي نتعب فيها ونخلص في أدائها يمكن أن يضيع ، حتى لو بدا لنا في الظاهر أنه قد ضاع وتبدد، فالحقيقة أنه باق، وأن له في مكان ما وفي وقت ما، أثرًا نبيلاً ونتيجة طيبة . المهم أن نخلص في آداء ما نقوم به، وأن نؤديه بصدق، وأمانة، وألا نشعر بعد ذلك باليأس إذا لم يحقق نتائجه السريعة المنتظرة.

فعندما يبذل الإنسان هذا النوع من الجهد الصادق المخلص، فإن نفسه تكون مستريحة ومطمئنة، حتى لو لم تكن هناك نتائج واضحة لهذا الجهد نتيجة لسبب من الأسباب التي لا سيطرة لنا عليها.

يقول «طاغور» في قصيدته البديعة :

«في الصباح، القيت شباكي في البحر، واستخرجت من بين الأمواج العالية، أشياء غريبة المنظر، رائعة الجمال، بعضها يتألق كأنه ابتسامة، وبعضها يلمع كأنه دمعة وبعضها وردي كأنه خد عروس، وحين عدت إلي بيتي في نهاية المساء حاملاً غنيمتي، كانت حبيبتي تجلس في الحديقة، تداعب بعض الزهور في كسل، وفي هيبة وحذر، وضعت تحت قدميها كل صيدي، فنظرت حبيبتي إلى صيدي في استخفاف، وقالت: ما هذه الأشياء الغريبة ؟ أنا لا أدري ما نفعها لي ؟ فأحنيت رأسي في خجل وقلت: لم أصارع للحصول عليها، إنها هدايا ليست جديرة بك. ولبثت طوال الليل ألقيها واحدة واحدة في الطريق وفي الصباح، جاء المسافرون وجمعوها وحملوها إلى بلدان بعيدة».

تلك هي القصيدة التي تمجد الجهد الإنساني حين يبدو ضائعًا ولا جدوى منه، فقد اجتهد الإنسان الذي يتحدث الشاعر بلسانه في جمع أشياء تصور أنها جميلة، ولكنها قوبلت بالرفض من حبيبته، فألقاها - بتواضع وخجل ودون غضب - في الطريق ، ولكن المسافرين جمعوها وحملوها معهم إلى كل أنحاء العالم، فالجهد إذن لم يتعرض للضياع عندما رفضته الحبيبة، بل أصبح هذا الجهد منتشرًا في العالم كله بفضل المسافرين الذين جمعوه وحملوه معهم.

ليس هناك جهد إنساني حقيقي يضيع أو يتبدد، فكل جهد لابد أن يثمر ولابد أن تكون له ثمرة إيجابية، حتى لو تصورنا نحن أنه جهد ضائع . وفي هذه القصيدة ، يضع «طاغور» يده على معنى كبير وهو تمجيد الجهد الإنساني والدعوة إلى احترامه ومحبته والنظر إليه في حنان والابتعاد عن الشعور باليأس والإحباط إذا لم يحقق جهدنا بعض أهدافه السريعة، فالجهد الإنساني المخلص في حد ذاته ينبغي أن يكون مصدرًا لسعادة صاحبه ورضاه.

وقصيدة أخرى بديعة لطاغور هي قصيدة حب شديدة العذوبة وهي تذكرنا بقصيدة نزار قباني الشهيرة «أيظن..» ولها اسم آخر يتردد على الألسن هو «ما أحلى الرجوع إليه» ولكن الفرق بين نزار وطاغور واضح وكبير، فقصيدة نزار قصيدة «حسية» تلعب فيها الصور المادية دورًا أساسيًا مثل قوله:

حتى فساتيني التى أهملتها.

فرحت به ، رقصت على قدميه.

أما قصيدة «طاغور» فهي قصيدة روحية ناعمة شفافة، يرتبط فيها الحب بالطبيعة والربيع العائد والزهور المتجددة، وفي قصيدة «طاغور» كثير من الحياء العاطفي العذب حيث يقول:

ابتسامة مليئة بالارتياب.

ترفرف فوق عينيك .

كلما ألقيت عليك كلمة الوداع

حتى صرت تظنين أني

سأعود إليك في أقرب وقت

وإذا أردت الحق

فإني أنا أيضًا ارتاب في هذا التوديع

ذلك لأن أيام الربيع.

تعود كل عام

والبدر يودعنا ثم يعود من جديد

والزهور تعود كل عام

لتصبح ناضرة فوق الغصون

وربما كنت أنا الآخر

ابتعد عنك

من أجل العودة إليك

فإذا جئتك أقول:

إنني أودعك إلى الأبد

فأقبلي ذلك كأنه حقيقة

ودعي بعض الدموع

تسقط من عينيك

ثم اضحكي ضحكة ماكرة

حين أعود إليك !

و«أظن» أن قصيدة نزار قباني «أيظن» فيها التقائه إلى قصيدة «طاغور».. لأن قصيدة.. طاغور. أسبق، وقصيدة نزار جميلة وطريفة ، ولكن قصيدة «طاغور» أقرب إلى القلب وأكثر تأثيرًا وبقاء فى النفس.

إن صوت «طاغور» في قصائده المختلفة هو صوت الوضوح والبساطة والعمق والصدق، وهو الصوت الصافي الذي يدعو إلى تخليص عالمنا من حافة الجنون التى يقف عليها الآن.

●●●

فى الحب الإلهى

فكرة الحب الإلهي فكرة نبيلة، وهي فكرة انتشرت على يد المتصوفين الذين تركوا الحياة وراء ظهورهم وتفرغوا لعبادة الله وهم لا يفعلون ذلك طمعًا في جزاء أو خوفًا من عقاب وإنما يفعلونه من باب الحب الخالص الصافي. والمحب الحقيقي يرتفع فوق كل المطالب وهو لا ينتظر ثمنًا لعواطفه ومشاعره، فالذي ينتظر ثمن حبه هو تاجر أو عميل من عملاء بورصة الحياة، يريد أن يغامر ويقامر حتى يلين له الحظ ويعطيه غنيمة كبيرة من غنائم التجارة، والحب الحقيقي ليس تجارة، ولا تعاملاً مع البورصة، ولكنه عاطفة كبيرة تملأ القلب، وثمنها فيها، أي أن الحب الحقيقي يعطي لصاحبه سعادة كبيرة لا لشئ إلا لمجرد أنه عاشق، ولأنه يحمل في قلبه هذا الشعور القوي، الغامض الواضح في نفس الوقت، وسعادة المحب الصادق هي الثمن الذي يتلقاه - من داخل نفسه - على حبه المخلص، ومن عجائب الحياة أن المحب الحقيقي يبدو وجهه مشرقًا وجميلاً ، وتبدو نظرات عينيه مليئة بأشعة من النور تضئ القلوب، والمحب الصادق قادر على أن يبتسم ابتسامة دائمة وصافية حتى في لحظات الآسى والحزن، وهذا المحب أن ارتفعت عاطفته إلى أعلى درجة لها يبدو دائمًا في أجمل صورة، حتى لو كان يلبس ملابس بسيطة ومتواضعة، لأن للحب هندسة خافية على العيون، تجعل كل ما يتصل بها ويلمسها خاضعًا لنظام عام، يظهر فيه كل شئ حلوا وعذبًا ومريحًا للنفوس، والمحب الحقيقي يبدو صاحب صوت عزب، لأن الحب يعزف في أصوات العشاق نغمتين، هما خلاصة الجمال في كل ما هو جميل، هاتان النغمتان هما: التواضع والصدق.

هذا هو الحب وهذه هي آثاره الساحرة، والحب يفعل ذلك كله إذا كان بين إنسان وإنسان، أى بين رجل وامرأة أو صديق وصديقه.

فما بالك إذا كان المحبوب هنا هو : الله ؟

وبعض المتصوفين المسرفين المتشددين يضعون خطًا أحمر بين الحب الإلهي والحب الإنساني، ويرون أن من يحب الله عليه أن ينسى الإنسان، وأن ينفض يده من كل ماله علاقة بالبشر، وهذا خروج على معنى الحب الصحيح، فالحب الإلهي في حقيقته إنما يقود دائمًا أصحاب هذا الحب إن كانوا صادقين إلى محبة الإنسان أيضًا، فالإنسان هو أجمل مخلوقات الله، وقد فضله الله على غيره من المخلوقات، فكيف يمكن أن نحب الله ونكره الإنسان؟ هذا موقف عاطفي مشكوك في سلامته وصدقه، وهو حب فيه عيب يجب أن نتلافاه ونتخلص منه.

وهذا هو المتصوف الحقيقي، وسيد العارفين بمعنى الحب الإلهي الصحيح، إنه شاعر الهند العظيم طاغور «١٨٦١ - ١٩٤١» فهو شاعر الحب الإلهي الخالص الصادق، الخالي من كل شائبة أو عكارة وهو شاعر الإنسانية في الوقت نفسه.

طاغور يدعو ربه دعاء خالصًا.

فماذا يقول له؟

اسمع هذه القطعة الشعرية التي انتزعها طاغور من قلبه.. دون افتعال أو مشقة، وكأن هذه القطعة الشعرية هي زهرة جميلة نبتت على الطريق العام دون أن يعرف أحد من الذي زرعها، فهي زهرة تبتسم لكل عابر، وليست زهرة في حديقة محاطة بأسوار عالية.. يقول طاغور :

من أجل هذا

التمس منك يا رباه

أن تقضي على التعاسة المغروسة

في قلبي

من جذورها

وأن تعطينى القوة لكي اتحمل الأفراح والآلام .

وامنحني القدرة لكي اجعل حبي

صالحًا.. في خدمتك

وهبني القوة على عدم الذعر من الفقر.

وهبني القوة

لكي أرفض الركوع أمام وقاحة الطغاة

وهبني القوة على أن أرفع الفكر

فوق تفاهة الحياة اليومية

واعطني القدرة على تسليم قدرتي لإرادتك.

والترجمة هنا، وفي كل النماذج الواردة في هذا الفصل هي للشاعر والأديب العربي «خليفة محمد التليسي» الذي قضى سنوات طويلة في ترجمة طاغور، وقدم هذه الترجمات في ثلاثة مجلدات كبيرة تبلغ في مجموعها حوالي ألف صفحة ، فله على هذا الجهد الرفيع كل التقدير.

ونعود إلى القصيدة السابقة لنتوقف أمام عبارة «الذعر من الفقر» أو «إنكار الفقر» فالفقر بالفعل مدمر للحياة والإنسان، ومن حق الناس أن يخافوه ويعملوا على اتقاء شروره، وقد كان طاغور - بالوراثة - من أكبر أثرياء الهند، ولكنه كان ينفق أمواله على الجامعة التي أقامها على نفقته لتعليم أبناء بلاده مجانًا وكانت ثروته الكبيرة كلها مثل شخصيته لها رسالة إنسانية نافعة تؤديها - كل صباح - للناس.

والمعنى الأساسي الذي يشير إليه طاغور عندما يدعو ربه أن يجنبه «إنكار الفقر» أو «الذعر منه» هو أن الخوف من الفقر كثيرًا ما يجعل الإنسان والمجتمعات تتخلى عن كل شىء في سبيل الخلاص من هذا الفقر، فأحيانًا يتخلى الناس عن الكرامة، وأحيانًا يتخلون عن أى سلوك أخلاقى، والحجة هي أن الخلاص من الفقر ومتاعبه القاسية يقتضي وضع الكرامة والأخلاق على الرف، لأنهما عائقان يعوقان النجاح ويجعلان للفقر أقدامًا ثابتة فى الحياة، وهذا المنطق ما يرفضه طاغور ، فالفقر مرض ينبغي مقاومته وعلاجه، ولكن على الإنسان والمجتمع أن يفعلا ذلك بأساليب راقية، وفي صبر شديد وفى حرص كامل على التماسك الأخلاقي، ولذلك

فطاغور يقرن دعوته لربه إلى أن يعطيه القدرة على احتمال الفقر، بالقدرة على «رفض الركوع أمام الطغاة» ، والاقتران بين الموقفين مهم جدًا، لأن الصبر على الفقر كرامة، وعدم الركوع أمام الطغاة كرامة أكبر.

ويلتفت طاغور إلى حياته وهمومه، ويواصل مخاطبته لربه، في نغمة حب رفيعة فيقول في قصيدة أخرى:

كنت أظن أن رحلتي

قد أوشكت على النهاية

وأن قواي قد بلغت غاية الإنهاك

وأن الطريق أمامي مسدود

وأن زادي قد انتهى

وأنه ربما حانت ساعة الانسحاب

إلى الصمت والظلام

ولكنني اكتشفت أن إرادتك

يا إلهي

لم تحدد نهاية لي

فعندما تموت الكلمات القديمة

تتدفق أنغام جديدة على القلب

وحين تضيع المدن القديمة

يبدو في الأفق

بلد جديد رائع

هذه القصيدة البسيطة البديعة تعزف لنا نغمة واحدة هي أن الحياة تتجدد، وكلما يئسنا وبلغ الظن بنا أننا قد انتهينا وانسدت أمامنا الطرق، وجدنا أمامنا مدنًا جديدة، وأنغامًا جديدة، وأزهارًا تتفتح في أرض كنا نظنها صحراء جرداء، والقصيدة تدعونا إلى أن ننهض من نومنا، وألا نشعر بأن الدنيا قد توقفت عن العطاء، أو أن الله قد نفض يده منا، فلنستقبل

الدنيا كل صباح ونحن ننتظر في أمل شيئًا جديدًا، حتى لو كان بسيطًا ومتواضعًا، وحتى لو كانت أيدينا فارغة من كل شىء ونحن نفتح عيوننا على أشعة الشمس، فسوف يأتينا رزقنا من هدايا الحياة وسوف تتجدد مشاعرنا وأيامنا مهما بدا لنا أننا قد استهلكنا كل شىء وفقدنا كل شىء ولم يعد أمامنا سوى جدران صماء جامدة.

إن ما فقدناه سوف نجد سواه ، المهم أن نفتح عيوننا للضوء وقلوبنا للهواء النقي، وأن ننتظر في حب وصبر رزقنا من السعادة والمعاني الطيبة، وعندما يأتينا ذلك نكون على استعداد لاستقباله والفرح به.

وطاغور في حبه الإلهي لا ينظر إلى نفسه فقط، بل هو ينظر، مثل أصحاب القلوب الكبيرة، إلى كل من حوله، وكل ما حوله وها هو يخاطب ربه من أجل شعبه، فماذا يقول فى دعائه الشعري، النبيل؟ لنستمع إليه في إجلال ومحبة:

حيث الفكر الذي لا يعرف الخوف

وحيث الرأس يرتفع

كريمًا عاليًا

وحيث المعرفة حرة

والعالم لا يعرف التمزق والانغلاق

داخل جدران ضيقة

وحيث تنطلق الكلمات

من أعماق الحقيقة

وحيث الجهد الإنساني المتواصل

يمد ذراعيه من أجل الكمال

وحيث نهر البلد الصافي

لا يضل طريقه في رمال الصحراء

ولا يتعرض للجفاف تحت قسوة التقاليد البالية

وحيث .. يا رب..

تقود عقولنا إلى الأمام

نحو أفكار وأعمال تزداد

رحابة على الدوام

في ذلك الجو من الحرية

اجعل بلدي ينهض

يارب

هذا هو دعاء طاغور لربه من أجل بلده وشعبه، ومن أجل الإنسانية كلها، دعاء من أجل الحرية والمعرفة والجهد المتواصل والقضاء على الخرافات والتقاليد الجامدة، وهو دعاء يعتصر القلب لشدة جماله وعذوبته وصدقه وبساطته.

وفي أنشودة صوفية رائعة هي صوفية من نوع جديد، لأنها صوفية العمل والكفاح وعرق الجبين.. في هذه الأنشودة الصوفية الجميلة يهاجم طاغور الذين يبحثون عن الحب الإلهي في الظلام والغرف المغلقة والابتعاد الكامل عن محنة الإنسان في الحياة، فالله موجود في كل مكان، وأقرب ما يكون الإنسان إلى الله إنما يكون في تلك الأماكن التي يعمل فيها الإنسان ويشقى، ولذلك فطاغور يهاجم التصوف الزائف ويدعو إلى تصوف جديد نبيل:

يجب عليك أن تتوقف

عن إنشاد أناشيدك

وتلاوة تراتيلك

من الذي تعبده في هذه الزاوية المظلمة ؟

هذه الزاوية .. المعزولة المنفردة

في معبد أبوابه كلها مغلقة

عليك أن تفتح عينيك

وتنظر

إن إلهك ليس هنا

إنه هناك

حيث الفلاح يحرث الأرض القاسية

وحيث يشقى عامل في كسر الحجارة

إنه معهم

في الشمس الساطعة

وفي الأمطار الهاطلة

فلتنزع معطفك القدسي

ولتترك تأملاتك

وعليك أن تتخلى عن البخور والزهور

أى سوء سوف يصيبك

لو تمزقت ثيابك أو تلطخت ؟

اذهب نحوه .. نحو إلهك

ولتقف قريبًا منه

حيث العمل

وحيث عرق الجبين

وهكذا يقول لنا طاغور إن الله هناك.. حيث العمل وعرق الجبين، وأن الذين ينفضون أيديهم من الحياة والناس والمشاكل والهموم، ويحرقون البخور، ويدقون الطبول ويغرقون في العزلة والابتعاد عن كل شىء هم قوم واهمون، فالله سبحانه لن يأتي إليهم في عالمهم الوهمي، لأن الله دائمًا مع العاملين ، والشقيانين والمهمومين والمجتهدين، الذين يكدحون في صبر وإرادة، والذين تسيل على جباهم قطرات من عرق الجبين.. هناك سوف نجد الله، وسوف نشعر بالحب الإلهي الحقيقي. ذلك الذي يجعل ينابيع السعادة تتفجر في لحظات التعب والشقاء والجهد الشريف وانتظار القلوب الظامئة إلى الحب والحنان.

عصر البراءة

هل يمكن أن يكون الإنسان سعيدًا وراضيًا عن حياته لمجرد أنه يشعر في قلبه بشعور جميل، أو لأنه يحلم أحلامًا بسيطة متواضعة ليس وراءها مكاسب مادية كبيرة؟ إن الإجابة الصحيحة من واقع حياتنا هي أن المشاعر والأحلام قد تراجعت في عصرنا إلى درجة ثانوية تكاد تكون عديمة الأهمية. والي يعيش على خبز المشاعر والأحلام وحدهما يتعرض للجوع، وكثيرًا ما يحس أنه يخسر في ميدان التنافس الذي يجرى فيه الجميع ويحاولون أن يحصلوا في هذا الميدان على مكاسب مادية ملموسة هي وحدها التي يمكن أن تعطيهم الإحساس بالراحة والأمان والرضا عن النفس. وهذه الحالة التي يعيش عليها الإنسان في هذا العصر هي حالة تثير القلق وتوحي بكثير من المخاوف، وهي المصدر الكبير للحروب والصراعات والعدوان بالقوة على حقوق الآخرين ولابد من جهد لإعادة الإنسان إلى صوابه، وخلق توازن بين رغباته المادية ومطالبه الروحية، وكثيرًا ما نرى أمامنا أشخاصًا حققوا أعلى درجات النجاح في حياتهم المادية، وبذلوا جهودًا كبيرة في سبيل الوصول إلى هذا الهدف، ومع ذلك فهم لا يشعرون بالسعادة، بل يشعرون على العكس من ذلك بالقلق والتوتر وينامون بعيون مفتوحة لأنهم يتوقعون أن تتعرض حياتهم للخطر الذي يمكن أن يأتيهم من مصادر مجهولة، فهؤلاء الناجحون في تحقيق أهدافهم المادية لم ينجحوا في امتحان آخر هو امتحان «السعادة الحقيقية» وهي سعادة الشعور بالاطمئنان والتخلص من الإحساس بالمرارة والندم والخوف الدائم من أن يفقدوا ما استطاعوا أن يكسبوه.

في هذا العصر المزدحم بالمشاغل والهموم والتنافس المحموم بين الناس، ترتفع أصوات قليلة ونادرة لتقول لنا إن السعادة هي البساطة، هي الاعتدال

في المطالب والأهداف ، والالتفات إلى المشاعر الإنسانية والعناية بها والحرص عليها. ولو أننا استطعنا أن نصل إلى هذا الاعتدال، أو إلى شيء منه، فسوف نكون أقرب إلى معنى السعادة ومعنى الإنسانية الصحيحة.

وبين هذه الأصوات جميعًا يقف صوت شاعرنا العالمي الإنساني طاغور (١٨٦١-١٩٤١) في المقدمة ليعزف هذه الأنغام الطيبة المليئة بالحنان. ولا يكاد صوت طاغور، الآن يكاد يكون مسموعًا في العالم كله، ولا حتى في بلاده التي انجبته واحبته، وكتب لها أغانيها، ونشيدها القومي الذي لا تزال تردده إلى الآن .. ففي الهند حرب قاسية تدور اليوم بين أبناء الشعب الواحد، على أرض كشمير، ويسقط عشرات الضحايا كل يوم، وصوت المدافع الهندية يعلو على صوت الأنغام الموسيقية النبيلة التي تنبعث من أشعار طاغور وألحانه وأغانيه. فالعصر الحاضر، حتى في الهند، بلد طاغور ، هو عصر القسوة، وعصر الاعتماد على القوة والعنف في حل أي مشكلة تظهر أمام الناس.

ومع ذلك كله يبقى صوت طاغور قويًا ونبيلاً وهو يفتح أمامنا طريق النجاة، إذا كنا نريد النجاة. وقراءة أدب طاغور تدلنا على ما في عصرنا من قسوة تفرض نفسها على كل شيء حتى على حياتنا اليومية العادية، فطاغور داعية للرحمة، وداعية لاحترام المشاعر الإنسانية البسيطة، وداعية لفتح الأبواب المغلقة في قلوبنا ضد المشاعر الطيبة والأحلام الجميلة . وطاغور شاعر وفنان يرفض القسوة، أى أنه يرفض الوجه الملئ بالشر للعصر الذى نعيش فيه، وقد رأى طاغور فى حياته وقبل وفاته فى الثمانين من عمره سنة ١٩٤١ كثيرًا من مظاهر القسوة في حضارتنا الحديثة، ومنها استعمار الإنجليز للهند، حيث ملأت انجلترا خزانتها من خيرات الهند، بينما فرضت الفقر والتعاسة والجهل والمرض على ملايين الهنود، وقد بلغت القسوة فى عصر طاغور أقساها فى حربين عالميتين هما الحرب الأولى سنة ١٩١٤، والحرب الثانية سنة ١٩٣٩ . ومات طاغور والحرب الأخيرة مشتعلة تملأ أنحاء الدنيا بالفوضى والدمار وأنهار الدماء. ومع ذلك لم يفقد طاغور الأمل أبدًا، وظل حتى آخر لحظة في حياته وهو يثق أن قلب

الإنسان سوف ينفتح للخير والرحمة ويسعد بالمشاعر البسيطة الطيبة، ويعيش في سلام مع نفسه ومع الطبيعة التي تملأ الأرض بألوان الجمال.

وقبل أن يموت طاغور بسنوات قليلة كتب قصيدة قصيرة ولحنها وأوصى تلاميذه بأن يغنوها له عندما يموت، وكأنه وهو يفكر في الموت كان يفكر في الاحتفال بعيد ميلاده. وقد حقق الأصدقاء والتلاميذ رجاء الشاعر «الأستاذ» ، وغنوا له القصيدة بعد موته، وفي هذه القصيدة يقول طاغور:

في لحظة الفراق يا أحبابي

تمنوا لي حظًا سعيدًا

لقد تدفقت أضواء الفجر

وبدا الطريق أمامي ساحر الجمال

لا تسألوني عما أحمله إلى هناك فأنا أبدأ الرحلة فارغ اليدين

لكن قلبي مفعم بالرجاء.

وكما كنت أحب الحياة واستمتع بها فأنا على يقين الآن بأنني سوف أحب الموت كما أحببت الحياة».

تلك هي قصيدة طاغور التي كان ينبغي أن تكون حزينة ومع ذلك فهي تفيض بالفرح والتفاؤل، وكأنها أغنية راقصة. ذلك لأن قلب طاغور الكبير لم يكن يستسلم أبدًا لمعاني اليأس فهو يرى أن الموت نفسه يمكن مواجهته بشجاعة وتفاؤل، وأنه يذهب إلى الموت واثقا من مشاعر قلبه ، وكل إنسان له أحباب قد رحلوا عن الدنيا وغابوا عن الحياة ، ولعل الإنسان عندما يرحل أيضًا يلتقي بأحبابه الغائبين، ولا يمكن أن يكون العالم الذي يضم أحبابنا الراحلين عالمًا كئيبًا كما نظن.

لقد شن طاغور حربًا ضد التشاؤم واليأس، ولم يتردد في الوقوف أمام قسوة الموت نفسها موقف الشجاعة والأمل والتفاؤل، فغنى للموت كما غنى للحياة.

وسوف نجد أن تفسير طاغور للقسوة مثل كل شىء فى أدبه هو تفسير بسيط وسهل فكل قسوة في هذه الدنيا مصدرها الأنانية التي تصيب الشعوب والحضارات كما الأفراد. فكل شعب أناني لابد أن يكون قاسيًا وكل فرد أناني لابد أن يكون هو أيضًا مصابًا بداء القسوة، والقسوة في النهاية هي مرض العصر الذي ينبغي أن تتخلص منه الشعوب والأفراد على السواء.

في قصيدة له يقول طاغور والترجمة للأستاذ خليفة التليسي:

لقد خرجت وحدي من أجل لقائك.

ولكن.

من هذا الذي يمشى ورائى

ويتبع خطواتي ؟

حاولت الابتعاد عنه

حتى اتجنب صحبته

ولكنني لم استطع الإفلات منه

فهو يمشي ورائى في ثقة بنفسه

وهو يثير الغبار حولى

وكلما نطقت بكلمة

فإنه يرفع صوته الصاخب

بلا خوف ولا حياء

إنه الأنا الصغيرة

والتي جعلتني أخجل من الحضور إليك بمثل هذا الرفيق.

وفي هذه القصيدة يحس الشاعر العظيم أن الأنا ، أو الأنانية ، تفسد الحياة وتجعل الإنسان بعيدًا عن الصفاء، وتجعله غير قادر على أن يصل

إلى أحبابه، نقيًا بسيطًا كما يريد، والحبيب الذي يسعي إلى لقائه في هذه القصيدة هو كل هدف نبيل في الحياة ، والحب نفسه من أنبل هذه الأهداف، ولكن الشاعر يتراجع عن رحلته من أجل لقاء من يحب، لأن الأنا، «الأنانية» تتبعه وتمشي وراءه وهو يريد أن يحتضن الدنيا في طيبة وصفاء بدون هذا الرفيق الثقيل.. وفى القصيدة دعوة في غاية اللطف والصدق والتهذيب إلى التخفيف من الأنانية التى تفسد جمال الحياة، وتجعل خطواتنا ثقيلة وهي تسعى إلى تحقيق أهدافها، والأنانية في أول الأمر وآخره هي مصدر «القسوة» التي يمارسها الناس ضد بعضهم البعض ولا خلاص من «القسوة» التى يمارسها الناس ضد بعضهم البعض، إلا بالخلاص من الأنانية، فالأنانية تفسد الشخصية الإنسانية وتجعلها غير قادرة على التعامل مع الحياة في سهولة ويسر.

وإذا كان طاغور يشن حملته ضد القسوة في جميع أشعاره، فإنه يدعو إلي الوجه الآخر للحياة، وهو الوجه الذى يؤمن بالتسامح والبحث عن المشاعر البسيطة واحترامها، والإيمان بأن هذه المشاعر - لو التفتنا إليها - فإنها قادرة على أن تمنحنا أكثر مما نتصور، فمن مظاهر القسوة، أن تكون مشاعرنا البسيطة موضع إهمال، بينما هى كنز من كنوز الحياة، ولعل الذين تمتلئ نفوسهم بالأنانية والقسوة ينظرون إلى قصائد طاغور نظرة دهشة وإنكار، ويرون فيها نوعًا من «قلة الحيلة» و«العجز» عن اقتحام الحياة والحصول على مكاسبها الحقيقية. ولذلك فإن الذين يفهمون روح طاغور ويدركون أسرار الجمال في قصائده ، لابد أن يكونوا من أصحاب النفوس الصافية، لأن موسيقى طاغور العذبة النبيلة لا يمكنها أن تصل إلى القلوب الفظة الغليظة ، وقراءة طاغور مثل دخول معبد من المعابد، ولا يمكننا أن ندخل المعبد ونحن نحمل مشاعر الذين يدخلون «البورصة»!

وهذه إحدى قصائد طاغور التى تصور معنى فريدا للحب ، فالحب الذي يملأ القلب هو في حد ذاته مصدر لسعادة القلب العاشق، والحب مصباح يضيء النفس، حتى لو عجز الآخرون عن رؤية النور، والإحساس بما في

هذا النور من بهجة ومتعة، وهذه المشاعر كلها لا تتحقق في نفوس تملؤها القسوة والأنانية، بل لابد لها من الصفاء والخلاص من «عكارة» المشاعر المظلمة حتى يتمكن الإنسان من إشعال النور في داخله، يقول طاغور في قصيدته «والترجمة للأستاذ خليفة التليسى»:

أماه .. إن الأمير الشاب
سوف يمر بموكبه أمام بابنا
كيف يمكنني الانشغال بالعمل.
هذا اليوم ؟
أريني كيف أصفف شعري
وقولي، أي أثواب ارتدى
أماه .
لماذا تنظرين في دهشة ؟
إني أعرف أنه لن يرفع عينيه.
نحو نافذتي.
وأعرف تمامًا أنه سوف يختفي
كالبرق أمام بصري
ولن يصلني من بعيد.
سوى صوت أنغام الناي
ولكن الأمير الشاب.
مر من أمام بابنا.
وشمس الجمال والصبا
تسطع من عربته الفاخرة
لقد رفعت الحجار عن وجهي
ونزعت عقد الماس من عنقي

وألقيت به في طريقه.

أماه

لماذا تنظرين إلى في دهشة؟

أعرف أنه لم يجمع حبات العقد.

الذي سحقته عجلات عربته.

ولم يعرف أحد هديتي.

أو إلى من كانت موجهة

ولكن الأمير الشاب

مر أمام بابنا.

وأنا ألقيت في طريقه

العقد الذي أحمله فوق صدري.

ما الذي نشعر به ونحن نقرأ هذه القصيدة؟ إننا نحب «الحب » في هذه القصيدة فهو حب يعبر عن نفسه ويسعد بنفسه ولا ينتظر شيئًا في المقابل، إنه حب يعطي، ويقدم الهدية، التي قد لا يقدرها من يتلقاها حق قدرها، وقد لا يعرف من أين جاءت هذه الهدية، ومع ذلك فالفتاة التي ألقت عقدها الماسي تحت عجلات العربة التي يركبها الأمير الشاب تشعر بالفرح لأن الأمير الشاب قد مر أمام بابها، وقد ملأ الفرح نفسها، واستعدت لهذه اللحظة بأجمل أثوابها، وكأنها سوف تلتقى بحبيب يعرفها وتعرفه.

إنها مشاعر بسيطة إلى حد «السذاجة» ولكنها ترفعنا ببساطتها وسذاجتها إلى قمة الشعور الإنساني الصادق العميق، ففيها تعبير عن حب الحياة والفرح بها، وتأكيد على أن المشاعر الجميلة ليست مسألة حسابية تقوم على تبادل المصالح والمنافع، ولكن المشاعر الجميلة ثروة للإنسان تجعله قويًا وسعيدًا وقادرًا على أن يعطى دون أن يطلب، والقصيدة فيها روح رمزية شفافة، فهي تحكي قصة الحياة بأكملها وتقول لنا في رقة وعذوبة أن الحياة لا تعطي سرها إلا لمن يجتهد ويضحي، وأن سعادة الحياة

لا تأتي للإنسان من خارجه وإنما تأتيه من داخله، فالحياة قد تجري أمامنا كما جرت عربة الأمير الشاب أمام باب الفتاة ، وقد لا تعبأ بنا ولا تلتفت إلينا ، ولكننا نستطيع أن ننتصر على ذلك كله بأن تكون نفوسنا نبيلة وكريمة وقادرة على الحب، حتى لو أعطينا هدايانا لمن لا يحس بها ولا يلتفت إليها.

إنها فلسفة طاغور التي تدعو إلى عصر البراءة وتعترض على عصر القسوة وترفضه كل الرفض ، وتؤمن بأن ينابيع الحنان والرحمة موجودة في القلب الإنساني وليست في خارجه، فإن استطعنا أن نشعل مشاعرنا الداخلية ، فسوف تمتلئ حياتنا بالنور، وسوف نصل إلى عصر البراءة، وننتصر على عصر القسوة الذي نعيش فيه، ونعيد إلى الحياة طبيعتها النبيلة الخالية من الصراع القاتل والتنافس الرهيب.

•••

الفنان واللص

عندما يحاول الإنسان أن يتذكر أحداث حياته، فإنه غالبًا ما يتوقف أمام الأحداث المهمة، ولا يكاد يتذكر تاريخ مشاعره، أو اللحظات البسيطة التى كان لها تأثير عميق في نفسه، فمن منا يتذكر أول لحظة أحس فيها بالحنان، وعرف فيها المعنى الحقيقى لهذا الشعور ؟ ومن منا يتذكر أحلام الصبا والطفولة ، وما كان في هذه الأحلام من براءة وسحر وجمال ؟ من منا يتذكر أول نظرة حب في حياته ؟ أو يتذكر أول لمسة يد دافئة تعبر عن معنى هذا الحب الحقيقى ؟ تفاصيل كثيرة من هذا النوع تضيع من حياة الإنسان، وتختفي من الذاكرة، ولو أننا احتفظنا بها، وحرصنا على ألا ننساها لكانت بالنسبة لنا ثروة من المعاني والأحداث الصغيرة التى تملأ القلوب بالفرح والبهجة.

ولعل السبب في أن الأشياء الصغيرة الجميلة تضيع منا هو أن حياتنا في معظمها تبدو وكأنها دوامة من الأحداث الكبيرة والأيام المليئة بالصراع الصعب، كل ذلك من أجل البقاء والطعام والمحافظة على من نحب المحافظة عليه من أهلنا وأحبابنا، فالإنسان يصارع المرض والفقر، ويحاول أن يجد لنفسه مكانًا في المجتمع يمنحه الأمان والاطمئنان ، وفي رحلة الصراع الشاقة هذه كثيرًا ما ننسى أشياء صغيرة جميلة مرت بنا، وأشياء مؤلمة أخرى، جرحتنا، ولكنها علمتنا بعض المعاني الطيبة عن نفوسنا وعن الحياة.

وشاعر الهند الإنساني العظيم «طاغور» قد امتلأت حياته بهذه الأشياء البسيطة فهو في ذكرياته وأشعاره ومسرحياته وقصصه لا يكاد ينسى اللحظات البسيطة التي مرت به ، وأثرت في نفسه، ولا شك أن مما ساعد على ذلك أنه كان ابنًا لأسرة ثرية ومهمة من العائلات الهندية، وقد ولد في قصر تحيط به الحدائق ، ويتسع فيه المجال ليلعب ويلهو كما يشاء وهو طفل صغير، وقد عاش طاغور حياته كلها صافي الذهن والقلب، دون أن

يضطر للكدح من أجل رزقه، فكان متحررًا من القيود الصعبة التي تفرض على الكادحين أن يتخلوا عن حريتهم ليحصلوا على مطالبهم الرئيسية في الحياة، ولكن حياة الترف هذه لم تفسد «طاغور» بل لقد حافظ هذا الفنان العبقري على طهارة نفسه، وبساطة عيشه، وجعل مواهبه المتعددة كلها في خدمة قضايا الحب والتفاهم والسلام بين أبناء شعبه وبين الناس جميعًا، فقد كان «طاغور» أحد الشعراء النادرين الذين جعلوا من فنهم رسالة كاملة وقوية ومؤثرة، يدعو فيها إلى حب الحياة، واحترام الإنسان مهما كان شأنه، ومهما كان موقعه بسيطًا ومتواضعًا في المجتمع، ولذلك كانت أشعاره بالنسبة للإنسانية كلها فيضانًا متدفقًا من مياه مقدسة طاهرة تغسل دموع الناس، وتخفف من أحزانهم ، وترفع معنوياتهم، وتؤكد لهم في صدق وأمانة أن الحياة طيبة، حتى لو كانت صعبة ومؤلمة، وأن الألم نفسه له روعته وقدرته على الارتفاع بنفوسنا وعقولنا، حتى نرى في الحياة ما هو أعمق من مظاهرها الخارجية، ومن أجمل ما قيل في طاغور تلك الكلمات التي وصفه بها أديب فرنسي كبير هو «رومان رولان» الذي يقول:

«حين تقترب من طاغور - تمتلىء نفسك بشعور قوى بأنك في معبد، فتتكلم بصوت خفيض، وإن أتيح لك بعد هذا أن تتأمل قسمات وجهه الدقيقة المليئة بالإباء والترفع، فإنك سوف تحس بالموسيقى التى تخفيها هذه القسمات الظاهرة، فوجهه تنبعث منه موسيقى مؤثرة، وخطوط هذا الوجه توحى إليك في سهولة بالأحزان التى يشعر بها طاغور وتوحى إليك أيضًا بنظرات لم تختلط بها أوهام، وبالذكاء الجرىء الذي يواجه صراع الحياة في ثبات وشجاعة ».

والترجمة الكاملة لرأى «رومان رولان» في «طاغور» نجدها في كتاب الأديب السوري الكبير الدكتور بديع حقي في المجلد القيم الضخم «خمسمائة صفحة» والذي أصدره تحت عنوان «روائع طاغور في الشعر والمسرح».

ونعود إآلى طاغور نفسه لنتوقف أمام بعض اللحظات البسيطة التي لم يسقطها هذا الفنان الكبير صاحب الرسالة الإنسانية من ذاكرته.

فقد اكتشف في صباه أنه شاعر من خلال قصة طريفة ومؤثرة يرويها بنفسه فيقول:

«حدث ذات يوم أن تم القبض على لص في دارنا، فحملني الفضول الممزوج بالخوف على أن أسرع إلى مكان الحادث لأرشق اللص بنظرتي المتسائلة المندهشة، فإذا أنا أجد أمامي إنساناً مثل أي إنسان آخر، وعندما رأيت البواب يجذب اللص في عنف وقسوة شعرت برأفة تمس أعماق قلبي، وتمنيت في هذه اللحظة أن أكتب قصيدة تعبر عن هذا الشعور بالرأفة، وبدأت أكتب لأول مرة قصيدة من الشعر، وأضع كلمة إلى جانب أخري حتى أنهيت هذه القصيدة البدائية، وعرفت منها قدرتي على كتابة الشعر وميلي إلى ذلك، والآن حين أتذكر تلك الأبيات المسكينة، وأقسو في الحكم عليها، فإن الرأفة بهذه القصيدة الأولى تملأ قلبي أيضًا ، كما امتلأ هذا القلب بالرأفة نحو اللص المسكين».

هكذا اكتشف طاغور أنه شاعر، وقد نبعت شاعرته الأولى من الشعور القوى «بالرأفة» تجاه إنسان مسكين ساقته ظروفه الصعبة إلى أن يصبح لصًا، وكان حظه سيئًا فأمسك «البواب» به، وعامله بقسوة حركت قلب الصبي طاغور فاكتشف أنه شاعر.

وهذه القصة الطريفة تعطينا المفتاح الرئيسى لشاعرية طاغور، وهذا المفتاح هو كلمة «الرأفة» فشعره كله ، بل وكل ما أبدعه من فنون أخرى ، تنبع جميعًا من الشعور العميق بالرأفة تجاه الإنسان والحياة ، فليس في شعر طاغور اتهام لأحد، أو إدانة لأحد، بل فيه عطف وحنان ومواساة حتى للمخطئن والعصاة، ومع ذلك فشعر طاغور مضيئ ، وبعيد كل البعد عن السذاجة .. إنه شعر يدعو الإنسانية كلها إلى التفاهم والسلام والقضاء على أسباب الصراعات والحروب، وهو شعر يقول للجميع توقفوا عن الكراهية والحسد والقتال، وتوقفوا عن ازدراء الإنسان، وتوقفوا عن التفرقة بين الناس على أساس الثراء والفقر، أو الاختلاف في اللون أو الدين أو الجنس، وانتبهوا إلى جمال الحياة، واستمتعوا بهذا الجمال الذي يوجد حولنا في كل مكان، ولكننا لا نلتفت إليه، لأننا مشغولون بالصراع من أجل

التفوق والنجاح والتنافس مع غيرنا حتى يكون نصيبنا من الحياة أعظم من نصيب الآخرين، ولو أننا التفتنا إلى مشاعرنا الجميلة التي تمر بنا بين الحين والحين، أو التفتنا إلى زهرة أو قطرة من الندى، أو إلى شروق الشمس ، أو أي شيء من هذه الأشياء البسيطة التى تمر بنا، فإن هذه الأشياء التي لا نهتم بها تمنحنا نشاطًا روحيًا، وتدفع إلى نفوسنا الحيوية والتفاؤل، وتجعلنا نعيش حياتنا الواقعية بشجاعة وقدرة على المواجهة والاجتهاد والاحتمال والصبر.. إن تفاصيل الحياة البسيطة الجميلة تشبه «الفيتامين الروحي» الذي يجعل نفوسنا أقوى، ويجعلنا غير قابلين للكسر المادي أو الانكسار النفسي أمام المتاعب والصدمات .

لقد كان من المواقف الصعبة التي واجهت طاغور في بداية حياته ، وكان في الثالثة عشرة من عمره ، موت أمه ، وهو يروي هذه اللحظة بأسلوبه الإنساني الجميل فيقول:

«كنا قد أوينا أنا واخواتي ليلة وفاتها إلى النوم، وجاءت إلينا في ساعة متأخرة خادم عجوز وهي تبكي وتردد : «يا أطفالي الأعزاء لقد فقدتم كل شيء» فأسكتتها زوجة أخى الأكبر وصرفتها لتجنبنا وقع الفاجعة ونحن في هذا الوقت المتأخر من الليل، وكنت نصف يقظان وأحسست بقلبي يذوب وينهار في داخلي دون أن أعي على نحو ظاهر واضح ماذا يجري، فلما بدأت أشعة الفجر تلوح أمامي أدركت معنى الموت الذي سمعت به، ولما خرجنا إلى غرفة أمي وجدناها نائمة فوق سريرها، ولم يكن منظرها يوحي بأن الموت رهيب، كان وجهها عذبًا آمنًا، كما لو أنها قد استغرقت في نوم هانئ، ولم يكن أي شيء يوحى لنا بتلك الهوة السحيقة التي تفصل الموت عن الحياة، وحين تم نقل نعشها وسعينا مع الموكب الحزين في الطريق امتلأ قلبي بالألم والحزن، وأنا أفكر في أن أمي لن تعود بعد الآن إلى البيت، وقد مضت الأعوام، وفي أيام الربيع، كلما تمشيت في الحديقة وداعب زهر الياسمين جبيني تذكرت أنامل أمي وهي تمس جبيني مسًا رفيقًا، وكان يملؤني الإحساس بأن الحنان الذي كان يحرك أنامل أمي الساحرة يتجلى أمامي مرة أخرى في نقاء زهر الياسمين، وأن حنان أمي لا يزال باقيًا في هذا

الزهر، لا ينفد ولا يفنى. لقد حرمني القدر من أمي وأنا فتى صغير فأصبحت وحيداً الوذ بنافذتي وأتأمل في أسرار الطبيعة، وامتلأ خيالي بما يترقرق في الكون من صور شتى.. لقد كانت الطبيعة رفيقي الذي وجدته إلى جواري دائماً..».

ثم يصل طاغور إلى سن الثانية والعشرين، فتختار له أسرته زوجة له، وهي فتاة تصغره بعدة سنوات، ويمتثل طاغور لرأي الأسرة ويتزوج بهذه الطريقة التى هاجمها بعد ذلك في كتاباته المختلفة، فهي طريقة تقليدية لا تراعي مشاعر الشاب أو الفتاة، حيث يصبح الزواج قرارًا عائليًا لا دخل للزوجين فيه، على أن الذي حدث هو أن هذا الزواج في حياة طاغور كان ناجحًا رغم أنه تم بطريقة خاطئة، فقد أحبته زوجته، وأخلصت له، وأحبها طاغور وأخلص لها، وأنجب منها ثلاثة أطفال، وكتب طاغور عن زوجته قصيدة يتغنى بها ويقول عنها «إنها أشعلت مصباحها في بيته، وأضاءت بجمالها وحنانها كل ركن فيه».

على أن الحياة لم ترحم قلب «طاغور» المليء بالحب والحنان والذي يبحث عن السلام مع نفسه ومع العالم، فماتت زوجته وهي في عز شبابها، وبعد ذلك مات ابنه وابنته وأبوه، وحدث هذا الهجوم القاسى على قلب طاغور فى فترة قصيرة وكانت هذه الأحداث كفيلة بأن تملأ حياة طاغور باليأس وتسلب منه قدرته على التفاؤل وحب الحياة والالتفات إلى ما فيها من معاني الجمال، ولكن قلب طاغور الكبير صمد أمام هذه التجارب الحزينة، وكتب يقول:

«إن عاصفة الموت التي اجتاحت داري فسلبتنى زوجتي واختطفت زهرتين من أبنائي الثلاثة، أصبحت نعمة بالنسبة لي وكانت رحمة، فقد أشعرتني هذه العاصفة بنقصي، ودفعتني إلى أن أبحث عن الكمال، وألهمتني أن العالم لا يفقد ما يضيع منه».

كان طاغور يشعر أن أحباءه الراحلين يعيشون فى قلبه، وأن الزهور والعصافير والمياه المتدفقة من الجبال بعد ذوبان الجليد، وكل معاني الجمال في الحياة إنما تحمل إليه صورة من أحبائه الراحلين، وتعزف له موسيقى

تأتي إليه من أرواحهم، وكما أحس من قبل بأن أزهار الياسمين تقدم إليه من الحنان ما كانت تقدمه أنامل أمه .. فهو الآن يشعر بأن كل شيء طيب في الحياة يحمل إليه عطر أحبابه ويؤكد له أنهم يعيشون معه، وأن غيابهم عنه له حضور قوي في مظاهر الحياة المختلفة.

ولعل من أجمل قصائد طاغور التي تصور إحساسه بأنه لا شيء يتبدد أو يضيع في هذه الحياة ، تلك القصيدة البديعة التي تعبر عن إيمانه بأن ما يضيع يعود ويتجدد، وربما يحدث ذلك بصورة أفضل من الأصل.. يقول طاغور في قصيدته والترجمة للدكتور بديع حقي:

لقد مضيت استجدي من باب إلى باب

على طريق القرية

حين لاحت مركبتك الذهبية من بعيد

كأنها حلم رائع ، وامتلأت نفسي بآمال كثيرة.

فكنت أعتقد أن أيام بؤسي قد انقضت وزالت.

وتوقفت المركبة أمامي

وصافحتني نظرة منك

ثم نزلت من المركبة وأنت تبتسم

وشعرت أنا بأن حظ حياتي قد أقبل أخيراً، ومددت أنت يدك اليمنى وقلت لي:

ماذا لديك من هدايا لي؟

آه .. يا لعبثك الملكي بي، وأنت تبسط يدك إلى المتسول لتستجدي منه وقد ارتبكت.

وشعرت بالحيرة

وتناولت في سرعة حبة قمح صغيرة من جرابي وأعطيتها لك

ولكن كم كان عجبي كبيراً آخر النهار.

حين وجدت.

وأنا أفرغ جرابي على الأرض

حبة صغيرة من الذهب.

بين كوم من حبات القمح الصغيرة

وبكيت

وتمنيت لو أنني أوتيت من الجرأة ما يجعلني

أهب نفسي كلها لك».

تلك هي قصيدة طاغور الجميلة، وهي تلخص نظرته الصادقة إلى الحياة وفلسفته النبيلة فيها، فهو يؤمن بأنه لا شيء يضيع، وإنك إذا أعطيت حبة قمح صغيرة، فقد تعود إليك حبة من الذهب، أما إذا أعطيت نفسك بصدق وإخلاص واجتهاد لشيء جميل ونبيل، فسوف ترد إليك الحياة عطاءك بكنز من السعادة والرضا، فالاطمئنان وقوة القلب وبراءته من أثقال الكراهية والأحقاد، وفلسفة طاغور تدعو دائمًا إلى العطاء ، ولو كان هذا العطاء قليلاً، فالعطاء دائمًا يثمر في وقت من الأوقات.. والدليل هو حبة القمح المتواضعة التى عادت إلى صاحبها حبة من الذهب!

●●●

أنا فى انتظارك !

أنا في انتظارك أيها الملاك يا صاحب اليد الرحيمة والقلب الحنون، إننى عاجز عن الحركة وقدماى مشلولتان، وأنا جالس أمام النافذة وليس لى عمل سوى الانتظار. إهبط إذن بفضل محبتى لك وأملى فيك. إهبط على قلبي كما يهبط الندى على أوراق الزهور، فكل آلامي سوف تزول لو أنك أتيت، وإذا لم تستطع الحضور بنفسك فإنى انتظر منك رسالة ، ورغم أنني لا أعرف القراءة والكتابة، إذ أنني مازلت صغيراً ومريضًا ولم أدخل مدرسة، فسوف أعتمد على أى شخص يساعدني في قراءة رسالتك عندما تصل إلى . وعندما أتلقى رسالتك يا حبيبي سوف أطير بجناحين في فضاء الله الواسع ، وسوف يدب الدفء في قدمي المشلولتين فتتحركان . وبدون حضورك أو وصول رسالة منك، سوف أظل أمام النافذة انتظر، وسوف أتحدث مع كل من يقبل الحديث معي من الأطفال أو من البائعين المتجولين، أو العابرين الذين لا أعرف ماذا يعملون ، ولكنني سأظل أحلم بك. وحلمي بك قوي ورائع وجميل. حتى لو لم تحضر أنت، ولم تصل إلى منك رسالة، فإنني سوف أعيش سعيداً بأحلامي وانتظاري لك. فالأحلام ولحظات الانتظار الملهوف تمنحني كل المعاني الجميلة التي أحس بها في قلبي، وهي تخفف عني آلام قدمي العاجزتين عن الحركة، وتفتح لي وأنا الصغير الضعيف أبوابًا واسعة للسعادة والرضا والاطمئنان.

أنا في انتظارك إن أتيت.

وفي انتظارك أن أرسلت لي رسالة من رسائلك .. وفى انتظارك حتى لو لم يتحقق شىء من ذلك كله ، ويقى الأمر مجرد حلم من الأحلام، فالأحلام عندي غالية وثمينة، لأن أحلامي هي طعامي، وبها انتصر على الألم واتخطى العقبات والصعوبات .

هل تسمعني أيها الملاك الرحيم ؟

هل تأتي؟

هل ترسل رسالة ؟

هلا تبقيني على ما أنا عليه من السباحة في بحر الأحلام التي لا تعرف سوى الأمل والانتظار ؟

كل هداياك مقبولة حتى لو كانت هذه الهدايا هي: الصمت

تلك هي المعانى التى كانت تدور في نفس الطفل الصغير «أمال» بطل مسرحية «مكتب البريد» لشاعر الإنسانية الهندي العظيم طاغور، وهي مسرحية صغيرة ولكنها تفيض شعرًا وموسيقى وبساطة وإنسانية، وهي مسرحية واقعية لأنها تقدم أحداثًا بسيطة وحوارات بين الناس مما نسمعه كل يوم، ولكنها مع ذلك تبدو في كل سطر منها وكأنها تقول لنا إنها مسرحية غارقة في الرمزية العذبة الشفافة، فوراء كل كلمة وكل صورة معني آخر غير ما تراه العيون، ولو قرأت المسرحية بعينيك فقط فقد تقول لنفسك ما هذه السطحية وما هذه السذاجة ؟. ولذلك فيجب عليك أن تقرأها بقلبك أيضًا ، وعندها سوف تدرك معانيها العالية ، وسوف تشم عطرها الجميل وسوف تسيل من عينيك دموع الرحمة والحنان وهما الينبوعان الصافيان لكل كلمة يكتبها طاغور.

الطفل اسمه «أمال» وقد يكون لهذا الاسم معنى في اللغة البنغالية التي كان طاغور يكتب بها، ولكن الذي لاشك فيه أن كلمة «آمال» لها علاقة باللغة العربية التى أثرت في كثير من اللغات الشرقية ومنها اللغة البنغالية، ولعل دراسة المتخصصين من اللغويين تثبت أن هذا الاسم مستمد بأكمله، معنى ولفظًا من اللغة العربية.

وطفل طاغور «آمال» بطل مسرحية «مكتب البريد» هو طفل يتيم الأبوين، وقد تبناه رجل من رجال الأعمال اسمه «مادهاف» يقول عن الطفل «آمال» وهو يخاطب الطبيب والترجمة للأديب الشاعر الأستاذ طاهر الجبلاوي تلميذ العقاد وأخلص أصدقائه :

«لشد ما أنا فيه .. كنت لا أعبأ بشىء قبل أن يحل في داري ، كانت

حريتي مطلقة ، ولكن منذ جاءنى هذا الطفل، ولا أدرى كيف جاء، امتلأ قلبي بحياته الغالية ، وسوف لا تكون داري مقامًا لى إذا ارتحل عنها هذا الطفل ، ثم يقول «مادهاف» للطبيب الذي جاء إلى بيته لمعرفة المرض الذي أصاب الطفل:

«أنت تعلم كيف كانت زوجتي تتحرق شوقًا إلى طفل تتبناه، وتعلم يا أخى كم عانيت في سبيل الحصول على المال، لقد كرهت فكرة التبني لأن طفلاً من صلب غيري سوف يحصل على كل هذا المال ويتلفه، بعد أن حصلت على مالي بشق الأنفس، ولكن هذا الطفل قد تعلق به قلبي إلى درجة عجيبة جدًا. كان الحصول على المال فيما مضى بالنسبة لي لونًا من ألوان الغريزة. كنت لا أستطيع أن أعمل شيئًا إلا لأكسب المال. والآن أنا أحصل على المال وكلما عرفت أن مالي سوف يئول كله إلى هذا الولد العزيز أصبح اكتساب المال بهجة لي».

ولكن من هو هذا الطفل «آمال» يقول «مادهاف» والده بالتبني أنه ابن لرجل تربطه بزوجتي وشائج الأخوة من القرية، وقد فقد أمه وهو في المهد وبالأمس فقد أباه كذلك.

وما هي مشكلة الطفل بعد أن تبناه «مادهاف» وزوجته؟ الطبيب يقول إن أعضاء جسمه الصغير متنافرة جميعًا، وليس من أمل كبير في حياته ولا سبيل إلى نجاته إلا بتجنبه ريح الخريف وشمسه، وقد قرر الطبيب ألا يخرج الطفل من البيت وأن يبقى ساكنًا بلا حركة وبعيدًا عن كل تيارات الهواء، وإلا فلا أمل في نجاته، ويعترض الطفل على ذلك ويتساءل ألا أستطيع أن أجرى هنا وهناك ؟ ثم يدور هذا الحوار العذب الحساس بين مادهاف وابنه بالتبني :

- ليتني كنت عصفورًا . ما أحب ذلك إلى نفسي . لماذا يا عمي لا تسمح لي بالحركة هنا وهناك ؟

- يقول الطبيب إن الخروج يضر بصحتك.

- وكيف يستطيع الطبيب أن يعرف؟

- ما أعجب قولك ألا يستطيع الطبيب أن يعرف وهو الذي يقرأ الكتب والمراجع العلمية الضخمة ؟

- هل دراسته في الكتب تجعله محيطاً بكل شيء؟

- طبعًا .. ألا تعرف ذلك ؟

- يالي من غبي.. إنني لا أقرأ الكتب.

- والآن فاعلم يا طفلي العزيز أن العلماء الذين بلغوا الغاية في العلم كلهم لا يبرحون منازلهم أبداً.

- ألا يخرجون من بيوتهم على الإطلاق؟

- نعم لا يخرجون منها وكيف يستطيعون هذا ؟ إنهم يعكفون على كتبهم بكد وجد آناء الليل وأطراف النهار، ولا تبصر عيونهم شيئاً سواها، والآن فاستمع إلى أيها الرجل الصغير، سوف تكون عالمًا يوما ما حينما تكبر، وسوف تلازم المنزل وتقرأ تلك الكتب الضخمة . وسوف ينظر إليك الناس بإعجاب ويقولون إنك مدهش.

- كلا .. كلا يا عمي.. أتوسل إليك .. وأجثو على قدميك لا أريد أن أكون عالمًا لا أريد.

- يا للعجب لو كنت أنا عالمًا لكان العلم ذخرًا لي وكنزًا من أعز كنوزي.

- كلا .. أنا أفضل أن أتجول وانتقل هنا وهناك وأن أرى كل شيء.

- ما هذا الكلام ؟ ماذا عسى أن ترى ؟ ما كل هذا الذي تريد أن تراه؟

- أريد أن أرى ذلك الجبل الصغير البعيد الذى يلوح لى من نافذتنا. إن عندي شوقًا دائمًا إلى أن أتخطى تلك الصخور ثم أسير إلى الأمام.

وهكذا نرى أطراف الصراع والقلق والمعاني الإنسانية تمتلئ بها مسرحية «مكتب البريد» فالأب بالتبني، الذي استطاع أن يجمع المال بجهده و«غريزته» التي تدله على أحسن الطرق لجمع المال، هذا الرجل لم يكن يجد بهجة في جمع ماله إلا حينما تبني الطفل «آمال» وكانه في البداية يظن أنه لن يحب الطفل لأنه ليس من صلبه، ولكنه أحب الطفل، وأصبح

معنى حياته مرتبطًا بهذا الطفل، وقد أصيب الطفل بالمرض وأصبح ممنوعًا من الحركة وأصبحت قدماه مشلولتين أو شبه مشلولتين ، والأب يحاول أن يغري الطفل بالبقاء في المنزل والرضا بعدم الحركة، لأن هذا سوف يؤهله في المستقبل لأن يكون من كبار العلماء العاكفين في منازلهم على البحث والقراءة والدراسة ، ولكن الطفل العاجز عن الحركة يرفض ذلك تمامًا، لأنه لا يريد أن يكون من كبار العلماء العاكفين على الكتب والقراءة، فهو يحب الحياة، ويريد أن تكون معرفته بالدنيا عن طريق الحركة والتجول والاحتكاك بالناس، أنه يريد أن يعرف ، على أن تكون معرفته حارة وساخنة وقائمة على الخوض فى تجارب الحياة . ولا يريد لمعرفته أن تكون باردة ومصدرها الوحيد هو الكتب. أنظر إلى فرحة الطفل وهو يصف رجلاً يسعى فى الأرض بحثًا عن رزقه فيقول لوالده بالتبني: أتعرف أنني قابلت بالأمس رجلاً مجنونًا مثلي.. كان هذا الرجل يحمل على كتفه بعض الخيرزان ومن فوقه صرة صغيرة، وكان يمسك في يده اليسرى إبريقًا من النحاس، وفي قدميه حذاء قديم... كان متجهًا إلى التلال مخترقًا إليها تلك الحقول البعيدة، لقد ناديته وسألته «أين تذهب» فقال لي : «أسير باحثًا عن عمل».. ما أحسن هذا ، سوف أسعى مثله باحثًا عن أشياء أعملها، سوف اجتهد في السعي، لقد راقبت ذلك الرجل وهو يسير بحذائه الممزق فلما وصل إلى حيث يتدفق الماء تحت شجرة التين وقف وغسل قدميه في مجرى الماء، ثم أخرج من صرته قطعة من الخبز وغمسها في الماء وأخذ يأكلها، ثم ربط الصرة وحملها على كتفه مرة أخرى وشمر ملابسه إلى ما فوق ركبتيه وعبر الجدول. لقد طلبت من خالتي «أى أمه بالتبني» أن تدعني أذهب إلى الجدول ، وأتناول الخبز مثل هذا الرجل تمامًا، فقالت لي عندما أشفي، سأسير إلى الأمام عند الكثير من الغدران وأخوض المياه، وسيكون جميع الناس مستغرقين في نومهم وأبوابهم مغلقة من قيظ النهار، وسأظل أطوى الأرض لأبحث عن عمل في بلاد بعيدة جدًا .

تلك هي أحلام الطفل «آمال» إنها أحلام السعي في الأرض ، والبحث عن عمل، والحصول على السعادة الغامرة بكل جهد يقوم به، خاصة عندما

يغمس لقمة الخبز في الماء ويأكلها بعد ذلك . تلك هي السعادة الحقيقية التي يتمناها ذلك الطفل العاجز عن الحركة والممنوع بسبب مرضه من الخروج من منزله. وبشيء من التفكير والتأمل نشعر بأن هذا الطفل ما هو إلا الإنسان في الحياة ، هناك قيود كثيرة تعطله وتمنعه من الحركة، بينما عقله وأحلامه ومشاعره تريد كلها أن تنطلق إلى آفاق الأرض الواسعة، ولكن الحواجز تمنعه ومنها حواجز اجتماعية واقتصادية وسياسية وتقاليد وعادات وجسم الإنسان نفسه قيد، فلا هو يستطيع أن يطير مثل العصافير ولا هو يستطيع أن يعيش في مياه البحر مثل الأسماك، وطموحات الإنسان كبيرة وأحلامه واسعة ، ولكنها مقيدة بإمكانيات محدودة مثل ذلك الطفل العاجز المشلول والممنوع من الحركة بأوامر الأطباء.

على أن الطفل العاجز عن الحركة ، والمنطلق في الوقت نفسه بعقله وروحه قد اختار أن يجلس أمام نافذة في بيته تطل على الطريق، وعلى البعد من هذه النافذة مكتب بريد، واستطاع الطفل أن يعقد من موقعه أمام النافذة علاقة طيبة مع كثير من العابرين ومنهم بائع اللبن وبائعة الزهور ومجموعة من الأطفال أعطاهم كل ما يملكه من «اللعب» الكثيرة والجميلة وجلس الأطفال يلعبون أمامه، ورغم أنه لا يلعب معهم، فقد كان وهو يشاهدهم أكثرهم سعادة وبهجة.

وذات يوم مر به «خفير» متواضع وأخذ يتحدث مع الطفل، فسأله الطفل عن «مكتب البريد» وما هي وظيفته، فقال الخفير إن الملك هو الذي أقام مكتب البريد ليرسل من خلاله رسائله إلى الناس وسأل الطفل هل يكتب الملك لي رسالة في يوم من الأيام؟ وأقنعه الخفير الساذج بأن الملك سوف يكتب إليه رسالة لأن الملك يكتب رسائل إلى كل الناس، ومن يومها والطفل يحلم برسالة الملك إليه ويسأل عنها كل يوم، وقد أخذه الجميع على «قدر عقله» وقالوا له سوف تصل الرسالة يومًا ما، وكان الطفل مبتهجًا سعيدًا بحلمه الجميل.. حلم انتظار الرسالة الآتية من الملك، والملك في عقل الطفل وقلبه هو القوة العليا الرحيمة الطيبة التي تستطيع أن تحقق له الشفاء

وتمنحه حرية الحركة والتجول في أنحاء الأرض، والبحث عن المعرفة الحية عن طريق التجارب لا عن طريق الكتب، والملك هو الذي سوف يسمح له بأن **«يغمس لقمة الخبز» في الماء ثم يأكلها كما يتمنى هذا الطفل، وظل الطفل ينتظر الملك أو رسالة الملك التي سوف تأتيه من «مكتب البريد».**

ظل الطفل ينتظر في لهفة وشوق وفوجئ الجميع ممن كانوا يعتقدون أن أحلام الطفل عن الملك ورسالته هي نوع من الجنون الذي أصاب عقله الصغير.. فوجئوا جميعًا بأن الملك بنفسه يأتى إلى الطفل ومعه طبيبه، وأن حلم الانتظار لم يكن عبثًا وأن الأمل الصعب قد أصبح حقيقة أمام عيون الجميع.

هل جاء الملك حقًا أم أن المسألة هي أن طاغور يريد أن يقول لنا إن أحلامنا المخلصة الصادقة في انتظار لحظة الخلاص والانتصار يمكن أن تتحقق؟. إن المسرحية كلها هي حلم. ولكنه حلم طيب نبيل يدفع بالتفاؤل إلى النفوس ويقول لنا جميعًا لا تفقدوا الأمل فيما تحلمون به .. ومن يدري، فقد تتحقق الآمال الطيبة، بل إنها من وجهة نظر طاغور وفلسفته الإنسانية لابد أن تتحقق.

●●●

رسول حمزاتوف

(١٩٢٣ - ....)

لا تقفز من سريرك !

«عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك كأن أحدًا عضك. فكر قبل كل شىء فى أحلامك التى جاءتك في نومك».. تلك هي الحكمة التى يقدمها إلينا في لطف ورشاقة شاعر وفنان كبير من بلد صغير ومظلوم هو «داغستان» .. وداغستان هي جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق، ولكنها لم تحصل على استقلالها مثل غيرها من الجمهوريات الإسلامية الأخرى، وذلك بسبب السياسة المضطربة للرئيس الروسي السابق «يلتسين» فيلتسين هو الذي قام بالدور الأول والأكبر في هدم الاتحاد السوفييتي، مما أدى إلى استقلال معظم الجمهوريات التي كانت جزءًا من هذا الاتحاد، ولكن «يلتسين» بقيت في نفسه أحلام استعمارية لخلق إمبراطورية روسية جديدة تحت راية ما يسمى «بالاتحاد الروسى» وقد أراد أن تبقى روسيا مسيطرة على بعض الجمهوريات الصغيرة، مثل «الشيشان» و«داغستان» ، رغم أن الجمهوريات تختلف عن روسيا في الدين واللغة، وتملك كل العناصر التى تؤهلها للاستقلال . و«داغستان» تحارب من أجل استقلالها، وقد شن عليها الجيش الروسى بقوته الجبارة، حملة قاسية وظالمة، وبعض رجال الإعلام عندنا وفي العالم كله يخطئون عندما يصفون أهل داغستان بأنهم متطرفون أو إرهابيون، فهم في الحقيقة يناضلون من أجل حق لهم، لا تستطيع الشعوب بدونه أن تعيش في أمان، وهذا الحق هو الاستقلال.

وأنا لا أعرف «داغستان» من الناحية الجغرافية ، فمعلوماتي محدودة جدًا في هذا المجال. ولكنني أعرفها أدبيًا وإنسانيًا، حتي كأنني قد زرتها عشرات المرات وعشت فيها زمنًا يمكن حسابه بالسنوات، رغم أنني لم أقم بزيارتها ، ولكنني قرأت عنها ما كتبه شاعرها وأديبها العظيم صاحب السمعة العالمية العالية «رسول حمزاتوف».

وهذا هو سر «الأدب» و«سحره» معًا. فإذا كان هناك أديب جميل يكتب من قلبه، فإنه يستطيع أن ينقلك بأدبه الرائع إلى أى مكان، ويستطيع أيضًا أن ينقل هذا المكان إلى قلبك، فتحبه وتهواه وكأنك من أبنائه الذين ولدوا فيه وعاشوا على أرضه فالأديب الجميل يحمل بلاده في قلبه، ثم يقوم بتحويل هذه البلاد إلى موسيقى بديعة ، وبذلك تتحول خريطة البلد الذي يصوره الفنان إلى «خريطة موسيقية» بدلاً من أن تكون «خريطة جغرافية» فقط، و«الخريطة الموسيقية» أبقى في النفس وأقوى أثرًا من كل الخرائط المادية الأخرى.

و«رسول حمزاتوف» شاعر «داغستان» وأديبها الكبير له كتاب رائع اسمه «داغستان بلدى» والعنوان نفسه لا إغراء فيه، ولكنك ما تكاد تقرأ السطور الأولى من هذا الكتاب العجيب حتى يشدك ما فيه من سحر وصدق وبساطة مذهلة، فلا تتوقف عن القراءة حتى تنتهى منه.

وهذا الكتاب الرائع له ترجمة عربية من أبدع الترجمات التي حافظت على روح الأصل وجماله وعذوبته، وصاحب هذه الترجمة الراقية هو الأديب السورى المعروف عبد المعين الملوحي، وقد ترجم الكتاب عن اللغة الفرنسية.

وقبل أن نقرأ الكتاب نجد أمامنا ثلاث عبارات شعرية بديعة، تقول العبارة الأولى.

«أيها المسافر إذا لم تدخل منزلي الذي تمر عليه في طريقك، فليسقط الثلج والرعد على رأسك .. الثلج والرعد» !

أما العبارة الثانية فهي متصلة بالعبارة السابقة ، وفي هذه العبارة الثانية يقول «حمزاتوف» عن «المسافر» الذى أصبح ضيفًا :

«أيها الضيف، إذا لم يرحب بك منزلي فليسقط الثلج والرعد على رأسى.. الثلج والرعد».

أما العبارة الثالثة فيقول فيها أديبنا الساحر «رسول حمزاتوف»

قال أبو طالب :

«إذا أطلقت نيران مسدسك على الماضى أطلق المستقبل نيران مدافعه عليك»!

و«أبو طالب» هنا هو الاسم الرمزي الجميل الذي يطلقه الشاعر على نفسه . وهذا هو اجتهادي في تفسير هذا الاسم الذي يستخدمه الشاعر الفنان كثيرًا . ومن الطريف والمفيد هنا أن نعرف أن «رسول حمزاتوف» هو شاعر مسلم، والاسم الأصلى له هو رسول حمزة و«أوف» هي الصيغة الروسية التي تضاف إلى أسماء الرجال بينما «أوفا» هي التي تنتهي بها أسماء النساء فلو كان حمزاتوف» امرأة لأصبح اسمه «حمزتوفا» وثقافة أديبنا الداغستاني الساحر هي في جزء أساسي منها ثقافة إسلامية عميقة ومستنيرة ، والثقافة الإسلامية مرتبطة كل الارتباط بالثقافة العربية. ومن هنا كان اسم «أبو طالب» لدى الأديب الداغستاني الكبير مألوفًا . وأعتقد أن هذا الاسم عند «رسول حمزاتوف» له دلالة أخرى غير دلالته التاريخية ، فأبوطالب هو عم الرسول محمد ﷺ وهو الذي ظل يقف إلى جانب الرسول ﷺ ويحميه من أعدائه حتى وفاته، ولكن اسم «أبوطالب» له ظلال أخرى من الناحية اللغوية الخالصة، إذ أنه يحمل معنى «الطلب» للمعرفة والبحث عنها، والأمل في الوصول إلى ينابيعها الصافية، فكأن الشاعر يقول لنا في كتاباته أنه يطلب المعرفة والرؤية، ويبحث عن الصدق والحقيقة، ولذلك فهو «أبو طالب».

والفكرة أو النغمة الرئيسية في كتاب «داغستان بلدى» هي النغمة التي تمثلها الكلمات الواردة في أول هذا الفصل، وهي التي يقول فيها رسول حمزاتوف: «عندما تستيقظ من نومك فلا تقفز من سريرك. كأن أحدًا عضك. فكر قبل كل شىء في أحلامك التي جاءتك في نومك ..» فالنغمة الرئيسية التى يعزفها شاعرنا الجميل هي نغمة المطالبة الرقيقة بالتأني والتمهل والتأمل، وهي نغمة فيها نوع من الرضا ونوع من الاحتجاج، أما الرضا فلأن الشاعر يقول لنا هنا إن الحياة التي بين يدينا والتي نملكها بالفعل، مهما كانت بسيطة فإن فيها من المباهج والمعاني ما يستحق منا أن نهتم به ولا نهمله، فالنوم فيه أحلام، وكل مكان نعيش فيه لنا معه ذكريات، ونحن مهما ضاقت بنا الدنيا لنا بعض الأحباب الذين ابتسمنا معهم، ومددنا إليهم أيدينا لنصافحهم بحرارة، واحتضناهم يومًا ، واحتضنونا في

يوم آخر. أما نغمة الاحتجاج فهي ضد السرعة والهرولة والقفز المستمر من مكان إلى مكان، ومن حالة إلى حالة ، ومن موقف إلى موقف. إن لغة «السرعة» التي فرضت نفسها على الناس جميعًا في هذا العصر، هي لغة سيئة، وهي تضر بالإحساس والمشاعر، وتخفى عنا كثيرًا من الأشياء الجميلة والطيبة التى بين أيدينا ولكننا لا ننتبه إليها، لأننا تعودنا على أن نقفز من سريرنا عندما نستيقظ من النوم، على عكس نصيحة الشاعر لنا بألا نقفز كأن أحدًا قد عضنا. وللأسف فإن حياتنا كلها قد أصبحت خاضعة لمنطق السرعة والهرولة في تعاملنا مع كل شئوننا في هذا العصر، فنحن نجري ونلهث وكأن هناك من يطاردنا وفي يده مسدس يريد أن يطلقه على ظهورنا.

الشاعر «حمزاتوف» يدعونا دعوة نبيلة إلى أن نحترم حياتنا ونستمتع بها عن طريق التأني والتأمل، بل وعن طريق الصمت في بعض الأحيان، فالصمت نفسه يعطينا فرصة للتأمل العميق الهادئ، ويتيح لنا أن نرى الأمور ونعرف الدنيا بصورة صحيحة واضحة خالية من الغبار والضباب.

يقول رسول حمزاتوف :

«إن الإنسان في حاجة إلى عامين ليتعلم الكلام، وإلى ستين عامًا ليتعلم الصمت. وأنا لست ابن عامين ولا ابن ستين عامًا. أنا في نصف الطريق. ومع ذلك فيخيل إلى أني أقرب إلى الستين، لأن الكلمات التي لم أقلها أغلى على قلبي من كل الكلمات التي قلتها».

وشاعرنا الكبير يلمس هنا حقيقة مهمة في كل النفوس، وهي أننا في العادة نحتفظ بالغالي والثمين مما نملكه في مكان بعيد عن العيون، ونعتبره سرًا من أسرارنا الخاصة، وكذلك الكلمات الغالية والثمينة، فنحن نحتفظ بها فلا نقولها ولا نرددها إلا في أضيق الحدود وقد لا ننطق بها أبدًا، فكم مرة يستطيع الإنسان أن يقول من قلبه في صدق وإخلاص كلمة «أحبك» إنه لا يقولها إلا مرة واحدة في حياته وقد يكررها لنفس «الحبيب» مرات قليلة أخرى. ولكنها إذا ترددت على اللسان بصورة مستمرة متعددة فهي تكون كلمة «كاذبة». وهناك كثير من الكلمات الأخرى الحميمة والمستقرة في

قلوبنا ، يحميها الصمت من أن تكون كلمات مبتذلة. فالصمت عالم كامل، وثروة روحية هائلة ، والذين يعرفون قيمة الصمت هم وحدهم الذين يعرفون قيمة الحياة، وهم الذين يعرفون بالتحديد قيمة حياتهم الخاصة بهم، لأنهم يحتفظون في داخلهم بما هو عزيز عليهم، فلا يكون نهبًا لأيدي العابرين والعابثين.

والإيجاز والاختصار هما صفتان كريمتان من صفات الذين يعرفون القيمة الكامنة في عالم «الصمت» العظيم ، وهذه قصة واقعية بديعة يرويها «رسول حمزاتوف» ورغم ما فيها من واقعية، فهي تحمل رمزًا سهلاً بسيطًا يشير إلى أن حكمة الحياة الصادقة تكمن في الإيجاز واختيار الكلمات البسيطة في كل شيء . يقول رسول حمزاتوف .

«عندما كنت طالبًا في موسكو، أرسل لي والدي نقودًا لأشتري معطفا شتويًا، وأنفقت النقود ولكنني لم أشتر المعطف، وعندما عدت إلى داغستان في عطلة الشتاء كنت ألبس ما لبسته حين غادرت داغستان إلى موسكو في أخريات الصيف. وعندما وصلت إلى داري حاولت أن أعتذر عما فعلت مخترعًا أساطير بعضها أكثر غباء وسخفًا من بعض ، وعندما أضاعتني قصصي ضياعًا تامًا قاطعنى والدي قائلاً:

- قف يا رسول . أريد أن أسألك سؤالي.

- اسألني.

- هل اشتريت معطفاً ؟

- لا .

- هل أنفقت النقود ؟

- نعم .

- إذن فقد اتضح كل شيء. فلماذا تفتعل كل هذه الأقاويل ؟

ولماذا تخترع مقدمة طويلة كل هذا الطول، وأنت تكفيك كلمتان اثنتان لإيضاح ما هو مهم؟

ثم يعلق «رسول حمزاتوف» على هذه القصة الواقعية الممتعة فيقول :

«هكذا رباني أبي».

«ومع ذلك فإن الطفل الذي يأتي إلى الحياة لا يتعلم الكلام مباشرة، إنه قبل أن ينطق كلمة يتمتم ويتلعثم بألفاظ غير واضحة . ويبكي إذا لم تعرف أمه ما يريده ويؤلمه .

أليس روح الشاعر مثل روح الطفل »؟

ويقول شاعرنا الجميل أيضًا:

«من عادة منطقتنا الجبلية في داغستان ألا يركب الفارس صهوة حصانه أمام داره . وعليه أن يقوم بإخراج حصانه أولاً من القرية وهو يمشي إلى جانبه ممسكًا بلجامه، هذا ما ينبغى أن يكون، وذلك لكى يستطيع الفارس التفكير مرة أخرى فيما يترك هنا في القرية وفيما ينتظره هناك فى الطريق، ومهما كانت المهمة التي يسافر من أجلها فهو يقود حصانه من لجامه، في تفكير ودون استعجال من أمره، حتي يخرج من القرية . وعند ذلك ؛ فقط يقفز على صهوة الحصان، فلا يكاد يمس الركاب حتى يغيب في غيمة صغيرة من الغبار وهو مائل على وجهه فوق سرجه».

ثم يروي لنا الشاعر الجميل على لسان «أبو طالب» رمز البحث عن الحكمة والمعرفة، هذه الحكاية الصغيرة ذات المعني الكبير فيقول:

«قال أبو طالب:

- هناك قشة تعض عليها المرأة الجبلية المؤمنة بالخرافات وهي ترفع معطف زوجها لأن الخرافة تقول أن المعطف يمكن أن يصبح كفنًا لصاحبه إذا لم تحتفظ الزوجة بقشة من التبن وتعض عليها بين أسنانها».

وكل ما جاء في كتاب «داغستان بلدى» من هذا الطراز البديع . إنه شعر في شعر ولكنه شعر من الطراز الرفيع الصافي الخالي من أي تعقيد، والذي يخرج من قلب صاحبه ليدخل كل القلوب.

يقول الشاعر :

- «لا تخرج الخنجر من الغمد دون الحاجة إليه ، ولكن إذا أخرجته فأضرب

به.. إضرب لكي تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة ، وقبل أن تقوم بإخراج الخنجر عليك أن تعرف أن حد الخنجر قاطع وقاتل».

ويقول:

«عليك بالغناء إذا جاء الربيع ، ويمكنك أن تجلس لتحكي الحكايات إذا جاء الشتاء.

فالنغمة الأساسية عند «رسول حمزاتوف» هي الدعوة إلى اكتشاف جمال الحياة وقوتها وحكمتها بالتأني والمراجعة والصمت والإيجاز واختيار التوقيت الصحيح لكل شيء وعدم القفز من السرير عند الاستيقاظ من النوم.. فلا داعي للسرعة والهرولة وليسقط منطق عصرنا الذي يفرض علينا أن نجري ونلهث فنفقد بذلك إحساسنا بجمال الحياة ونعمتها ، ولا نرى ما بين أيدينا من أشياء الجمال، حتى لو كانت هذه الأشياء متواضعة وبسيطة.

إن البلاد الصغيرة تصبح كبيرة بفنانيها وأدبائها وشعرائها وأهل الحكمة فيها. وداغستان بلد صغير، ولكنها أصبحت كبيرة بإبنها شاعرها العظيم : رسول حمزاتوف.

ويا رسول حمزاتوف .. ياصديقي وحبيبي، في الفن وسحر الكلمات، اسمح لي أن تكون لنا لقاءات أخرى معك فنبعك الصافي يغرينا بأن نشرب منه مرات ومرات.

●●●

المحبون عندما يغضبون!

كل زهرة في هذه الدنيا يمكن أن تذبل، إلا زهرة واحدة هي زهرة الحب، فهي زهرة تعيش في ربيع دائم، والطبيعة تمدها بالحياة والجمال لكي تعطي للإنسان ينبوعًا للسعادة عندما تجف من حوله كل الينابيع، والحب الذى تذبل أزهاره ليس هو الحب بمعناه المحدود، أى ذلك الشعور المتبادل بين قلبين عاشقين ، ولكنه الحب الأكبر الذي تحميه الطبيعة وتحنو عليه، وهو الحب الشامل الذي يمكن للإنسان أن يحمله في قلبه للأرض والوطن والناس والمرأة والبيت والأسرة والعمل الذي يقوم به، وهناك نفوس تعرف هذا المعنى الكبير للحب، فهي نفوس «محبة» وليست نفوسًا «كارهة» ، وهي تنظر إلى الناس والأشياء في تعاطف وحنان، وتفرح بكل ما هو جميل في الأقوال والأفعال، وفي كل مظاهر الطبيعة من جبال وأنهار وبحار ومحيطات وأشجار وأزهار وأعشاب.

تلك هي «النفس المحبة» التي منحها الله عينا قادرة على أن ترى كل ما هو جميل وتلتفت إليه ، والنفس المحبة هي نقيض النفس الكارهة، والتي أصابها الله بداء الغباء في المشاعر والرؤية والإحساس، فهي لا ترى الجمال حتى لو كان أقرب إليها من نبضات قلبها، وهي منقبضة دائمًا، تشعر بالضيق من كل إنسان وفي كل مكان، لا تستمع إلى موسيقى الحياة الطيبة العذبة ، في لمسة دافئة أو ابتسامة طفل، أو دعوة أم لابنها في الصباح وهو ذاهب إلى مدرسته إن كان صغيرًا، أو إلى عمله عندما يبدأ في الاشتباك مع الحياة ومعاركها اليومية.

النفوس المحبة - بطبيعتها - هي وحدها التي ترى الجمال وتسمع موسيقى الحياة الخفية . وتفتح لنفسها ولغيرها كل الأبواب المغلقة، أما النفوس الكارهة فلا ترى في الوردة غير الشوك ، ولا في الشمعة المضيئة غير اللهب الذي يلسع الأصابع، ولا في الناس غير الرغبة في الانتصار

عليهم وهزيمتهم، حتي تشعر هذه النفس «الكارهة» أنها قد رضيت بعد أن داست على رؤوس الآخرين.

شاعر «داغستان» العالمي العظيم «رسول حمزاتوف» هو من كبار النفوس المحبة في هذه الدنيا ، وهو يقدم لنا صورة حية لبلده داغستان على أنها بلد الحب والجمال والرجولة والوفاء والإنسانية الطيبة الكريمة ، وقد كانت مقاومة أهل داغستان للجيش الروسي هي دفاع عن أنفسهم، ورغبة في تحقيق أملهم القديم في الاستقلال ببلادهم، أما ما يفعله الجيش الروسي الذي ضرب داغستان بأحدث الأسلحة وأسكت صوت المقاومة فيها فإنها جريمة صريحة في حق الإنسانية .

«رسول حمزاتوف» يعيش الآن في عاصمة بلاده داغستان، واسم هذه العاصمة «محج القلعة» ، وهو اسم «عربي» خالص مشتق من كلمتين عربيتين هما «الحج» و«القلعة» والشاعر المحب رسول حمزاتوف يضع وطنه في قائمة أحبابه، ولذلك فقد فضل أن يعيش في وطنه أثناء محنته في مقاومة الجيش الروسي، وفي حديث أجراه معه الصحفي الأديب أحمد الخميسي يقول «حمزاتوف».

كنت من قبل أحس أن موسكو وطني، مثلها مثل عاصمة بلادي «محج القلعة» ، ومع ذلك كنت إذا بقيت في موسكو لمدة أسبوع أحس بحنين لبلادي ، ويلح على إحساس بأن الشعر بدون وطن مثل طائر بلا عش، وأذكر شعراء كثيرين طوى النسيان قصائدهم فماتت، مثلما تموت العصافير التي يطاردها الناس أحياناً ولا يمنحونها فرصة الهبوط وملامسة الأرض ، فتظل تطير وتحلق بلا نهاية حتى تموت . الشعر أيضًا يموت إذا لم يكن له وطن وأرض».

ثم يقول «حمزاتوف» في الحديث نفسه مع أحمد الخميسي، وكان الحديث يدور في بيت «حمزاتوف» أمام زوجته «فاطمان» أو «فاطمة» بعد تحريف بسيط :

«لقد حاربت السلطات السوفييتية الاختلافات القومية بالنسبة لشعوب الاتحاد السوفييتي، ومنها داغستان ، وأرادت أن تقيم بالقوة شعبًا واحداً.

فهل تكون الشجرة أجمل إذا أنت قطعت فروعها المختلفة ؟ وهل تكون السماء أجمل إذا أنت لملمت نجومها في نجمة واحدة كبيرة؟ لا شك أن الفكرة «الشمولية» للنظام السوفييتي قد قضت على الكثير ، ولا شك أن للنظام السوفييتي أخطاء عديدة، ولكن ما الذي أعقب الانهيارات الكبرى التى تمت ؟ لقد اختلفت صورة بلادنا وظهر لدينا ما يسمونه السوق التي أصبح فيها كل شيء يباع ويشتري. وأصبح من الممكن شراء كل شيء في روسيا : الضمير والبطولة، الموهبة والجمال، النساء والأطفال، الشعر ، الموسيقى ، الأرض والأمومة أحياناً . ما الذي منحنا إياه جورباتشوف ويلتسين بدلاً من بريجنيف وتشيرننكو؟ إننا نعيش مرحلة وحشية تتحالف فيها السلطة مع رجال الأعمال والبنوك والمجرمين ولا شيء عدا ذلك ».

ويواصل شاعرنا «حمزاتوف» حديثه المهم. وكان حمزاتوف في هذا الحديث - رغم صوته الهادئ - غاضبًا. وقديمًا كانوا يقولون «احذر غضب الحليم» ، ومن الحق أن نقول «احذر غضب المحبين أيضًا». وحمزاتوف «محب»، بل هو من أكبر المحبين في هذا العالم، ولكن قلبه الطيب النبيل غاضب على أحوال الدنيا من حوله . يقول المحب الجميل حمزاتوف في غضبه:

«لقد قادنا «جورباتشوف» إلى انهيار كامل ، وقد وقفت ضد تفكيك الاتحاد السوفييتي، إنني أودع زمناً واستقبل زمناً جديداً، وأقوم بوزن كل الخسائر والمكاسب، ولكنني لا أوافق على تحويل كل ما هو أخضر إلى أصفر وأسود . فقد سعت الثورة الاشتراكية إلى أهداف نبيلة، ولكن ما الذي تسعى إليه روسيا الآن . لقد قام الوضع الحالي بتحويل الرؤوس إلى أقدام ، وأخذ في الطيران كل من ولدته أمه ليزحف، بينما يزحف كل من ولدته أمه ولديه القدرة على الطيران ، وبدلاً من «العلانية» و«الديمقراطية» هبط علينا نظام استغلالي وحشي .. حرية الإنسان الوحيدة فيه هي أن يجوع. ولم تكن أوضاع بلادنا سيئة إلى هذه الدرجة أبداً ، حتى في سنوات الحرب ضد النازية . لقد انطوت صفحة الاشتراكية والنظام الشمولي، لكن السوق

والديمقـراطيـة لم تجلبـا لنا شـيئـًا حسنـًا .. كل شـيء يبـاع .. نعم، ولكن الإلهام والإبداع لا يباعـان. تباع فقط المطبوعات . ولم تظهـر - منذ ظهور جورباتشوف حتى الآن - أية أعمال ذات قيمـة .. لا رواية .. ولا قصة .. ولا قصيدة .. ولا مسرحية .. ولا كاتب كبير .. لقد نشروا الأعمال التي كانت محظورة من قبل فحسب. لكن لم يظهر شيء جديد . أصبحت بلادنا بلدين ، وبعضنا يعاني من فرط الشبع ، وبعضنا يعاني من فرط الجوع ، والشبعانون لا وقت لديهم للشعر، والجائعون لا يحتاجون إليه. كانوا يصادرون فيما مضى كتابين أو ثلاثة ، الآن تم إلقاء القبض على الأدب كله، فليس هناك ورق للطباعة والنشر، بل لم تعد هناك مطابع ، وليس هناك قارئ . كان العالم فيما مضى يثور ثورة لا حد لها، لأن الرقابة صادرت رواية «لباسترناك» أو ديوان شعر «لانا إخما توفا» .. الآن لم يعد هناك شيء محظور ، لكن شيئًا لم يعد يصدر. وعندما احتفلت روسيا بذكرى ميلاد أمير شعرائها بوشكين فإن الدولة لم تستطع إعادة طباعة أعماله بهذه المناسبة .. يقولون .. «ليس هناك ورق .. لكن .. ما إن يكتب عمدة «بطرسبورج» مذكراته السياسية فإن الورق يظهر في هذه الحالة بشكل وفير».

ثم يقول المحب الغاضب «حمزاتوف»:

«خلال ذلك كله أصبح بعض الصغار عمالقة، وهم يمارسون السياسة، وكأنها اللعب فوق الحبال، يستديرون لليمين مرة ولليسار مرة أخرى، لكيلا يسقطوا من فوق الحبال، لأنهم إذا مشوا باستقامة فسوف يسقطون على الفور، وقد تبدل الكثيرون في مواقفهم وحياتهم.. وربما يمكن للإنسان أن يبدل «قبعته» وفقًا لحالة الطقس، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يبدل رأسه»!

ثم يقول الغاضب الجميل «حمزاتوف» :

«إن الكثيرين يتهمونني الآن بأنني كنت قريبًا من السلطة السوفييتية، بينما السؤال الحقيقي هو:

هل كنت شاعرًا موهوبًا أو كنت غير موهوب ؟

هل كنت أدافع عن المظلومين والضعفاء أم لا ؟ لقد تم انتخابي عضوًا في مجلس السوفييت الأعلى، لكنني كنت اكتب - على أوراق مجلس السوفييت - قصائدي في الحب والوطن ، وقد حضرت جلسات كثيرة لمجلس السوفييت، لكن جلسة واحدة بقيت في ذاكرتي، وذلك عندما طار عصفور من الخارج ودخل من إحدى النوافذ إلى قاعة قصر : «الكرملين» فتهللت وجوهنا كلنا، وكان هذا العصفور كأنه يقول لنا جميعًا : «لقد حل الربيع ، بينما أنتم تثرثرون» .. ويبدو لي أن السعادة التى تنشدها البشرية لا تزال بعيدة . ولا يزال على البشرية أن تعمل كثيرًا من أجل الوصول إليها».

ويقول الأستاذ أحمد الخميسي في حديثه الرائع مع شاعرنا «حمزاتوف» أن «حمزاتوف» وقف أمام رئيس جمهورية داغستان بعد خلاف بينهما وقال له:

«الرؤساء يأتون ويذهبون، أما الشعراء فإنهم باقون، لأن أحداً لا يقوم بتعيين «الشاعر» ولا يستطيع أحد أن يفصله».

«وعندما يتجول الشاعر حمزاتوف مع حفيدته في الشوارع يحني كل عابر في الطريق رأسه له بحب وإعجاب صادرين من صميم القلب».

وقبل أن أنتهي من هذا الوجه الغاضب للشاعر المحب «حمزاتوف» شاعر داغستان وشاعر الإنسانية معًا، أود أن أشير إلى كلمة وجهها إلينا نحن العرب في حديث آخر أجرته معه الأديبة «زينات البيطار» يقول فيها :

«أريد أن أشير إلى أنه على العرب أن يتوحدوا لكى يستطيعوا جذب التأييد لهم ولقضيتهم العادلة ولم يؤذ العرب أحد مثلما أوقعوا الإيذاء بأنفسهم بسبب خلافاتهم. فإذا تكلمت مع السوري فإنه يطعن في العراقي، وإذا ناقشت العراقي فإنه يشتم السوري، وهكذا شأن العرب جميعًا، فكيف يمكن تأييد عائلة مختلفة ولا تجيد العيش المشترك بين أفرادها ؟»

إنها كلمة حق من شاعر عالمي يحب العرب ، ويعتز بأن والده كان يعرف اللغة العربية ويكتب بها بعض أشعاره ، وعندما أراد هذا الأب أن يترجم

أعمال بعض الأدباء الروس من أمثال تشيكوف إلى لغته القومية واسمها اللغة «الآفارية» ترجم هؤلاء الأدباء عن اللغة العربية، لأن هذا الأب لم يكن يعرف الروسية، بينما كان يتقن العربية ويكتب بها بعض أشعاره.

ولشاعرنا «حمزاتوف» قصيدة عن فلسطين يقول فيها «ترجمة زينات البيطار» :

«ليل طويل. يضنيه حزن موجع . ولا فجر للحزن. فأين أنت يا فلسطين.. ربيعك حارق.. وشتاؤك حارق.. شهيق دائم .. فأين زفيرك يا فلسطين؟».

وردك يذبل، ونبعك يجف، والمغيب دموي. فأين فجرك يا فلسطين؟ . خالدة في الأحلام، وفي المنام ، وفي الأغاني ، فهل ابتعدت عناية الله عن رملك وأحجارك، ولم تعد تسمع أغانيك وصلواتك ؟ الطير أصابه الخرس على سعف نخيلك المبتور.

أصبحت - يا فلسطين - جرحًا بليغًا في جسد الأرض العربية . نامت القنابل على وسائد أطفالك بدلاً من ألعابهم. وحمل أطفالك خناجرهم في المهد.

وأجمل أغاني العالم.. أنت يا فلسطين. يدق القلق أوتار الروح .. فأى الحكايات يمكننى أن أقصها عنك. لم يبق من حكايا مضيئة غيرك يا فلسطين .. حزن موحش فى تونس ولا فرح فى باريس .. ولا أجمل منك يا فلسطين . مساجد القدس ونهر الأردن .. وكلنا نغنى .. ونعزف أغنية واحدة: سوف نعود إليك يا فلسطين».

وفي هذه القصيدة الإنسانية الجميلة عن فلسطين يمتزج التعاطف بالغضب والحزن في قلب شاعرنا النبيل «حمزاتوف».

ونترك هذه الأجواء الغاضبة لنقف لحظات مع بعض الأشعار الإنسانية الجميلة لشاعرنا حمزاتوف. فلا أحب أن أنهي هذا الفصل عن شاعرنا الإنساني الرائع بغير كلماته التي تهز القلب وتفتن النفوس . ففي قصيدة قصيرة له عنوانها «الأحمر والأسود» يقول:

- من أين ينبع الأحمر ؟

- من الأسود ينبع ، فمن قديم الزمان .

تسيل الدماء بسبب الأفعال السوداء.

- ومن أين ينبع الأسود ؟

- من الأحمر ينبع .

فعندما تسيل الدماء.

يتشح العالم كله بالسواد».

وله قصيدة أخرى عن «النفاق» ، وهي ، مع القصيدة السابقة، من ترجمة الأستاذ «أبو بكر يوسف» يقول الشاعر الكبير :

«لم يضع على قلبه تعويذة، فمات البطل أمام وجه الزمن . لم يسقط صريع رصاصة أو بسبب وشاية، بل مات في بطء بخنجر النفاق. تسلل إليه النفاق مثل عاهرة ماكرة . كانت ترتدي ثوب البراءة والطهر فاستعذب شفتيها الغادرتين وهما تقطران عسلاً، واستسلم لهما في سعادة . وتخيل أنه لم يرتكب إثماً ، لكن الدنيا انقلبت في لحظة ، عندما رأى «القهوة» تسيل تحت قدميه. وبعد أن أتم «النفاق» لعبته المفضلة ، انقلب هذا النفاق إلى حية ، قضت عليه بقطرة من سمها، لا تصدقوا النفاق، ففيه يكمن الشر ، وكم من مرة قتلنا، لا بالرصاص، أو الوشاشة ، بل بسمومه التي تحمل طعم السكر ، وينبغي أن يذكر ذلك، وهم يرتفعون إلى ذرا المجد : الشعراء ورواد الفضاء ورجال الدولة أيضاً».

هذا هو وجه «حمزاتوف» المحب عندما يشعر بالغضب وقليلاً ما يغضب حمزاتوف لأن الحب والرحمة والحنان في قلبه أكبر من كل شيء.. وأمام وجهه المحب لنا وقفات أخرى في الفصول التالية.

●●●

شاعر وثلاث نساء

مازالت الرحلة مستمرة مع الشاعر العظيم «رسول حمزاتوف» شاعر «داغستان» المجاهدة بشهادة ميلاده وبحب الشعب الداغستاني له ، وشاعر الإنسانية كلها بشهادة أهم من شهادة الميلاد، وهي شهادة كتاباته البديعة الرحيمة الحنون، شعرًا ونثرًا ، وأحب أن يشاركني الجميع في «الطرب» و«النشوة و الفرح» ، وهي المشاعر التي تولد جميعًا في القلب ونحن نقرأ كلمات «رسول حمزاتوف» .. تلك الكلمات التي تسقط على صاحبها وعلينا مثل قطرات الندى على أوراق الورد في صباح جميل.. وفي الحقيقة، فإنني لم أعد أستطيع أن أفرق بين شعر «رسول» وبين نثره ، فهو في الشعر والنثر معًا: فنان وإنسان وصاحب قلب من أطيب وأذكى وأنبل القلوب، وهذا دليل حي على أن «الثرثرة» في التفرقة بين الشعر والنثر والموسيقى وغيرها من الفنون لا معنى لها في الطبقات العليا من الفن، فعندما نصل إلى هذه الطبقات نجد عناقًا كاملاً بين النثر والشعر والموسيقى والإيمان بالله ومحبة الإنسان، حيث يجتمع كل ذلك في شيء واحد اسمه : الفن الرفيع البسيط، والذى يشبه المطر والأزهار ونسمات الليل الوديعة الهادئة في أيام الربيع، فهو فن فيه لمسة إلهية، فلا صنعة فيه ولا افتعال ولا تعقيد، وكل نغمة في مثل هذا الفن تعزفها أنامل الملائكة ، ولا تغيب عذوبتها وما فيها من شفافية بالترجمة من لغة إلى لغة ، فأصابع الملائكة التي تعزف هذه النغمات لا تعرف سوى لغة واحدة هي لغة القلب الإنساني.

إن «رسول حمزاتوف» هو شاعر الحب بمعناه الشامل. حب المرأة وحب الوطن وحب الناس. وهو يعبر عن ذلك من خلال شعره الذى يملأ قلبه،

والذي يحدثنا عنه في نثر هو الشعر الصافي بكل معنى الكلمة ، فيقول في مذكراته «داغستان بلدي » ترجمة الأستاذ عبد المعين الملوحي» :

- «عندما كنت أقرر أن أهجر الشعر إلى النثر كان الشعر هو الذى لا يريد أن يهجرني. إنه مثل قط أليف يأتي ليندس تحت فراشي وتحت لحافي عندما أنام. وعندما أفتح نافذتي عند الصباح يتسلل إلى كما يتسلل شعاع الشمس من وراء الجبال. إن الشعر يطاردني في كل مكان كأنه امرأة قمت بخداعها فهي تلقاني وتسد على طريقي وتقول : أحقًا تريد أن تهجرني؟ .. عليك أن تفكر قليلاً وتسأل نفسك هل تستطيع أن تعيش بدوني ؟. إنك سمكة تعودت أن تسبح في الماء الذى يجرى سريعًا باردًا مثل الثلج . فهل تظن أنك ترضى بالحياة في بحيرة دافئة ساكنة ؟. حسنًا ، مادمت قد قررت أن تذهب فتعال نجلس معًا لحظة قبل أن نفترق».

ثم يقول حمزاتوف ، عاشق الشعر والإنسان :

«أيها الشعر. ألا تعرف أنني لا أستطيع أن أهجرك؟ وهل أستطيع أن أهجر كل الأفراح التي تولد في نفسي، وكل الدموع التي تترقرق في عيني؟ أنت - أيها الشعر - مثل البنت التي جاءت إلى العالم، بينما كان العالم كله ينتظر صبيًا، أنت مثل هذه البنت عند ولادتها ، وكأنها بولادتها تقول : أنا أعرف أنكم لا تنتظرونني. وأعرف أن ليس فيكم حتى الآن من يحبني، ولكن دعوني أصبح كبيرة وأتفتح على الحياة ، دعوني أقوم بتسريح شعري، وأغني أغنية ، عندئذ سوف ترون أن ليس في العالم كله من يجرؤ فيقول : إنه لا يحبني!».

ورسول حمزاتوف له فصل عنوانه «الهارب من الحب هارب من المعركة» ترجمة شوقي العمري «مجلة الكرمل - عدد ١٨ سنة ١٩٨٥) ، وفي هذا الفصل يشير «رسول » إلى اسم الشخصية التي يستخدمها في كتاباته وهي شخصية «أبو طالب» والتي ترمز في شفافية إلى معنى طلب المعرفة والحكمة ، وفي هذا الفصل يقول الشاعر :

«عندما سألوا بطلي «أبو طالب» كم مرة أحب ؟ أجاب: ألف مرة .. ألا يبدو هذا كثيرًا ؟! .. وأنا كتبت ألف قصيدة شعر . وكل قصيدة كتبتها تعنى

عندي الحب؟! ، فالحب يدفع الحياة في قلم الشاعر . ولكن يجب ألا تفهم هذا بشكل فيه تبسيط بحيث يبدو الشعر وكأن غرضه الإفصاح عن الحب، فالإفصاح عن الحب بلا نهاية يفقد الحب والشعر معًا ما لهما من قيمة فالشاعر عندما يتحدث عن الحب فهو يعني الحب للبيت، للناس الذين هم أحباء إلى روحه ، للمرأة الوحيدة».

فمعنى الحب عند الشاعر «حمزاتوف» إذن هو معنى شامل للحياة والناس، وهو موقف إنساني كامل وشامل للشاعر في نظرته إلى كل الأمور. إنه شاعر محب، وإنسان محب، وهو نموذج نادر لهؤلاء الذين يأخذون الحياة بالأحضان، ويعاملون الدنيا بمشاعر غامرة من المحبة، ولا يلجأون إلى مشاعر الحسد والحقد والكراهية والرغبة المجنونة في التنافس والانتصار على الآخرين. والحقيقة أننا لو نظرنا إلى الناس من حولنا لوجدنا أن الدنيا كلها تنقسم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما : محبين أو كارهين، والمحبون هم مصدر الخير والجمال، والكارهون هم مصدر الشر والتعاسة والمتاعب التي يعاني منها البشر . وشاعرنا «رسول حمزاتوف» هو واحد من كبار المحبين في هذا العالم، والحب عنده هو مصدر أشعاره وكتاباته الأخرى التي لا تقل جمالاً عن الأشعار، والحب أيضًا هو مصدر مواقفه المختلفة في جميع الأحوال السياسية والاجتماعية والإنسانية . والحب الذي يمثله شاعرنا «رسول حمزاتوف» ليس نوعًا من السذاجة والغفلة عما في هذه الدنيا من الشرور والأحقاد، بل الحب هنا وعي وبصيرة وقدرة كبيرة على مواجهة مصاعب الدنيا ، مع الإيمان العميق بأن القلب المحب الذكي قادر فى آخر الأمر على القتال والانتصار، وهذا ما يؤكده رسول حمزاتوف عندما يقول :

«ما هو الشعر؟ ما هو الحب ؟ .. بدون الشعر .. وبدون الحب .. يفقد الجمال سره وسحره ، فالجبال دون شعر حجارة مكدسة ، والشمس جسد سماوي ملىء بالطاقة الدافئة . وغناء العصافير هو نداء النفس للنفس، أما خفقات القلب فهي فقط دورة الدم السريعة .. بالتأكيد يوجد الأمل

والخير، الكبرياء والغضب . الشفقة والرقة . وهذه المشاعر كلها مولودة من الشعر، والشعر مولود منها».

و«الحب الشامل» هو الذى يؤمن به الشاعر «رسول حمزاتوف وهو الذي يملأ كتابته بشكل عجيب، فكأن العناية الإلهية قد وضعت في قلبه قوة خارقة تدفعه إلى أن يكون داعية للحب بين الناس، حتى يتخلصوا من الكراهية والأحقاد والنظرة العدوانية إلى بعضهم البعض، ولعل «رسول حمزاتوف» يبدو واضحًا مضيئًا جميلاً مثل القمر الساطع الكامل في سماء العصر الحديث، لأن «رسول يكاد يكون الشاعر العالمي الحي الوحيد الآن في الدنيا كلها، والذي جعل رسالته الكبرى هي : الدعوة إلى الحب وإغراء الإنسانية بأنها تستطيع أن تجد السلام والحلول لمشاكلها والتغلب على تعقيدات الحياة لو أنها نظرت إلى الدنيا من نافذة «الحب» وليس من نافذة الحقد والكراهية والمشاعر العدوانية . وهناك أديب روسى عظيم آخر سبق على «رسول حمزاتوف» هو «تشيكوف» وكان تشيكوف يقول «إذا كان بوسعك أن تحب، ففي وسعك أن تفعل أى شىء» ، وعبارة تشيكوف الجميلة هي أيضًا تلخيص دقيق لرسالة «رسول حمزاتوف» في الحياة والفن.

يقول «رسول حمزاتوف» في إحدى قصائده ترجمة الشاعر العراقي الكبير حسب الشيخ جعفر عن الروسية :

«الشاعر الحقيقي هو من يرى الشعر في العالم كله وفي الأحاسيس كلها. ولكن : كيف تولد القصيدة؟ مازلت باحثًا عن إجابة لهذا السؤال . ويخيل لي أحيانًا أنني سوف أتوقف عن كتابة أي شيء سوى قصائد الحب والغزل، وأنني سوف أمزق قصائدي الأخرى جميعًا وأقذف بها إلى نيران الموقد الملتهب. منذ زمن وطريقي تنحدر بي من أعالي الجبل.. من يدري كم بقى لى من أيام في هذه الدنيا . نحن لا نملك إلا حياة واحدة ، ولو كان لنا أكثر من حياة لأمكنني أن أوزع حبي حتى يعم على الجميع ، لأكن كما هو مقدر لي أن أكون، وليحدث معي ما يحدث . يكفيني أن يظل «حبي» حيًا» في كل قصائدي : لم يعد أمامي الكثير من الوقت لأكتب عن التفاهات والترهات المختلفة».

وشاعر الحب «رسول حمزاتوف» يقول لنا بصوته الهادئ الجميل العذب: إن الحب لا يعرف الضجيج ولا الثرثرة، فالحب في حقيقته وديع ونبيل وقليل الكلام ، ولغة الحب الحقيقي ، مثل لغة التصوف ، تعتمد على الإشارات والرموز السهلة والبعد عن أي افتعال أو تكلف، وحول هذا المعنى نقرأ هذه القصيدة البديعة لشاعرنا «رسول حمزاتوف» ، والقصيدة هي أيضًا من ترجمة الشاعر العراقي الكبير حسب الشيخ جعفر وعنوان القصيدة «ثلاث نساء» .. يقول رسول :

«ثلاث نساء ودعنني عند سفري. قالت الأولى وهي مستندة على شجرة دون أن تحني رأسها : إذا نسيتني فلن أبكي . وقفت الثانية عند بابها ممسكة بجرة ممتلئة ، وسمعتها تقول : عد سريعًا . أما الثالثة فكانت تتنهد دون أن تنطق بحرف واحد. وراء الجبل الأول نسيت المرأة الأولى، وكانت الثلوج تلمع تحت الغيمة ، ونسيت الثانية بنفس هادئة بعد الممر الجبلي الثاني.

لقد طرت ودرت في المئات من الطرق ، وكنت أطارد الزمن كأن سوطًا في يدي، لكنني لم أستطع عبر الجبال كلها أن أنسى المرأة الثالثة . حين عدت إلى جبالنا، كانت الأولى تنتظر غاضبة على السطح، وخرجت الثانية، طيبة ودودة ، لتلقاني ومعها جرتها الملآنة .. غير أنني لا أستطيع أن أنسي الثالثة في أي يوم من الأيام ، مع أنها لم تكن في استقبالي ، وهي وحدها التي أحلم بها من بينهن جميعًا.

ذلك هو الحب عند شاعر الحب العالمي «رسول حمزاتوف» وهو حب قليل الكلام بعيد عن الثرثرة، لا يجري وراء المظاهر، ويحتفظ بجماله وقوته في القلب، ويعتمد على الإشارات العميقة ، مثل دمعة لا يراها أحد، أو تنهيدة لا يسمعها أحد، أو نظرة، أو تلويحه واحدة بيد دافئة، أو موقف صابر وشجاع في أيام المحنة، وتلك هي المرأة الثالثة التى أحبها «رسول» وأظن أننا جميعًا، مع كل القلوب الصافية، لا نحب إلا هذه المرأة الثالثة ، والتي لا تنطق بحرف واحد في وداعنا، ولا تجري لاستقبالنا عند عودتنا، ولكننا نحس إحساسًا عميقًا بأنها وحدها التي تحبنا بصدق وأخلاص بعيدًا عن كل المظاهر والشكليات.

شاعر له قلب

الشـاعـر الحـقـيـقـي العظيم لابد أن يكون لـه قلب إنسـاني كـبـيـر يمتلىء بالعواطف الطيبة الجميلة التي يحملها لبيته ووطنه وللعالم كله. وهناك شعراء يملكون الكثير من المهارة وإتقان الصناعة الفنية ، ولكنك إذا بحثت فى قصائدهم عن مكان آمن لك، تجلس فيه لحظات صافية نقية، فإنك لا تجد هذا المكان، لأن شعراء المهارة والصنعة لا يكتبون قصائدهم من قلوبهم، ولا يستطيعون أن يخلقوا من هذه القصائد عالمًا روحيًا كاملاً يدعونك إليه في لطف وبدون عنف، فتدخل هذا العالم الشعري وأنت مستريح النفس، كما تدخل حديقة مليئة بالأشجار والزهور، وفي أى مكان من هذه الحديقة سوف تجد الظل، وعندما تنتقل بعينيك في هذه الحديقة فسوف تجد ألوان الزهور المتنوعة، وهي ترقص أمامك في طفولة، وتكشف لك عن أعياد الطبيعة الوديعة الهادئة، وأنت أيضًا تستطيع أن تشم رائحة الهواء لأن فيها عطرًا جميلاً، يسعدك وينعش روحك، هذا هو عالم الشاعر الحقيقي الذي يكتب كلماته من قلبه ، ويطلقها في سماء الدنيا كلها لتطير بأجنحتها الملونة من مكان إلى مكان ، فلا تقف في طريقها لغة ، ولا جمارك ، ولا حرس من حراس الحدود.

ومـا دام الشـاعـر صـاحب قلب ومادام يكتب من هذا القلب المخلص الصافي، فإنه يستطيع أن ينتقل من لغة إلى لغة في سهولة ويسر، ولأن الشعر الصادق الجميل طائر حر طليق فهو لا يعرف الجمارك ولا يخضع لمراقبة «حرس الحدود».

فالقلب هو الوطن الإنساني الشامل الذي يسكنه ملايين البشر دون خوف أو اعتراف بأي قيد من القيود.

والشاعر الداغستاني العظيم «رسول حمزاتوف» هو شاعر من شعراء القلوب، ولذلك فقد تخطى بأشعاره حدود بلده الصغير المكافح «داغستان»،

وأصبح العالم كله ينصت إلى كلماته وينتظرها، بسبب ما تنطوي عليه من صدق وصفاء ووضوح وعذوبة وأمانة في التعبير، وشاعرنا «رسول حمزاتوف» لم يبذل جهدًا في الوصول إلى القلوب الإنسانية في كل مكان ، ولكن الناس عندما استمعوا إلى كلماته. أحبوها، وحملوا على أكتافهم مسئولية نقلها من لغة إلى أخرى، حتى أصبحت كلمات «حمزاتوف» مسموعة في كل مكان، والروس عندما هاجموا في السنوات الماضية أرض «داغستان» التي تكافح من أجل الاستقلال والحرية لا يخافون من شيء كما يخافون من «قصائد» حمزاتوف» وكلماته النبيلة ، وكثيرون من هؤلاء الروس لابد أن يشعروا بالحزن والخجل لأنهم يهاجمون بالمدافع والقنابل والطائرات والدبابات بلادًا تطير منها عصافير ملونة هي قصائد «حمزاتوف» وكلماته الرائعة، أما «حمزاتوف» نفسه، وهو الآن في التاسعة والسبعين فإنه يصر على البقاء في قريته الداغستانية الصغيرة الجميلة «تسادا» لأنه لا يستطيع أن يترك بيته الصغير الذي يضم أفراد أسرته ، ولا يستطيع أن يهجر بيته الكبير وهو وطنه ، خاصة في وقت المحنة التي يمر بها هذا الوطن الطيب الجميل وهو يكافح من أجل استقلاله وحريته.

يقول «رسول حمزاتوف» في كلمة من كلماته الرائعة : «.. لا تكسر الباب.. افتحه بالمفتاح».

وفي هذه العبارة البسيطة ينبهنا الشاعر العظيم إلى أننا لا يجوز لنا أن نأخذ الحياة «بالعافية»، والكثيرون يخطئون عندما يأخذون الحياة بهذه الطريقة العنيفة ويكسرون الأبواب كلما واجهتهم مشكلة من المشاكل ، بينما الأبواب يمكن فتحها بالمفاتيح ، بل ولا يجوز فتحها إلا بالمفاتيح، وإذا فقدنا المفاتيح فليس لنا أى حق في أن نكسر الأبواب ، بل علينا أن نصنع مفاتيح جديدة. إن كسر الأبواب معناه «العنف» ، وقد أثبت التاريخ الإنساني أن العنف ليس حلاً للمشاكل، فكل عنف يخلق عنفًا مضادًا له، والنتيجة هي الدمار الذي يحل بجميع الأطراف، وليست هذه القاعدة التي تؤكد أن فتح الأبواب يكون بالمفاتيح، ولا بكسرها ، هي قاعدة تصلح للشعوب والأحداث والقضايا الكبيرة الأخرى فقط، بل هي قاعدة صالحة لكل إنسان حتى في

حياته الخاصة ، لأن كسر الأبواب بدلاً من فتحها بالمفاتيح، وهو أسلوب خاطئ في الحياة يلجأ إليه البعض، فلا يجدون معه إلا الشقاء والتعاسة ، بينما لو تعلموا الصبر والبحث عن المفاتيح الصحيحة ، فلابد أن ينعموا في أخر الأمر بالهدوء والسعادة وراحة البال.. حتى لو اضطروا أن ينتظروا فترة أطول حتى يعثروا على المفتاح الصحيح، فإن متاعب الانتظار أقل بكثير من ألم العنف وكسر الأبواب.

برغم أن شاعرنا العظيم «رسول حمزاتوف» يدعونا إلى رفض العنف فهو ليس رجلاً ساذجًا على الإطلاق ، لأنه يدرك أن الحياة مليئة بالمتاعب والمصاعب، وقد سافر «حمزاتوف» كثيرًا ، وعرف العديد من الآلام الكبيرة التي يمر بها الإنسان في كل مكان ، وأدرك أنه من الضروري في بعض الأحيان أن يستعد الإنسان للرد على العدوان ولو بالقوة ، ولكن الإنسان عندما يضطر للدفاع عن نفسه بالقوة لا يكون من أنصار العنف وكسر الأبواب، ولا يكون من الذين يجعلون من العنف فلسفة لهم يحاولون أن يفرضوا بها آراءهم على الدنيا، فالذي يرد العدوان ليس معتديًا ولكنه مجاهد من أجل حقه في الحياة ، وإذا مات وهو يجاهد فهو من الشهداء.

وفلسفة «رسول حمزاتوف» الرافضة للعنف فلسفة واضحة جدًا وبسيطة إلى أبعد الحدود، وهو تقوم على «الحب» الإنساني الشامل، وليس الحب بمعناه الضيق، ومن أعلى معاني الحب وأغلاها حب الوطن الذي نشأ الإنسان على أرضه وعاش فيه وسمع أغانيه. فالحب الحقيقي للوطن هو مدخل صحيح لحب الإنسانية كلها، ومن لا يحب وطنه لا يحب الإنسانية، ومن يكره أبناءه وإخوته يكره الدنيا كلها، وعندما نقرأ كتابات «حمزاتوف» سوف نجد فيها شخصية حكيمة هي شخصية «أبو طالب» هي شخصية ابتكرها «حمزاتوف» ليعبر من خلالها عن آرائه وأفكاره، ولكن يبدو أن «أبو طالب» هذا هو شاعر شعبي مشهور في تاريخ «داغستان» وقد اختار «حمزاتوف» اسمه وشخصيته ليعبر من خلالهما عما يريد، فهو إذن شخصية حقيقية وتاريخية ، ولكن معرفتنا بالأدب الداغستاني ضئيلة، بل وتكاد تكون معدومة فنحن لا نعرف من هذا الأدب ولا عنه سوى شخصية

«رسـول حـمـزاتوف» الذي طارت شهـرته في أنحـاء العـالم، من خـلال الترجمات المختلفة لكتاباته ، حتى وصلت إلينا عن طريق ترجمته إلى اللغة العربية، و عن طريق أحاديثه الكثيرة مع الصحفيين والأدباء العرب ، ومن خلال زياراته للعواصم العربية المختلفة، ومنها القاهرة التي زارها في شهر مارس سنة ١٩٨٨ ، وفي حديث له مع الأستاذ سليمان الشيخ نشرته مجلة «العـربي» الكويتـيـة في عـددها الصـادر في يونيـو سنة ١٩٨٧ يقـول «حمزاتوف»:

«دعني أتذكر كلمات شاعرنا الداغستاني «أبو طالب» يقول «أبو طالب»: غبي البيت يقوم بالتشنيع على جيرانه، وغبي القرية يقوم بالتشنيع على القرى المجاورة ، وغبي القومية يقوم بالتشنيع على البلدان الأخرى . والذي يتناول بالسوء لغة أخرى لا يمكن أن يحسب عندنا إنساناً».

وفي هذه الكلمـات التي ينسـبـهـا «حـمـزاتوف» إلى بطله وشـاعـره الداغستاني المفضل أبو طالب دعوة نبيلة إلى الإخاء الإنساني وهو يعتبر هذا الإخـاء نوعًـا من الذكـاء، فـالمحبـة لا تصـدر إلا عن ذكـاء في العقل والقلب، أما الكراهية والتنشيع على الآخرين فهي دائمًا نتيجة للغباء وثمرة له، والغباء لا يتصل بالعقل وحده، فهناك نفوس غبية ، وقلوب غبية، ومثل هذه النفوس والقلوب لا تعرف شيئًا سوى الكراهية وما يتولد عنها من حقد وحسد ومحاولة دائمة لكسر أبواب المشاكل، وليس لفتحها بالمفاتيح الصحيحة.

وفي نفس الحديث مع الأستاذ سليمان الشيخ يقول «حمزاتوف» :

«اللغة في بلادي لا تعادي لغة أخرى ، والأغنية لا تقتل الأخرى. ولأن بوشكين أتى إلى داغستان فلا يجب على «محمود» - أحد شعراء داغستان - أن يغادرها. وإذا شد صديق طيب على يدك ، فإن يدك لا تذوب في يده، بل تصبح أكثر دفئاً وقوة . اللغات مصابيح الحياة . وعندي مصباحان : أحدهما كان ينير لي الطريق . إذا انطفأ هذا المصباح ، فسوف تغرق حياتي في الظلمة، حتي ولو لم أمت جسديًا أما المصباح الثاني فقد أشعله وطني حتى لا أضيع في طريقي إلى العالم الواسع».

فنقطة الانطلاق عند شاعرنا «حمزاتوف» هي حبة لبيته وحبه لوطنه ، ومن هذه الجذور العاطفية استطاع «حمزاتوف» أن يصل إلى حب الإنسانية كلها، ووطنية «حمزاتوف» الإنسانية ليست معادية لأى وطنية أخرى ، خاصة إذا كانت هذه الوطنية بعيدة عن العدوان على الآخرين. ومن أصول الوطنية الصحيحة عند «حمزاتوف» حب اللغة الخاصة بشعبه، وحمزاتوف يكتب بلغة اسمها «الآفارية» وهي لغة لا يستخدمها أكثر من ثلاثمائة ألف من أهل داغستان، ومع ذلك فقد أحبها «حمزاتوف» وكتب بها كل أشعاره وكتاباته النثرية البديعة الأخرى ، وهو يقول عن هذه اللغة ذات الانتشار المحدود **«أول أغنية سمعتها في حياتي كانت أغنية ترددها أمي، وكانت هذه الأغنية باللغة الأفارية».**

ويقول حمزاتوف كذلك :

«.. أنا أيضًا ألبس الملابس الأوروبية، ولم أعد ألبس قفطان والدي، ولكنني غير مستعد أن أجعل شعري يلبس ملابس ليس لها شخصية خاصة بها . أنا أريد أن تأخذ أشعاري شكلنا .. الشكل القومي الداغستاني».

ويقول «حمزاتوف» أيضًا :

«ليقل الآخرون إن لغة شعبنا فقيرة .. أما أنا فأستطيع أن أقول بلغتي كل ما أريده .. ولست بحاجة إلى لغة أخرى كي أعبر عن أفكاري ومشاعري».

فالشاعر «رسول حمزاتوف» يرى - ومعه كل الحق - أن الارتباط بالوطن ولغته أمران ضروريان لأى فنان صادق. وهو يرى أن حب اللغة الوطنية هو جزء لا يتجزأ من حب الوطن نفسه وحب الإنسانية كلها . ولا مكان في حديقة الفن الإنساني الصادق لشاعر ليس له جذور وطنية وجذور لغوية، ولذلك فهو يقول:

«إن ما هو إنساني يبهج نفسي ويؤثر في قلبي. وإذا شبهنا الفنان بالطبيب فعليه أن يعرف كيف يستخدم الوسائل الشعبية القديمة، وكيف يستخدم آخر منجزات العالم في الوقت نفسه»..

ويقول في حديثه مع الأستاذ سليمان الشيخ أيضًا :

«كل اللغات جيدة لشعوبها. واللغة العربية كانت لغة علوم عظيمة وشعراء عظام . وكنت أتمنى لو واتتني الفرصة - مثل والدي - لأتعلم اللغة العربية وأكتب بها ولكنني في طفولتي نهلت من نبع اللغة الأفارية - لغة شعبي - وها أنا ذا أتحدث بها منذ أن وعيت الحياة» .

ولشاعرنا «رسول حمزاتوف» قصيدة قصيرة يقول فيها:

«قد تشفي بعضهم لغة أخرى. ولكني لا أستطيع أن أغنى بها ، وإذا كانت لغتى سوف تموت غدا . فإني أحب أن أموت اليوم».

فالجذور الوطنية والشعبية أصيلة في فن «حمزاتوف» وحياته، وهذه الجذور هي التي ساعدته على أن يكون شاعرًا له قلب، وأن يكون صوته بجذوره الشعبية البسيطة صوتًا مسموعًا في العالم كله، لأنه صوت إنساني لا يكره شيئًا ولا يخشى من شيء ولا يعتبر أى شيء مهما كان صغيرًا خاليًا من القيمة، فشعبه صغير، وقريته «تسادا» صغيرة ، ولغته محدودة الانتشار، ومع ذلك فهو يحبها كلها إلى حد العشق والتصوف ، وهو يقول عن هذا المعني في حديث آخر له مع الأديب الأستاذ عبد الإله عبد القادر «مجلة المنتدى - دبى - مايو ١٩٨٩» :

«إن الشجرة يمكن أن تتغير أوراقها وتنمو وتكبر أو تصغر، لكن جذورها تبقى ضاربة في عمق الأرض، والفنان شجرة وارفة، جذورها الفن الشعبي في بلاده».

ومن أقوال «خمزاتوف» التي تفيد في فهمه كشاعر له قلب، قوله :

«لا تبتعد عن موضوع معين لأن الآخرين كتبوا فيه ، فأنت لك معالجتك الخاصة التي تعكس شخصيتك وجذورك الممتدة في الأرض، وفي الأدب لا وجود «لمستوطنات» مغلقة يعيش فيها الفنان منعزلاً عن غيره، صحيح أن لكل كاتب حقله، ولكني لا أمنع أحداً من الاقتراب من حقلي، وموضوعي ليس مكاناً محرمًا في مسجد لا يجوز أن تطأه قدم إنسان غريب. لا تقل : أعطني موضوعًا .. بل قل : أعطني عينين» ..

ويقول «حمزاتوف» أيضًا :

أعظم الأشياء هو أبسطها . إن العيون التافهة وحدها هي التي ترى الأشياء والظواهر الكبيرة فقط، ومثل هذه العيون التافهة لا تلاحظ أي شيء قريب منها، أما العيون القادرة على النفاذ والتي يملكها الإنسان العظيم فهي التي تستطيع أن ترى ما هو كبير وما هو صغير أيضاً ».

ولعل من واجبنا نحو الشاعر صاحب هذا القلب الإنساني ألا ننهي أي حديث عنه إلا بشيء من شعره ، وهذه إحدى قصائده القصيرة في حوار بينه وبين البحر :

- قل لي أيها البحر لماذا أنت مالح ؟

- الدمع الإنساني في أمواجي غير قليل.

- قل أيها البحر بماذا أنت ملون ؟

- المرجان في أعماقي دفين .

- قل لي أيها البحر لماذا هذا الاضطراب ؟

- في لجتي هلك كثير من الشجعان .

بعضهم كان يحلم بألا أكون مالحًا .

وبعضهم كان يغطس باحثًا عن المرجان».

●●●

الشاعـر .. وأبـوه !!

من أجمل المصادفات في الحياة أن تكون هناك عائلة واحدة فيها شاعر كبير ثم يولد له ابن يصبح شاعرًا كبيرًا آخر، فمن الثابت علميًا أن العبقرية ليست من الصفات التي تنتقل بالوارثة، وأن كل التقدم الذي حققه الإنسان في العصر الحديث لم يجعل من «العبقرية» سرًا مكشوفًا أمام العلماء والباحثين، فلا تزال العبقرية لغزًا يحير العقول، ولا تزال نوعًا من النبوغ الاستثنائى الذي يولد مع الإنسان فيجعل منه شاعرًا مثل شكسبير أو المتنبي أو شوقي، أو يجعل منه موسيقار مثل بيتهوفن وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب، أو يجعل منه مكتشفًا أو مخترعًا مثل إينشتين أو ماركوني أو غيرهما من أصحاب الاكتشافات الكبرى والمخترعات التي استطاعت تغيير الحياة وجعلت من العالم كله «قرية صغيرة» يستطيع الإنسان أن يعرف ما يجرى على كل جزء منها في لحظات قليلة .

العبقرية موهبة إلهية طبيعية تولد مع الإنسان ، وهي صفة لا تنتقل بالوراثة إلى الأبناء إلا في حالات قليلة ونادرة ، ومن هذه الحالات النادرة حالة الشاعر الداغستاني العظيم «رسول حمزاتوف» فقد كان أبوه «حمزة تساداسا» شاعرًا كبيرًا ومشهورًا في الجيل السابق على جيل ابنه «رسول»، وكلمة «تساداسا» هي نسبة إلى بلدة «تسادا» الجبلية في داغستان، وهي بلدة الشاعر «حمزة» وابنه «رسول» وقد تحدث الشاعر الابن عن والده في حوار أجراه معه الأستاذ «نبيل» فرج في إحدى زيارات «رسول حمزاتوف» للقاهرة في الثمانينات، وفي الحوار الجميل يقول «رسول حمزاتوف» عن والده:

«كان أبي معلمي الأول. قبل ظهوره كان في بلادنا «داغستان شعر الحب، وشعر آخر للنضال ، ولكنهما كانا مثل الوترين المتباعدين، فأضاف أبي إلى هذين الوترين وترًا ثالثًا هو «الموضوع الاجتماعي» وجعله ضمن أوتار

الشعر. وكان أبي شاعر الحياة بكل ما في هذه العبارة من معنى، وكان يصور الأحداث والوقائع والهزات في بعدها الاجتماعي الصميم والحميم».

ثم يقول «رسول حمزاتوف» في نفس الحوار :

«إن علاقتي بالثقافة العربية كانت عن طريق أبي. فقد كان يتردد على المدارس العربية في سوريا . وعندما لم يجد مؤلفات «تشيكوف» مترجمة إلى لغته الوطنية وهى اللغة الأفارية» أخذ يقرأ مؤلفاته باللغة العربية التي يجيدها، على حين أنه لم يكن يعرف اللغة الروسية، ومن اللغة العربية استطاع أبي أن يترجم «تشيكوف» إلى لغتنا المحلية في داغستان».

ثم يقول «رسول حمزاتوف» في نفس الحوار مع الأستاذ نبيل فرج :

«لو أنني اكتفيت بما تلقيته في المدرسة ، دون أن أتعلم ما تعلمت من أبي، لما أصبحت شاعرًا. على أن الشاعر مع ذلك لا يصبح شاعرًا إلا إذا كان مستقلاً وصاحب شخصية خاصة به في شعره ، واذكر أني في بداية حياتي الشعرية كنت متأثرًا بقصائد والدي، وكان الناس في بلدي يعتقدون أن أبي هو الذي يكتب هذا الشعر ولست أنا . وكان البعض منهم يسألني في استنكار ظنًا منه أن هذه القصائد التي أتغنى بها هى قصائد أبي .. ماذا حل بأبيك ؟ لقد كان في الماضي يكتب شعرًا رائعًا ، أما الآن فقد تدهور مستواه».

ويعلق «رسول حمزاتوف» على ذلك بقوله :

« .. لذلك لم يقدر لي أن أكون شاعرًا حقيقيًا معترفًا به إلا عندما أصبحت مستقلاً أملك شخصية خاصة بي ولا أرتبط مع أبي إلا بالاسم، ولا يمكن للشاعر أن يصبح شاعرًا إذا كان شعره تقليداً لقصائد شاعر آخر. وأنا لا أحب الشعراء الذين يكتبون أشعارهم تحت تأثير التقليد ولو كانوا يقلدون قصائدي أنا، فالاستقلال الفني والشخصية الخاصة هما الأساس في نجاح الشاعر . ولكل شاعر زمنه ، وصدق العلاقة بين الشاعر وعصره ، هو الذي يجعل الشعر أصيلاً، والشاعر الأصيل هو الذي يتعرف الناس على شعره دون أن يكتب عليه اسمه. على أن الموهبة الحقيقية شيء نادر جداً، وهي لا تنمو بسرعة مثل النباتات بعد المطر، وإنما تحتاج دائمًا إلى وقت طويل وجهد ضخم».

وهنا نتوقف قليلاً عند موضوع «اللغة العربية في داغستان» في جيل والد «رسول حمزاتوف» حيث يقول «رسول» في مذكراته :

«كانت اللغة العربية منتشرة في داغستان على وجه العموم . بعضهم كان يكتب العربية لأنه لم تكن لداغستان حروف أبجدية خاصة بها، وبعضهم كان يكتب العربية لأنها كانت تبدو له أبهي وأغنى من كل اللغات الإنسانية الأخرى. وكان جيل والدي في داغستان يكتب باللغة العربية كل الوثائق والأوراق الرسمية، وكل الكتابات على شواهد القبور في داغستان كانت بحروف عربية مزخرفة. وكان والدي يجيد قراءة هذه الكتابات وتفسيرها، ثم انضمت داغستان إلى الاتحاد السوفيتي وأصبحت جمهورية من جمهورياته ، واعتبر «السوفييت» اللغة العربية في داغستان من الرواسب « الرجعية» فضاعت اللغة العربية وعانى الناس الذين كانوا يقرأونها ويكتبون بها، ومنهم أبى، وعانت الكتب العربية ، نفسها، وضاعت مكتبات كاملة كان قد جمعها مفكران مستنيران من أبناء داغستان هما «على بك جورى» و«جلال كور كما سوف» .. و«جلال» بالتحديد تعلم في «السوربون» بباريس، وكان يعرف اثنتي عشرة لغة، وكان صديقاً للكاتب الفرنسي الشهير «أنا تول فرانس» . وكان من عادته أن يجمع الكتب القديمة الموجودة في القرى الجبلية . ويدفع ثمنها سلاحًا وخيلاً وأبقارًا ، وفيما بعد - حين ضاقت الظروف - كان يدفع في مقابل الكتاب القديم حفنة دقيق أو قطعة قماش. وقد ضاع الكثير من هذه المخطوطات التي جمعها «جلال وهي خسارة فادحة لا يمكن تعويضها».

ونواصل الاستماع إلى صوت «رسول حمزاتوف» والاستمتاع به وهو يتحدث عن أبيه فيقول في كتابه البديع «داغستان بلدي» من ترجمة الأديب السوري الأستاذ «عبد المعين الملوحى»

عندما كنت طفلاً كانت أمي تغني لى أغنية المهد، وكانت تغني لى نفس الأغنية باستمرار، لأنها لم تكن تعرف غيرها، ورغم أن أبي كان شاعرًا شهيرًا، فإنه لم يكتب لأبنائه قصيدة واحدة . كان يسعده أن يروي لنا قصصًا أو حواديت أو نوادر ، أما القصائد فلم يكن يكتبها لنا أو يرددها

أمامنا. وكان أبي بصورة عامة لا يحب أن يتحدث عن قصائده . كنت أحس أنه يعتبر الشعر أمرًا ليس فيه من الجدية ما يكفي للتحدث عنه . أما المسائل الجدية عنه فهي فلاحة الأرض وإصلاح «الزريبة» والعناية بالبقرة والحصان، وكان إذا نظم قصيدة لا يهمه أين يمكن نشرها ولا متى ، وسواء عنده أنشرت القصيدة في مجلة العاصمة أو في المجلة المخطوطة التي يصدرها الطلاب، بل لقد لاحظت أنه كان أكثر سرورًا إذا ما تم نشر قصيدته في مجلة الطلاب».

ثم يقول «رسول حمزاتوف» :

«كان أبي يردد مسرورًا الكلمات التي قالها «أنس محمد» لولده «محمود» شاعر الحب الشهير في داغستان، كان «محمود» إذا عاد إلى بيته يبدو أصفر اللون جائعًا ، وكان يتصرف مثل طفل مدلل يشغله الحب وأغانيه عن كل شيء، وكان أبوه يقول له:

«اشرب الحب، وكل من قصائدك وأغانيك في الحب، أما أنا فيكفيني ما أحمله من عناء في حراثة الأرض بدلاً منك».

ثم يقول رسول حمزاتوف:

«إن الأغنية ضرورة للعصفور، ولكن مهمة العصفور الأولى هي أن يبني عشه وأن يجد رزقه وأن يقدم الغذاء لصغاره ، وكان أبي يعتبر قصائده مثل أغاني العصافير . إنها جميلة وممتعة ، ولكنها من الأشياء التي يمكن الاستغناء عنها. إنه يعتبر هذه القصائد مثل «صباح الخير» نقولها في كل صباح، أو «مساء الخير» نقولها كل مساء، وهي مثل التمنيات الطيبة في المناسبات الحلوة وفي أيام الأعياد، ومثل كلمات العزاء في ساعات الشقاء.»

«يظن بعض الناس أن الشعراء يقفون على هامش الأحداث في هذا العالم، وأن لكل واحد منهم مزاجًا خاصًا، أما أبي ، فكان ذلك الرجل الجبلي البسيط في طبيعته وفي طريقة عيشه. كان يحب قبل كل شيء : الحوار الطويل الهادئ الذي يديره رجال يتجمعون حول موقد النار، ويتحدثون عن كثير من الأمور، دون أن يقاطع أحدهم صاحبه».

«ذات يوم عرض أبي قصائده على الشاعر الشهير، «محمود» ، شاعر الحب والغزل في داغستان ليسمع منه رأيه . ودهش الشاعر الشهير وقال إنه لا يفهم أن يكون موضوع الشعر هو : البقرة أو المحراث أو الكلب أو الطريق المؤدية إلى قرية مجاورة . ويسأل أبي الشاعر الكبير في حياء ، وعن أى شيء يجب أن يتحدث الشعراء؟ فيقول له الشاعر الكبير عن الحب والحب وحده.. ولا شيء غير الحب . يجب أن ننشيء في قصائدنا قصورًا للحب»!.

«ولم ينشيء أبي قصرًا للحب، ولم يهتم به قط فقد كان كل ما يشغله في «قصر» قصائده هو «البيت والأسرة والأولاد والقرية والحصان والبلدة والسلام والأرض والسماء والمطر والشمس والزرع . وفي الحقيقة فإنه كتب ذات يوم قصيدة حب، وحتى لا يقرؤها أحد غيره هو وحبيبته فقد كتبها باللغة العربية».

ثم يقول رسول حمزاتوف:

«أحب أبي الحكمة وهدوء القصة : كان يأخذني في المساء وقت الغروب فوق ركبته ويلفني بعباءته الدافئة ويقص على القصص دون أن يتعب. يقص على قصة الذين سافروا بعيداً في ديار الغربة، وأولئك الذين ظلوا في أرضهم صامدين، يقص قصص الطرق والأنهار، وتفتح الأزهار، والنحل الذي يحوم ويرشف رحيقها ، يقص قصة الشمس كيف تشرق ولماذا تغيب . يتحدث عن العادات والتقاليد في العصور الخالية، وعن الأدعية التي يدعوها المحاربون عند بدء المعركة ، القصة والحياة عند أبي شيء واحد، وهو يعتبر الفكر قصة ، والقصة فكرًا ، أما القصائد فهو يعتبرها شبيهة بقلب متقلب مليء بالأهواء ».

تلك هي بعض ملامح الشاعر «حمزة تساداسا» كما يرسمها ابنه «رسول حمزاتوف» وقد اختلف الابن عن الأب ، فالأب لا يكتب شعرًا عن الحب ولكن أشعاره كلها كانت عن الحياة والعمل والطبيعة ومتاعب الناس في كفاحهم من أجل الرزق. أما الابن فهو يبدأ من «الحب» وينتهي «بالحب» فكل أشعاره مليئة بالغناء للحب، ولكن غناءه للحب لم يحجبه عن متاعب الإنسان، فمن خلال الحب يكتب «رسول حمزاتوف» عن كل مشاكل الحياة .

ويعبر «حمزاتوف» عن هذا الاختلاف الدقيق بينه وبين أبيه في إحدى قصائده فيقول «من ترجمة الشاعر العراقي الكبير حسب الشيخ جعفر» :

«كان أبي شاعراً جبليًا . وخلال عمره الطويل كتب أشعاره عن الجيران، وسكان الجبال، وعن أعمالهم الطيبة وخطاياهم أيضا، مرة جاءه الشيوخ وقالوا: «نحن لا نستطيع أن نفهم كيف حدث أنك لم تكتب بيتًا واحداً عن تلك التي هي أعز الجميع أي زوجتك .. كان لأبى رأي خاص . قال للشيوخ: من يمدح الزوجة فهو أحمق ، ومن يشتم الزوجة فهم لئيم»

ثم يقول «رسول حمزاتوف» بعد ذلك مباشرة عن نفسه:

«.. أما أنا ، فطوال عمري كنت أكتب قصائدى عن زوجتى».

ويكتب الشاعر الابن في قصيدة أخرى:

«أي شيء أتعطش له أكثر من غيره ؟ . لقد عشت حياتي، فماذا أريد أكثر من ذلك ؟.. أريد أن يظل الحب هدفًا لي .. تلك هي رغبتي الأولى والأخيرة».

وفي قصيدة أخرى يقول :

«.. سمعت أن ابن سينا كان يكتب للمرضى وصفاته بالشعر، وأنا لست بطبيب .. ومع هذا أستطيع أن أقدم نصيحة إلى كل الناس.. أحبوا بعضكم بعضاً بقدر ما تستطيعون. الحب هو دواؤنا الشافي من كل المحن».

وهكذا.

كان الشاعر الأب يخجل من كتابه الشعر في الحب.

أما الشاعر الابن ، فإنه يخجل من كتابة قصائده في شيء آخر غير الحب.

●●●

الشاعر والشرطي !!

يروي لنا تاريخ الفن الأوروبي حكاية عن أحد كبار النقاد، وكان هذا الناقد مفتونًا بالرقص الذي تقدمه إحدى السيدات الشابات الفاتنات، وذات يوم كان الناقد يشاهد الراقصة ويبدى إعجابه الشديد بها فقال له أحد الحاضرين» .. لكن الراقصة لا ترقص حسب الإيقاع» ، فما كان من الناقد إلا أن قال على الفور : «إذن .. فالإيقاع غلط؟»

وهذه الحكاية الطريفة البسيطة تؤكد معنى مهما ، وهو أن الراقصة كانت تقدم فنًا جميلاً، أما الإيقاع فكان يقدم القواعد ، والفن الحقيقي أكبر من القواعد، والحياة نفسها أوسع وأعمق من كل الأفكار النظرية ، والوردة قد تكون جميلة جدًا رغم أنها خرجت إلى الحياة دون الالتزام بقواعد العلوم الزراعية المعروفة . فالجمال في الفن والحياة له قدرته الخاصة به ، والتي قد تكون في بعض الحالات أعلى وأفضل من كل القواعد والمقاييس التي تحدد لنا معنى الجمال .

هذه هي الفكرة التي يعبر عنها شاعر داغستان الإنساني العظيم «رسول حمزاتوف» في تحديد علاقته كشاعر وفنان مع النقاد، فهو يقول في حديثه له مع الأستاذ سليمان الشيخ «مجلة العربي - يونيو ١٩٨٧» :

« .. إن علاقتي بالنقاد تشبه علاقة «السائق» بالشرطي، النقاد يريدونني أن أتقيد «بالقوانين» كما يفهمونها، وأنا أحاول في كثير من الأحايين أن أفلت من هذه القوانين. ولكل حالة من حالات «الولادة الفنية» عندي قانونها الخاص بها، والنقاد يمسكون بمساطر يحاولون أن يقيسوا بها القصائد، والقصائد تفلت كثيرًا من هذه المساطر بما تفرضه من قواعد وقوانين».

وهذه الفكرة عند «رسول حمزاتوف» هي فكرة صحيحة، فالجمال في الفن والحياة لا يمكن إخضاعه لقوانين نهائية وصارمة ، لأن قوانين الجمال

يجب أن تكون شديدة المرونة، حتى تستطيع أن تستوعب ما يخرج على هذه القوانين لأنه أجمل منها.

وفي كلمات أخرى يقول «رسول حمزاتوف» مؤكدًا على أن الفن الجميل أكثر حرية من كل القواعد الصارمة»..

كان يحكم روسيا أمراء وقياصرة وثوريون وأعداء للثورة، لكن أحدًا منهم لم يطلب النصيحة من الشعراء، وأنا عشت في الاتحاد السوفييتي في عهد عدة أمناء عامين للحزب الشيوعي، ومنحني أحد هؤلاء الأمناء وهو «برجنيف» نجمة ذهبية واحدة، بينما حصل لنفسه على خمس نجمات كبطل للاتحاد السوفييتي، وغالبًا ما يسألني معارفي: ما هو الحزب الذي تنتمي إليه، فأجيبهم «إنني من حزب الشعر»، أما «نظامي الداخلي» فإنه يتألف من كبار الشعراء الذين سبقوني في روسيا أو في بلدي داغستان، أما «انضباطي الحزبي» فقد اكتسبته من أبي الشاعر «حمزاتوف» ولا يمكن أن يطردني من «حزب الشعر» أحد إلا الشعب، أما «برلماني» فهو قريتي الجبلية» ، وهناك - في هذه القرية - توضع قواعد سلوكي والقوانين التي أحب أن يكون عندي ولاء لها».

وعندما يلومه البعض لأنه كان شاعرًا معروفًا في عهد ستالين وبريجنيف، أي عهد القبضة الحديدية، وأنه نال الجوائز الكبرى فى هذه العهود الاستبدادية، وخاصة في عهد ستالين فإنه يقول «والترجمة للأستاذ طلعت الشايب» :

«.. إن الأدب كالسماء يتسع لكل النجوم، فلا تحجب نجمة ضوء أخرى عن البشر، وما يجرى باسم الديمقراطية الآن في روسيا من عمليات انتقام من الأدب والأدباء الذين لم يوجهوا نقدًا لعصر ستالين وبريجنيف إنما يتنافى مع المفهوم الراقى الصحيح للأدب والفن . لقد قالوا عني إنني حصلت على جائزة أدبية في عهد ستالين، فما ذنبي إذا كانوا هم - قد غنوا له وصنعوا منه أسطورة فرضوها علينا وصدقناها ؟ . لقد آمنا في تلك الفترة لأننا كنا من العميان. والكثيرون من أبناء جيلي كانوا يصدقون كل ما يقال، وحين جاءنا الصحو وجاءتنا اليقظة وجدنا أنفسنا على حافة

الهاوية المظلمة وتساءلنا : ما العمل ؟ .. هل بالعودة إلى الخلف؟ ولكن إلى أين ؟ أو بالقفز فوق الهاوية ؟ إن في ذلك مخاطرة كبيرة . بل في ذلك موت أكيد .. إننا نجيد توجيه الأسئلة إلى بعضنا البعض : ما العمل؟ من المذنب» ؟ ويكون المذنب بالطبع هو الشتاء الماضي والقادة السابقون. على أنني لم أكتب أبدًا شعرًا لستالين ، وإنما كتبت عن الثورة والفقراء ، وكتبت عن داغستان بلدي».

ثم يقول «رسول حمزاتوف» :

«الطبيعة أفضل فنان ، وهناك أناس كثيرون يفهمون لغة الطبيعة ، وهناك من لا يفهمون هذه اللغة، والشعراء الحقيقيون هم الذين يترجمون لغة الطبيعة، والطبيعة خالدة، غير أن الطقس متغير ، الطبيعة عبقرية والطقس حالة . والطبيعة هي هدية الله للإنسان . أما المادة الثانية في «دستور الشعر» فهي : تجربة الزمن. وهذه التجربة معناها حركة الحياة وتموجات الروح . وتجربة الزمن - بهذا المعنى - تترك بصماتها وهزاتها على إنتاج الفنان».

فشاعرنا «رسول حمزاتوف» هو ابن الحياة، وهو عضو دائم في «حزب الشعر» وليس عضوًا في حزب آخر سواه . ومادة شعره الأساسية هي ما يحس به في علاقته مع الناس والطبيعة، وكلما كان الناس طيبين وفطريين كانوا أقرب إلى قلبه ، وكلما كانت الطبيعة أقرب إلى صنعة الله كانت أجمل وأعمق وأكثر تأثيرًا في نفس الشاعر.

وشاعرنا فنان لا يحب أن يتقيد بقوانين النقاد، سواء أكانوا نقاد أدب أو نقاد سياسة، فهؤلاء هم «رجال الشرطة» في الفن والفكر، والفن والفكر لهما عالم يقوم على الحرية والضمير المسئول عند الفنان والمفكر، أكثر مما يقوم على القواعد الصارمة والقوانين الثابتة .. ورجل الشرطة مطلوب لحفظ الأمن في المجتمع ولا غنى عن دوره ورسالته ، ولكن ضمير الفنان والمفكر لا يحتاج إلى شرطة تنظم الأمن الفني والفكري، وتضع الشروط والقوانين للجمال وكيف يكون، فالجمال عندما يظهر في وجه امرأة، أو في وردة، أو في قصيدة أو في لوحة ، فإن هذا الجمال يكون فوق كل القوانين، لأن الجمال هو في حد ذاته قانون تتبعه كل القوانين الأخرى.

ولأن شاعرنا «رسول حمزاتوف» فنان وهبه الله القدرة على صناعة الجمال في قصائده وفي كل كتاباته، ولأنه صاحب قلب طيب رحيم عامر بالحب لأبناء شعبه، بل ولكل إنسان فيه خير على هذه الأرض.. لأن الله وهبه كل هذه المواهب بسخاء شديد ، فإن «رسول حمزاتوف» يعرف الحزن ولا يعرف التشاؤم، والفرق كبير بين الحزن والتشاؤم، فالحزن في معناه الشفاف حالة من التعاطف مع متاعب الإنسان في هذه الدنيا، والحزن بهذا المعنى يجعل الإنسان أكثر إنسانية، وأقرب إلى الله وإلى كل معاني النبل والخير في هذا الوجود، وكل الطيبين على الأرض لابد أن يكون لديهم «لمسة حزن» داخلية، لأن الحياة لا تخلو أبدًا من المتاعب والمنغصات، والقلوب الطيبة النبيلة تحس بهذا كله وتتأثر به وتجد في «حزنها» قوة دافعة للعمل ضد كل ما يقهر» الإنسان ويسعى إلى كسر أجنحته وتعطيل لحظات السعادة في حياته . ذلك هو الحزن النبيل، أما التشاؤم فهو حالة من الجمود عند فكرة واحدة، تقول : إنه لا أمل في شيء ولا حل لأى مشكلة ، وليس أمام الإنسان في حاضره ومستقبله سوى اليأس. والمتشائم يقول لنفسه وللناس من حوله : أنا أكره السعادة لأنها لا تدوم، وأستريح إلى التعاسة لأنها هي التي تبقى، وهي المصير الأخير لكل إنسان . ولذلك فالتشاؤم هو في حقيقته قوة مدمرة للحياة والإنسان، على عكس الحزن الذى هو قوة دافعة عند أصحاب القلوب النبيلة وهي قوة تساعد على مقاومة مصاعب الحياة .

وشاعرنا «حمزاتوف» من أصحاب القلوب النبيلة التي تعرف الحزن، وترفض التشاؤم وتتكره وتشن عليه الحرب بكل ما تستطيع من قوة .

ومن تجارب الحياة المدهشة أن الفنان الحقيقي الموهوب، مع كل ما ينطوي عليه قلبه من حزن نبيل، لابد أن يكون لديه موهبة السخرية والمرح والرغبة في الضحك كلما اصطدم ببعض التناقض الذي تمتلىء به حياة الإنسان . وما من فنان حقيقي كبير - مهما كان قلبه مليئًا بالأحزان - إلا وفيه هذه النزعة إلى السخرية، والميل إلى المرح والضحك.

و«رسول حمزاتوف» صاحب القصائد الرائعة البسيطة ، وصاحب

الأحزان النبيلة يفاجئنا أحيانًا بملاحظاته الساخرة الضاحكة التي لا تنطوي على أي نوع من المرارة ، بل تمتلىء على العكس بروح إنسانية صادقة ومليئة بالعطف والحنان والرحمة. فهو يقول عن نفسه إن الله قد حرمه من موهبة «تعلم اللغات الأجنبية» فهو لا يعرف سوى لغة بلاده داغستان واسمها اللغة «الأفارية» بالإضافة إلى اللغة الروسية التي لا يزال ينطقها بلكنة خاصة به . و هو يأسف لذلك ويرى أن معرفة اللغات المختلفة هي طريق للرحمة والمودة والتفاهم بين الشعوب، ويسخر «رسول حمزاتوف» من نفسه بسبب هذا النقص اللغوي الذي يعانيه ويروي لنا هذه القصة الطريفة الضاحكة فيقول:

«كان ذلك في «كوبا» .. وأنا في الطريق قررت أن أذهب مباشرة إلى الحلاق لأقص شعري وأحلق ذقني. ودخلت إلى صالون الحلاقة وأفهمت صاحبه بالإشارات ما أنا بحاجة إليه. وفي كوبا، حين يحلقون لك ذقنك، يجلسونك فوق كرسى كأنه سرير، وأجلسني الحلاق على هذا الكرسي، أو هذا السرير وجرى كل شىء على ما يرام إلى أن مست «موسى» الحلاقة خدى، كدت أصرخ وقتها من الألم، إما لأن «الموسى» كانت غير حادة، أو لأن الحلاق لم يكن ماهرًا، وصبرت بعض الوقت ، لكني أدركت أني لا أستطيع الصبر حتى النهاية، فأخذت أشير إلى خدي متحدثا باللغة الروسية تارة، وبلغتي «الأفارية» تارة أخرى، وأحس الحلاق بالذعر، وخرج وهو يركض، ثم عاد ومعه رجل يلبس رداء أبيض، وفتح الرجل حقيبته وراح يضع أمامه أدوات خلع الأسنان . وفجأة وجدتني على كرسي طبيب الأسنان بدلاً من كرسي الحلاقة . هذا ما جرى لي لأنني لم أستطع أن أتفاهم أنا والحلاق. ولم يبق أمامي سوى أن أفقد أسناني القليلة».

وفي لفتة ضاحكة ومرحة أخرى يقول «حمزاتوف» :

«لقد نظمت الكثير من القصائد عن أمي «فاطمة» وكتبت كذلك عن زوجتي واسمها «فاطمة» وكتبت قصائد أخرى عن ابنتي واسمها أيضًا «فاطمة» ولهذا وصفوني بأن متخصص في «العلوم الفاطمية» على وزن المتخصصين في «العلوم الرياضية» خاصة ان عبارة «العلوم الفاطمية» يتم نطقها في اللغة الروسية كما تنطق عبارة العلوم الرياضية .

هذه بعض ملامح شخصية شاعرنا «رسول حمزاتوف» فهو شاعر حر، تعلم دروس الفن والمحبة من شعبه وطبيعة بلاده الجبلية الساحرة «داغستان» ، وهو شاعر أعلن التمرد على النقاد المتزمتين أصحاب القواعد الصارمة، ورفض أن يقدم إليهم فروض الطاعة والولاء، فهو فنان، وهم رجال شرطة في عالم الفن الذي لا يحتاج إلى «شرطة» لأنه صاحب ضمير مسئول وإحساس صادق، وحمزاتوف هو شاعر منحه الله فيضًا من الموهبة، واتسعت حياته لتجارب كثيرة من خلال تعامله مع الناس ورحلاته المتعددة وارتباطه الوثيق بأبناء شعبه، واكتسب في فنه ونفسه لمسه حزن صادقة، ولكنه لم يكن أبدًا من المتشائمين ، وعلى العكس من ذلك فإنه يكافح - بكل الجمال الذي يمتلكه - من أجل حياة إنسانية آمنة وسعيدة ، وبخاصة للضعفاء والفقراء والمحرومين من وسائل الثراء والرفاعية وهم غالبية البشر.

ولا أستطيع أن أقاوم إغراء قصائد «حمزاتوف» في أى حديث عنه، فهذه القصائد وحدها هي الشاهد على إنسانيته وموهبته ونبل قلبه، وهذه إحدى قصائده وعنوانها «إحمل معك أغنيتك» وفيها يقول:

«يخرج المسافر في سفر، فماذا يحمل معه ؟، هل يحمل شرابًا ؟ هل يحمل خبزًا ؟ ، لكن يا صديقي العزيز ، لن نتأخر في إكرامك، ولن تحتاج إلى ما تحمل ، فالمرأة الجبلية سوف تخبز لك خبزك والرجل الجبلي سوف يقدم إليك شرابًا».

«ويخرج المسافر، فماذا يحمل معه ، خنجرًا مسنونًا يحمل، لكن يا صديقي العزيز .. في الجبال سوف نقدم لك فروض الإكرام، وإذا كان عدوك لا يغفل عنك ، فالجبلي عنده أيضًا خنجر ، وهو .. سوف يحميك» .

«يخرج المسافر في سفر، فماذا يحمل معه ؟ .. أغنية يحمل ؟.. لكن يا ضيفي العزيز، الأغاني المدهشة عندنا ، ولا حصر لها في الجبال.. لكن .. لا بأس .. احمل معك أغنيتك .. فحملها ليس بالثقيل».

في البدء كان الحب

في هذا الفصل نقف وقفة أخيرة مع شاعر داغستان العظيم «رسول حمزاتوف» بعد أن طالت رحلتنا معه في الفصول السابقة ومصدر الجمال عند «حمزاتوف» هو «الإنسانية الصادقة الفياضة» في شخصيته وانعكاس هذه الإنسانية على كتاباته ، نثرًا أو شعرًا ، بصورة كاملة ، وهذا الارتباط بين النزعة الإنسانية والفن في شخصية واحدة ليس أمرًا بسيطًا يتكرر كثيرًا ، بل هو أمر نادر ، فبعض الموهوبين من الفنانين، حتى الكبار منهم ، يكونون في الجانب الشخصي أقل من مستوي فنهم الذي أبدعوه ، ومازلت أذكر ذلك الفيلم السينمائي عن الفنان العالمي العبقري بيكاسو، وهو فيلم يعتمد على مذكرات إحدى زوجاته، وفي هذا الفيلم شخصية بيكاسو في جانبها الإنساني شخصية منحطة عابثة لا تعبأ بشىء ولا تقيم وزنًا لمشاعر الآخرين ، حتي لو كانوا أقرب الناس إليه ، مثل زوجته وأبنائه، وقد أذهلني أن هذا الفنان العبقري الاستثنائى يخلو من الشعور الإنساني الرحيم في تصرفاته ومواقفه وعلاقاته بالناس، وبقدر ما تثير أعمال «بيكاسو» الإعجاب والفتنة، حيث وهبه الله يدا قادرة على إبداع لوحات عظيمة ، بقدر ما نشعر بالضيق الشديد لهذا الإنسان الفظ الذي خلا قلبه من الرحمة والحنان تجاه غيره من البشر.

فالفن جميل، ولكن الإنسانية الراقية أجمل وأهم، والفنان مهما كانت عبقريته إذا خلا من الإنسانية فإنه يكون فنانًا ناقصا ، والفنانون الذين يجمعون بين الموهبة العالية والقلب النابض بالحب والعاطفة الجميلة هم الفنانون العظماء، وهم القادرون بأعمالهم وأشخاصهم على أن يضيفوا شيئًا إيجابيًا إلى الحياة، وأن يقدموا مشاركة حقيقية ومواساة صادقة كلما فرضت الحياة متاعبها وهمومها على الإنسان، ولا شك في أن الفنانين

العباقرة أصحاب الشخصية العظيمة في الوقت نفسه، كانوا خيرًا وقوة دافعة ونافعة لبلادهم وللعالم كله ، أما الذين يقدمون فنًا جميلاً وتنقصهم الإنسانية الحقيقية في سلوكهم وأشخاصهم ، فسوف يظلون صغارًا مهما ارتفعوا ، وسوف يؤثر ذلك بصورة سلبية على فنهم وإحساس الناس بهم.

وشاعرنا العظيم «رسول حمزاتوف» ٩٧ سنة هو واحد من هؤلاء الكبار الذين جمعوا بين جمال الفن وجمال الشخصية الإنسانية، ولذلك فإن صوته مسموع في الدنيا كلها ، وكلماته المكتوبة بلغة محدودة الانتشار وهي «اللغة الأفارية» إحدى اللغات المحلية في داغستان تتم ترجمتها إلى معظم لغات العالم الكبرى ، ويقبل عليها الناس بحب ولهفة، ويجدون فيها غذاء وجدانيًا وروحيًا لا ينتهي ، وصوته يسمعه العالم كله الآن وهو يقف ضد العدوان الروسي الظالم على شعب «الشيشان» حيث يقول :

«إن العار والغباء يجتمعان في هذه الحرب أو هذه المجزرة، وسوف تعيدنا هذه الحرب مائة عام إلى الوراء ، بعد أن كنا قد تجاوزنا الأحقاد والضغائن الكثيرة وحققنا تصالحا صادقًا وإنسانيًا بين القوميات».

وكل الذين التقوا بالشاعر «رسول حمزاتوف» يجمعون على أنه، إلى جانب موهبته العظيمة، يمتاز بشخصية إنسانية رائعة دافئة وقريبة إلى القلب، فهو أشبه بالقديس الطيب الذي يلفت الأنظار دائمًا إلى معاني الخير في الحياة ، ويدعو الإنسان إلى أن يتغلب على نزعات الشر، وأن يكون إيجابيًا، وأن يبني ولا يهدم، وأن يمد يده إلى الآخرين، وأن يدرك أن العمر قصير مهما طال، وأن السلطة زائلة مهما كانت قوية ، وأن الحياة صعبة ومليئة بالهموم، وواجب الإنسان الأول هو أن يعمل على تسهيل الصعوبات وتخفيف الهموم وتجفيف الدموع كلما أمكنه ذلك.

على أن تأثير «رسول حمزاتوف» له أداته الرئيسية وهي كتاباته، والجمال والعظمة في هذه الكتابات مصدرهما الأول هو شخصيته الإنسانية ونظرته الطيبة النبيلة إلى الحياة .

ومع ذلك فعلينا في وقفتنا الأخيرة مع «رسول حمزاتوف» أن نسأل ما هو سر السحر في شعره ونثره؟ ، إن كتاباته بالطبع تنبع من قلبه الكبير ونفسه الطيبة وموهبته الطبيعية العالية، ولكن الكتابة - شعرًا أو نثرًا - هي في آخر الأمر «صنعة» .. فما هو سر الصنعة عند رسول حمزاتوف؟.

سر «صنعة» رسول حمزاتوف بالإضافة إلى فطرية الموهوبة المولودة معه، أنه يعتمد في كل ما يكتبه على «الصورة» ، فهو لا يقدم أفكارًا نظرية مجردة، وعندما يريد أن يقدم فكرة من الأفكار فإنه يرسم «صورة» حية أمامنا، ونقف أمام هذه الصورة الحية في قصائده أو في كتاباته النثرية التي لا تختلف كثيرًا عن شعره، ويتركنا الفنان لنخرج نحن بالأفكار بعد أن نرى الصورة التي رسمها ، واعتماد «حمزاتوف» على «الصورة» هو الذي جعل قراءة شعره أمرًا سهلاً وممتعًا، حتى لو كان هذا الشعر مترجمًا من لغة إلى لغة ثانية ، أو مترجمًا من هذه اللغة الثانية إلى لغة ثالثة أو رابعة ، ولا شك في أن الاعتماد المدهش على «الصورة» عند «حمزاتوف» هو الذي ساعد على انتشار شعره وشعبيته واتساع جماهيره في كل مكان. وبذلك وضع «حمزاتوف» يده على أفضل فهم للشعر في كل الآداب العالمية، فالشعراء الكبار والمؤثرون في الوجدان الإنساني يعرفون قيمة «الصورة» في الشعر ويعتمدون عليها ليصلوا إلى قلوب الناس، وأول شاعر كبير عرفته الإنسانية وهو «هوميروس» الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد كان يروي في أشعاره صورًا ، أو قصصًا أو «حواديت» ، ولم يكن يقدم في أشعاره أفكارًا نظرية مجردة، فالأفكار في الشعر الحقيقي مثل الروح في الإنسان، نحس بها ولا نراها ، وندرك أن هذه الروح هي التي تحرك كل شيء رغم أننا لا نعرف أين موضعها من جسم الإنسان، ولذلك كان «هوميروس» ، أول شاعر كبير في التاريخ - يروي قصصًا، وكان يغنيها ، فهي قصص شعرية أي أنها قصص فيها موسيقى ، وفي «الصورة» الشعرية أو القصة الشعرية تختفي الأفكار وتختفي الموسيقى أيضًا ، ولكن الأفكار والموسيقى يبقيان مثل الروح في كل شعر عظيم.

وأتوقف هنا أمام بعض «صور» حمزاتوف في أشعاره الرائعة، معتمدًا على ترجمة الشاعر العراقي الكبير «حسب الشيخ جعفر» لمجموعة كبيرة من قصائده، فعندما يريد «حمزاتوف» أن يكتب في تمجيد العمل وأن يرفع من قيمة الجهد الإنساني فوق الكلمات والأقوال مهما كانت جميلة ، فإنه يقدم إلينا هذه الصورة البديعة :

«قديمًا كان أجدادنا يحفرون كلماتهم فوق خناجرهم، وبعض هذه الكلمات هو ما أحاول كتابته بالقلم باذلاً في ذلك جهودًا مضنية، وكان أجدادنا يسرعون إلى القتال على خيولهم القوية ، ويودعون حبيباتهم بكلمات يكتبونها بالدم على الحجر، وقد كتبوا - في الحب - بدمائهم ما أحاول بصعوبة كتابته بالحبر» .

ففي هذه القصيدة «صور حية» لا تفصح بأى كلمات مباشرة عن الفكرة الأساسية، وهي أن المواقف والأفعال أقوى من الكلمات والأقوال وأن الأقوياء الصادقين من البشر يكتبون كلماتهم بالدم، أو يحفرونها على الخناجر، وأن ما هو مكتوب بالدم أو محفور على الخنجر أقوى وأبقى وأكثر تأثيرًا وأعمق تعبيرًا من الكلمات المكتوبة بالحبر، وهذه الصور كلها - على بساطتها - رائعة ، ونستطيع نحن أن «نسرح» مع هذه الصور لنكشف معناها البعيد ، فليس «الحب» لعبة ، وليس كلمات حلوة تصدر من اللسان ، وليس ألفاظًا لطيفة رقيقة نكتبها بالحبر، فأصحاب العواطف الحقيقية، من أهل الجبال يكتبون كلمات حبهم بدمائهم فوق الحجارة، وهذا معناه أن العاطفة الحقيقية القوية تحتاج إلى العزم والإرادة والاستعداد للتضحية، وهذه الصور «في أبيات» حمزاتوف تدفعنا إلى الشعور بأن أي صدق في هذه الدنيا لابد أن يكون قويًا، وأن الصدق الضعيف، الذي يعبر عن نفسه في سرعة وخفة هو نوع من الكذب، وما أجمل وأعجب صورة المقاتل، الذي يذهب إلى المعركة ولا ينسى قلبه ، فيكتب لحبيبته بدمائه فوق الحجارة كلمة أو كلمات يقول فيها للحبيبة إنه يحبها، وأنه سوف ينتصر على أعدائه

لكي يعود إليها، كما وعد في كلماته المكتوبة باللون الأحمر، أي بالدم ، على «خد الحجر.

وهذه صورة مثيرة في قصيدة أخرى، حيث يقول حمزاتوف:

«قديمًا سمعت هذه الحكاية، التي تعود إلى ذاكرتي اليوم .. كان الابن الحزين يقود أمه العمياء آخذاً بيدها في طرق الدنيا المختلفة .. سار بعيداً باحثا عن علاج لها حتى نالت الشفاء، واستطاعت أخيرًا أن تبصر ضوء النهار .. ناوليني يدك أيتها الأرض العمياء تعالي معي، أنا ابنك وينبغي أن تصبحي بصيرة».

تلك هي قصيدة «حمزاتوف» البسيطة ابحث فيها عن أي فكرة مباشرة ، فسوف تتعب ولن تجد في يدك إلا السراب، ولكن «الصورة» في القصيدة قادرة على أن تبعث إلى النفس بكثير من الأفكار الكثيرة الحميمة، فالشاعر مهموم بأحوال الإنسان فوق هذه الأرض، والأرض هي الأم العمياء، وهو ابنها الحزين الذي يطلب لها الشفاء، ويريدها أن تصبح بصيرة ، ونحن نغرق في الخواطر والتأملات مع هذه الصورة ونتذكر كثيرآً من الأحداث الكثيرة التي تقول لنا إن أرضنا عمياء وأن أحلامنا هي أن نفتح عينيها على الضياء، والضياء هو الحق والعدل والرحمة والحنان ونهاية قسوة الإنسان على الإنسان .

وكثيرًا ما تأخذ «الصورة» في شعر «حمزاتوف» شكل الحوار بينه وبين شخصية حقيقية أو شخصية معنوية، فالحوار نوع من أرقى أنواع الصورة الفنية لأنه يقوم على «موقف» فيه طرفان: الشاعر وكائن آخر يتحاور معه ، ولابد ونحن نقرأ مثل هذا الحوار أن نتصور «الموقف» ونتصور «الطرفين» اللذين يتحاوران» وهذه قصيدة من قصائد «حمزاتوف» يتصور فيها موقفًا يدور فيه حوار بينه وبين حبيبه، حيث يقول :

«أقول لك صادقًا أترانا بشكوكنا وظلمنا سنسمح للحياة بأن تتحول إلى كومة حطب؟ يخيل إلى أنني لم أعش يومًا واحداً قبل أن تظهري في هذا الوجود، فمن كان سوف يصبح سببًا لشكواى ؟ ومن كان سوف يصبح مصدرًا

للبهجة والسعادة في حياتي؟ ترى هل كانت الحدائق تمتلىء بالأزهار، وهل كانت الطيور تغني أو كانت النجوم سوف تضىء في السماء ؟ لو لم تخلق أنت هل كنت أستطيع أن أكون سعيداً ، كما أنا الآن؟.

تلك المقاطع من قصيدة «حمزاتوف» فيها أسئلة كثيرة يقدمها «العاشق» إلى حبيبته والحبيبة غير موجودة في القصيدة ، وهي لا ترد على الأسئلة ، ولكننا نحس بأنها موجودة وأنها تستمع إلى أسئلة الشاعر، والشاعر لا ينتظر الإجابة ، لأن كل سؤال يطرحه يحمل إجابته معه ، ولذلك فنحن أمام هذه «الصورة» أو هذا «الموقف» نشعر بوجود الحبيبة وبأنها تستمع إلى الأسئلة المطروحة، وتسمع الإجابات وتشعر بالرضا والسعادة.

وعندما يحدثنا الشاعر عن ذلك البحث الإنساني الدائم عن السعادة، والذي هو هدف الجميع رغم أن أحدًا لا يعترف أنه حقق «السعادة الكاملة» التي يصبو إليها .. عندما يريد «حمزاتوف» الجميل أن يحدثنا عن السعادة التي نجري وراءها ولا نكاد نحصل عليها يتخيل أن هناك بينه وبين السعادة حوار يجري على هذه الصورة :

- أين أنت - إذن - أيتها السعادة ؟

أين وجهك المضىء ؟

- أنا فوق قمة من القمم العالية ، التي لم تصعد إليها بعد.

- أين أنت ؟ لقد عبرت إليك سابحًا ألف نهر ؟

- أنا في أنهار لم تحملك مياهها بعد.

- أين أنت ؟ لقد أهديتك أكثر من أغنية .

- أنا في أغان لم تكتبها بعد.

أنا في الأفق البعيد أدركني إن استطعت .

فالسعادة في هذا الحوار أو في هذه الصورة، مطلب يجري الإنسان وراءه دون أن يناله بالكامل، وسوف يظل الإنسان يصعد إلى القمم، ويسبح

في الأنهار ويغني الأغاني، كل ذلك بحثا عن السعادة، ولكنه لن يستطيع أن يقول إنني قد أمسكت بيد السعادة، التي لن تفلت مني أبداً، ولعل «الجري وراء السعادة» هو السعادة الوحيدة، التي سوف يملكها الإنسان في هذا العالم.

ولأن «حمزاتوف» الجميل لا يروينا من قصائده إلا من نبع واحد هو نبع الحب الإنساني الشامل، فهو يقدم إلينا هذه الصورة في قصيدة من قصائده البسيطة البديعة فيقول:

«خبريني يا شقيقة روحي

رحمة بي

حين يتصادف أن أكون

في أرض غريبة

ثم يتلبد الجو وتعصف العواصف

لماذا

حين تظهرين لي

يهدأ كل شيء ؟»

لم يقل لنا الشاعر أن ظهور حبيبته كان في خياله، لأنه من شدة لهفته وصدقه يعتبر الخيال واقعًا ملموسًا يراه بعينيه ويمسكه بيديه ، ولذلك فهو عندما يكون في محنة، وتظهر له حبيبته في خياله، فإن كل شيء يهدأ، حتى لو كان هذا الشيء عاصفة عاتية .

وهذا الشاعر الإنساني العظيم لا يقدم إلينا فنه من خلال «الصورة» التي تملأ قصائده فقط، ولكنه يقدم إلينا «صورة» المختلفة وهو يغني، فما من قصيدة نقرأها له إلا ونشعر أنه يغنيها وهو يكتبها ويقدمها إلينا، فالصورة مرتبطة بالموسيقى التي نشعر بها واضحة وهو يعزفها في كل

قصائده، رغم أننا نقرأ هذه القصائد بلغة غير لغتها الأصلية ، فالشعر العظيم لا تنفصل «الصورة » فيه عن الغناء ، وكل شاعر عظيم هو مطرب أيضًا.

والشاعر العظيم قبل كل شيء صاحب رسالة إنسانية، ورسالة «حمزاتوف» يصورها لنا في إحدى قصائده فيقول:

أريد أن أنادي بالحب .. وطنًا.

كي يعيش الجميع ، هناك

في دفء وسلام

وأن يبدأ نشيد الجميع بهذه الكلمات

في البدء.. كان الحب على الأرض».

●●●

كتب صدرت للمؤلف

١- فى أزمة الثقافة المصرية .

٢- أبو القاسم الشابى شاعر الحب والثورة.

٣- ثورة الفقراء .

٤- فى أضواء المسرح .

٥- تأملات فى الإنسان .

٦- أدباء معاصرون .

٧- مقعد صغير أمام الستار - «دراسات فى النقد المسرحى».

٨- أدباء ومواقف .

٩- أصوات غاضبة فى الأدب والنقد.

١٠- كلمات فى الفن .

١١- محمود درويش - شاعر الأرض المحتلة.

١٢- بين أنور المعداوى وفدوى طوقان - صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر.

١٣- الانعزاليون فى مصر - رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين.

١٤- أدب وعروبة .

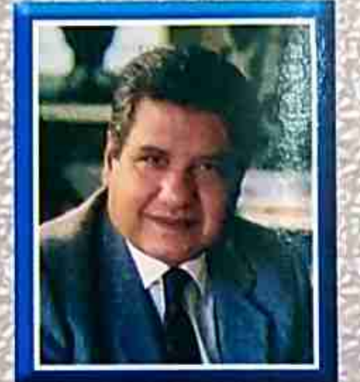
١٥- عباس العقاد بين اليمين واليسار.


تطلب جميع أعمال الكاتب
من
أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامي ش.م.م.
أطلس
للنشر والإنتاج الإعلامى

الفهرس

طاغور ١٢١

رسول حمزاتوف ١٦٩



شعراء عالميون

اجتماع جمال الفن مع جمال الإنسانية هو القمة العالية التى يصبح فيها الجمال نوعاً من الكمال، وفى هذه القمة يشعر الإنسان بالطرب والنشوة، ويحس أن هذا الكمال المزدوج فى الفن والإنسانية هو أكرم نعمة من الله على مخلوقاته فى هذه الدنيا المليئة بالصعوبات والآلام، ولكن للأسف فإن بعض صانعى الجمال يكونون فاقدين للجمال فى حياتهم الشخصية وتعاملهم مع الناس.

وفى هذا الكتاب يصحبنا المؤلف فى رحلة مع أربعة من أكبر شعراء العالم فى القرن العشرين جمعوا بين جمال الفن وجمال الإنسانية فى قلوبهم الكبيرة وفلسفتهم المليئة بالرحمة والحنان ، وهذه الرحلة تتسم بالحرية مع الحرص على دقة المعلومات، لكنها لا تتوقف كثيراً إلا عند التجارب الإنسانية والروحية والفنية العالية .

فإلى الذين ينصتون إلى أفئدتهم أكثر مما ينصتون إلى المناهج والمدارس الفكرية الصارمة نقدم لهم هذا الكتاب، سائلين المولى عز وجل التوفيق ، إنه سبحانه وتعالى نعم المولى ونعم النصير .

الناشر